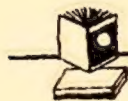


بلزاع

الملهاة الانسانية

البحث عن المطلق

ترجمة المهندس،
ميشيل حنوري



منشورات وزارة الثقافة

في الجمهورية العربية السورية

دمشق ١٩٩٥

بلزاع

المهارة الانسانية

البحث عن المطلق

ترجمة المهندس،

ميشيل حنوري



منشورات وزارة الثقافة

في الجمهورية العربية السورية

دمشق ١٩٩٠

الإشراق المفتوح: هيرالدهو

البحث عن المطلق

روایات بلزاک

« ۱۶ »

BALZAC

LA COMEDIE HUMAINE
LA RECHERCHE DE LABSOLU
ETUDES PHILOSOPHIQUES

الملهاة الانسانية = La Comedie humaine / بلزاك ؛
ترجمة ميشيل خوري ، - دمشق: وزارة الثقافة، ١٩٩٥ . -
٢٣٢ص؛ ٢٤سم . - (روايات بلزاك: ١٦)

المحتوى : البحث عن المطلق

١- ٨٤٣ ق ب ل ز م ٢- العنوان الأول ٣- العنوان الثاني
٤- العنوان الموازي ٥- بلزاك ٦- خوري ٧- السلسلة
مكتبة الأسد

الايداع القانوني : ع - ١٥ / ١ / ١٩٩٥

البحث عن المطلق

الإهداء

إلى السيدة جوزفين «دومرك» دلانوا^(١)

سيدتي:

فليقدّر الله لهذا المؤلف حياة أطول عمراً من حياتي.
إن العرفان بالجميل الذي أمحّضه لك، والذي أرجو أن يعادل حنانك شبه
الأمومي بالنسبة لي، سيستمر عند ذلك إلى مابعد النهاية المحددة لعواطفنا.
هذا الامتياز السامي بأن نمدّ بحياة مؤلفاتنا، الوجود القلبي، يكفي، إن
وجد اليقين في هذا الصدد، ليخفف جميع المتاعب التي يعانيتها أولئك الذين
يدفعهم طموحهم للفوز بهذا الامتياز
إنني أردد إذا: « فلتكن كذلك مشيئة الله »

دي بلزاك.

(١) جوزفين دلانوا (١٧٨٣ - ١٨٥٤) هي ابنة دانيال دومرك، الرجل الغني الذي كان متعهداً لتموين البحرية الملكية، ثم تموين الجيش في عهد الثورة، وبدء عهد الامبراطورية، وكان والد بلزاك برنار فرانسوا بلزاك يعمل عند دومرك الذي توفي في العام ١٨١٦ عن ثمانية وسبعين عاماً، لكن الصداقة التي ربطت بين عائلتي دومرك وبلزاك استمرت فقد استدعى ابن دومرك، أوغوست وهو ممون أيضاً وصاحب مصرف والد بلزاك إلى العمل معه في باريس. أما جوزفين وهي أخت أوغوست وزوجة أحد المموتين أيضاً فقد كانت بدورها صديقة كريمة ووفية لعائلة بلزاك وخاصة لأونوره الذي كانت تخصصه بنصائحها، وبمالها، وكان يسميها «أمه الثانية» وقد قدّم لهذه الدائنة التمؤجبة في العام ١٨٣٧ مخطوطة «غامبارا» اعترافاً بحنانها. أما ابنة السيدة دلانوا، كميل دي مونتو، وقد كانت صديقة للور سورفيل أخت بلزاك فإن التشابه بينها وبين جوزفين كلايس إحدى شخصيات رواية «البحث عن المطلق» ملفت للنظر

يوجد في دوي^(١). بيت على شارع باريس، حافظ في شكله، وترتيباته الداخلية، وتفصيله، أكثر من أي بيت آخر، على طابع الأبنية الفلمندية القديمة، المتلائمة ببساطة مع التقاليد الأبوية لتلك البلاد الطيبة.

لكن قبل وصفه، يجب لمصلحة الكتاب، بيان ضرورة هذه التحضيرات الإرشادية التي يحتج عليها بعض الجهلة والجشعين، الذين يفتشون عن الانفعالات دون أن يتعرضوا للمبادئ الخلاقة لها، ويريدون الزهرة دون البذرة، والوكّد دون أشهر الحَمَل! لكن هل يمكن اعتبار الفن أكثر قوة من الطبيعة؟.

إن إحداث الحياة البشرية، سواء العامة منها أو الخاصة، ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالهندسة المعمارية، بحيث أن معظم الملاحظين يتمكنون من إعادة تمثيل الأمم أو الأفراد بجميع حقائق عاداتهم بدءاً مما تركوه من آثار عامة أو من فحص ذخائرهم الأهلية؛ فلم الآثار بالنسبة للطبيعة الاجتماعية بمنزلة التشريح المقارن بالنسبة للطبيعة المتعضية. إن قطعة فسيفساء تكشف عن مجتمع كامل كما يكشف هيكل إيكثيوزور^(٢) عما يتضمنه خَلْق كامل. فمن جهة وأخرى كل شيء يستنتج، وكل شيء يترابط، والسبب يوجّه لتخمين النتيجة كما أن النتيجة تسمح بالصعود إلى السبب^(٣) وبذلك يتمكن العالم أن يعيد إلى الحياة حتى النواتئ المعيبة في العصور القديمة، من هنا جاءت الفائدة الكبيرة التي يوحى بها وصف معماري عندما لا تشوه فذلّة الكاتب العناصر، ولكن لا يمكن لأي كان أن يربط هذا الوصف بالماضي بإسقاطات قاسية، فالماضي بالنسبة للإنسان يرتبط بشكل فريد بالمستقبل: أليس الحديث إليه عما جرى هو تقريباً كالحديث إليه عما سيجري؟ أخيراً فمن النادر ألا يُذكر رسم الأمكنة التي تجري فيها الحياة لكل واحد أين خابت أمانيه أو أين أزهرت آماله؛ ومقارنة بين

(١) دوي Douau: بلدة في مقاطعة الشمال إلى الجنوب من مدينة ليل - منطقة الفلاندر.

(٢) إيكثيوزور: (أو السمك الزاحف) كائن انتقالي بين الأسماك والزواحف وقد ظهر في الدور الجوراسي.

(٣) يبدو في هذه المبادئ تأثير العالم كوفيه على بلزك.

إلى رسم الحياة الفلاندريّة، عندما تظهره جيّداً المتعمّات الأخرى، لماذا؟ ربما لأنه من بين جميع الكينونات المختلفة، هو الأحسن في إنهاء تردّات الإنسان. لكن لا يمكن أن ينقسم عن جميع الاحتفالات، وعلى جميع الروابط العائلية، وعن اليسر الوفير الذي يشهد على استمرار الرفاه، وعلى استراحة تشبه الغبطة؛ لكنه يعبر خاصّة عن سعادة حسية بسداجة تخنق الغبطة فيها الرغبة مع أنها تتداركها دائماً.

أيّ كان الثمن الذي يمكن للإنسان المتحمس أن يعلقه على صخب العواطف، فإنّه لا يرى أبداً بدون انفعال صور تلك الطبيعة الاجتماعيّة التي تنتظم فيها ضربات القلب جيّداً بحيث أن الأناس السطحيين يتهمونها بالبرودة؛ فالجمهور يفضل عامّة القوة غير العاديّة التي تطفح على القوة المنتظمة المستمرة؛ فليس لدى الجمهور الوقت أو الصبر ليتحقّق من القدرة الواسعة التي تحتجب خلف مظهر متناسق؛ وهكذا فلأجل التأثير في هذا الجمهور الذي يجرفه تيار الحياة، فإن الهوى حتّى الصادر عن فنان كبير لا مفرّ له من الذهاب إلى أبعد من الهدف؛ وهذا ما فعله ميشيل آنج، وبيانكا كايولو، والأنسة دي لافالير، وبتوهفن وياغانيني^(١).

إن مهرة المخططين الحسبة فقط هم الذين يفكرون بعدم تجاوز الهدف ولا يقدّرون إلا إمكانيّة الفعل الموسميّة بإنجاز كامل يخلع على كل عمل هذا الهدوء العميق الذي يأسر بجاذبيته الرجال الكبار.

(١) يقرن بلزّاك هنا اسم سيدتين انطلقتا في الهوى «إلى أبعد من الهدف» مع كبار الفنانين العالمين فيبناكو كايولو: نبيلة من البدقيّة، في القرن السادس عشر، هجرت كل شيء وهي لم تتعد الخامسة عشر من العمر لتتبع حبيبها وتصبح فيما بعد زوجة فرانسوا دي مديسي دوق توسكان الكبير، واوز دي لافالير (١٦٤٤ - ١٧١٠) محظيّة لويس الرابع عشر التي دخلت دير الكرمل في ١٦٧٤. شهرة الغرام هذه قرنت مع شهرة ميشيل آنج (١٤٧٥ - ١٥٦٤) الرسام والنحات الإيطالي المشهور وبتوهفن (١٧٧٠ - ١٨٢٧) الموسيقي الألماني العالمي وياغانيني (١٧٨٢ - ١٨٤٠) الموسيقي الإيطالي الذي كان بلزّاك شديد الإعجاب به بحيث ورد ذكره في العديد من رواياته.

والحال أن الحياة المعتمدة من هذا الشعب المقتصد بشكل رئيس، توفر شروط الهناء الذي تحلم به الجماهير في حياة مواطنة وبورجوازية. إنَّ المادية الأكثر لطفاً تسم جميع التقاليد القلمندية، وبينما لا تظهر في وسائل الرغد الانكليزية إلا الألوان الجافة ذات المسحة القاسية، فإن المنزل العائلي القديم في الفلاندر يبهج العين بألوان ذات طلاوة، وبطيبة حقيقية؛ وهو يستتبع عملاً بدون تعب؛ والفليون فيه يشير إلى تطبيق سار لتكاسل ممتع على طريقة أهل نابولي، ومن ثم فهذا المنزل شاهد على عاطفة وديعة للفن بشرطه الأكثر ضرورة وهو الصبر، وبالعنصر الذي يجعل إبداعاته أكثر ديمومة وهو الوجدان. إن الطبع القلمندي يتجلى في هاتين الكلمتين: الصبر والوجدان، وبينما أنهما يستبعدان التفردات الغنية في الشعر، ويجعلان تقاليد تلك البلاد مسطحة كسهولها العريضة وباردة كسمائها المضربة. بيد أن لشيء من هذا، فالحضارة قد أظهرت هناك قدرتها فعدلت كل شيء حتى تأثيرات المناخ. إن من يلاحظ بانتباه منتجات مختلف بلدان الكرة الأرضية، تعتريه الدهشة أولاً من مشاهدة الألوان الشقر والرمادية المميزة بصورة خاصة لمحاصيل المناطق المعتدلة، بينما تتميز محاصيل المناطق الحارة بالألوان الصارخة، وتمثل التقاليد بالضرورة لهذا القانون الطبيعي، فمناطق الفلاندر التي كانت في الماضي سمراء بصورة رئيسة ومحكومة بألوان رتيبة، وجدت الوسائل لتطرح البريق في جوها القاتم بالتعاقبات السياسية التي أخضعها على التوالي للبورغينيين، والاسبانيين، والفرنسيين، والتي آختهم مع الألمان والهولنديين. فمن اسبانية أخذوا ترف الأرجوانيات، والأطالس اللماعة، والنجوم ذات المظهر الفخم، والريش، والآلات الموسيقية ذات الأوتار، والأشكال الطيفة، ومن البندقية، بدكوا بلوحاتهم ومخزوماتهم تلك الزجاجيات العجيبة التي تلتصق فيها الخمر وتبدو أطياب مذاقاً؛ ومن النمسة احتفظوا بتلك الدبلوماسية الوقور التي تحسب لكل شيء حسابه؛ وقد منحتها تجارتها مع جزر الهند ابتكارات الصين الاسطورية وعجائب

اليابان، مع ذلك وبالرغم من أناة مقاطعات الفلاندر في جمع كل شيء، وعدم ردّ أي شيء، وتحمل مالا يتحمل، فإنها بقيت تعتبر المستودعات العامة لأوروبية حتى الفترة التي وحدّ بها اكتشاف التبغ بدخانها القسّمات المتفرقة لمظهرها الوطني؛ ومنذ ذلك الحين وبالرغم من تجزئة الأراضي أثبت الشعب الفلمندي وجوده بالغليون والبييرة.

بعد أن تمكّنت، بالاقتصاد الثابت في إدارتها، ثروات وأفكار معلمها أو جيرانها، فإن هذه البلاد الباهتة بطبيعتها والمحرومة من الشاعرية، كوّنّت لها حياة مبتكرة وتقالييد متميّزة، دون أن تبدو ملطخة بالمذلة؛ فالفن فيها تجرّد من كل مثالية ليهتم بالشكل فقط؛ وهكذا لا يطلب من هذا الوطن لا الشعر المطاوع، ولا قريحة الملهاة، ولا المشهد المسرحي، ولا دفقات الملاحم أو الأناشيد الحماسية، ولا العبقريّة الموسيقية؛ لكنها خصبة بالمكتشفات، والمناقشات المتحلقة التي تتطلب الوقت والسهر، وكل ما فيها يتسم بسمة الانتفاع الزمني، والإنسان ينحصر تطلعه بالواقع. ويتجه ذهنه بدقة شديدة لتأمين حاجات الحياة بحيث أن ما من عمل ينطلق إلى ما بعد العالم الواقعي. إن الفكرة الوحيدة المتصورة عن المستقبل لدى هذا الشعب هي نوع من الاقتصاد السياسي، وقوته الثورية ترد من الرغبة الأهلية في الشعور بأن مرفقيه طليقان وهو إلى مآذته في حرية تامة تحت أفاريز البيوت الحجرية في الحارات. إن الشعور بالرفاهية وروح الاستقلال التي توجي بها الثورة قد ولّدا في وقت مبكر عن أي مكان آخر هذه الحاجة للخرية التي بدأت تتمخّض عنها أوروبية فيما بعد، وهكذا فقد أكسبت الماثبة في الرأي والقرينة المتصلبة الفلمنديين ما جعلهم في السابق رجالاً رهيبيين في الدفاع عن حقوقهم؛ فما من شيء إذاً لدى هذا الشعب يتشكل وفق أنصاف الطول أو كيفما اتفق، لا المنازل، ولا الأثاث، ولا السود، ولا الثقافة، ولا الثورة، لذلك فإنه يحرص على الاستئثار بما أتقن صنعه: فحياكة المخمرات والنتاج الزراعي المتأني، والصناعة الأكثر تأنياً وخاصة الأنسجة المتينة وراثية لديه كما ثرواته المالية، ولو صوّرت الماثبة بأنقى أشكالها البشرية لتجلت على حقيقتها في هيئة

عمدة مدينة من البلاد الواطنة، مستعد، كما حدث ذلك مراراً، للموت بشرف ودون مباهاة، قداً لمصالح تحالف مدينته التجاري، لكن الشاعريات العذبة لهذه الحياة الأبوية تتجلى طبيعياً في لوحة عن أحد البيوتات الأخيرة التي ماتزال محتفظة بطابعها التقليدي في دوي في الزمن الذي تدور فيه أحداث قصتنا.

إن دوي للأسف، من بين جميع مدن مقاطعة الشمال، تلك الأكثر تعرضاً للحدثة، فالرغبة في الابتكار قد انتشرت بسرعة كبيرة فيها، وحبّ النهوض الاجتماعي قد تعمم. وهكذا أخذت الأبنية القديمة تختفي مع مرور الزمن، والتقاليد العتيقة تحمي، ومسحة باريس وأزيائها وطرائقها تسيطر، ولم يتبق لدى أهل دوي من الحياة الفلمندية القديمة إلا كرم الضيافة، والرقعة الإسبانية، وغنى هولاندة ونظافتها؛ وقد قامت قصور الحجر الأبيض مكان بيوت الأجر؛ ورفاهية الأشكال الهولندية قد تراجعت أمام أناقة الحداثات الفرنسية المتغيرة.

يقع المنزل الذي وقعت فيه أحداث هذه الرواية في وسط شارع باريس تقريباً، وهو يحمل في دوي، منذ نحو مئتي سنة اسم بيت كلايس؛ فالق كان كلايس^(١) كانوا سابقاً من أشهر عائلات الحرفيين التي استثمرت لعدة أجيال في البلاد الواطنة تحتفظ بتفوق تجاري، فقد تعاقب آل كلايس على رئاسة اتحاد النسّاجين القوي في مدينة غان يرثونها ابناً عن أب. عند ثورة هذه المدينة الكبرى ضد شارل كنت الذي آزاد إلغاء الامتيازات، حامت الشبهات بشدة حول أغنى آل كلايس الذي أحس بقرب وقوع الفاجعة فأرسل سراً، وهو الملزم بمشاركة رفاقه مصيرهم، إلى فرنسة وتحت حمايتها زوجته وأولاده، وثروته، قبل أن تغزو جحافل الامبراطور المدينة، وكانت توقعات نقيب النسّاجين صحيحة، فقد استثنى من اتفاقية التسليم، مع العديد من البورجوازيين الآخرين، وأعدم كمتنرد خارج عن القانون، بينما هو في الواقع مدافع عن

(١) يستمد بلزك من التاريخ بعض الحقائق مع حرية التصرف، ففي ثورة غان في العام ١٥٣٩، وجد أحد وجهاء المدينة المسمى لوران كلايس الذي انتخب بين تسعة آخرين من قبل الامبراطور لإدارة أملاك وموارد المدينة، وبالتالي فهو لم يُعدم كما شاء الخيال الروائي المؤلف.

استقلال مدينة غان؛ وقد أعطى موت كلايس ورقاقه ثمره، فهذه العقوبات غير المجدية قد كلفت ملك اسبانية خسارة القسم الأعظم من أملاكه في البلاد الواطئة.

إن دم الشهداء، من بين جميع البنور التي تؤمن عليها الأراضي، هو الذي يعطي أسرع الحصاد والجني؛ وعندما عاقب فيليب الثاني الثورة حتى جيلها الثاني مد سلطته الاستبدادية حتى نوي، لكن آل كلايس حافظوا على ملكياتهم الكبيرة وذلك بمصاهرتهم عائلة مولينا العريقة في النبل، والتي أصبح فرعها الأساسي، الفقير أصلاً، بدرجة من الغنى تمكن فيها من شراء كونتية نورو، التي لم يكن يملكها إلا اسمياً، في مملكة لئون^(١).

في مطلع القرن التاسع عشر وبعد تتابعات لاتهمنا لاثحتها بشيء، تمثلت عائلة كلايس في الفرع المستقر في نوي بشخص بلتزار كلايس مولينا، كونت نورو، الذي طلب أن يسمى ببساطة بلتزار كلايس؛ ومن الثروة الهائلة التي جمعها أسلافه، الذين كانوا يشغلون نحو ألف نول نسيج، لم يبق لبلتزار إلا أرض في منطقة نوي تدر عليه خمسة عشر ألف ليرة دخلاً سنوياً، والبيت الكائن في شارع باريس الذي يساوي أثاثه ثروة. أما تركات مملكة لئون فقد كانت موضع نزاع ودعوى بين آل مولينا في الفلاندر وفرع تلك العائلة الباقي في اسبانية؛ وقد استولى آل مولينا في لئون على الأراضي وتلقبوا بلقب كونت نورو، بالرغم من أنه حق لآل كلايس وحدهم، لكن تفاخر البورجوازية البلجيكية كانت أكبر من العجرفة الكاستلانية؛ وهكذا فعندما نظم السجل المدني، تخلى بلتزار كلايس عن أسمال نبلة الاسباني للاحتفاظ بشهرته الغانتية^(٢)، فالشعور الوطني يتجلى بقوة لدى العائلات المنفية حتى في الأيام الأخيرة من القرن الثامن عشر، وقد بقي آل كلايس محافظين على تقاليدهم وعاداتهم وطرائقهم

(١) منطقة في شمال غرب اسبانية غزاها ملوك استوريا في القرن العاشر وأسسوا فيها مملكة باسم مملكة لئون، وضمت في العام ١٢٣٠ مقاطعات لئون وزمورا وسلامنك.

(٢) غانتي نسبة إلى مدينة غان Gand

في الحياة، فهم لا يتصاهرون إلا مع العائلات البورجوازية الأكثر نقاوة، ولا بدّ من أن يكون في عائلة من حرش خطيبة لأحد أبنائهم بعض العمّد ومساعدى العمد لقبولها في عائلتهم لذلك كانوا يختارون نساءهم من عائلات بروج أو غان أو لبيج، أو حتى من مولانده، من أجل تخليد تقاليد البيت العائلى.

في نهاية القرن الماضى اقتصر مجتمعهم المحدود على سبع أو ثمان عائلات من النبلاء البرلمانيين الذين تنسجم طبائعهم وأثوابهم الفضفاضة ورسائنتهم القضاائية المختلطة بالحزم الاسباني مع عاداتهم؛ فالاستقامة الثابتة، وأمانة آل كلايس التي لا شائبة فيها، وإياقتهم الدائمة تجعل منهم خرافة متأصلة كعيد غايان^(١) يعبر عنها بهذا الاسم «بيت كلايس». إنّ روح الفلاندر القديمة تظهر جليّة في ذلك البيت الذي يقدم لهواة التحف القديمة البورجوازية، نموذج البيوتات المتواضعة التي كانت لهواة التحف القديمة البورجوازية، نموذج البيوتات المتواضعة التي كانت تشييدها البورجوازية الغنية في العصر الوسيط إن الزينة الرئيسية في الواجهة هي باب ذو مصراعين من السنديان المرصّع بالمسامير المنتظمة في مخمسّات، وفي مركزه عمل آل كلايس افتخاراً منهم، على نقش مكوكين مقرونين. بنيت فتحة ذلك الباب بحجر رملي، وهي محاطة بعقد مستدق الرأس وينتهي بكوة صغيرة يعلوها صليب، وفي داخلها تمثال للقديسة جنفييف^(٢) تفتل بمغزلها؛ وبالرغم من أن الزمن قد خلع عتقه على الأشغال الدقيقة في ذلك الباب وتلك الكوة، فإن حرص أهل المنزل على العناية الفائقة بها تسمح للمارين بأن يتمتعوا بأدق تفاصيلها، وهكذا فالإطار المؤلف من عميدات متراصفة يحتفظ بلونه الأشهب القاتم ويلتصع حتى ليخال أنّه

(١) عيد غايان: عيد شعبي في دوي يعتقد أنّه ذكرى رفع الحصار عن تلك المدينة في العام

١٤٧٩ ويحتفل به يوم الأحد الأقرب للخامس من شهر تموز، وما تزال

التظاهرات القولكلورية تتم في تلك المدينة خلال هذا العيد ولدة اسبوع يسمى

«اسبوع غايان»

(٢) القديسة جنفييف تعتبر شفيعة باريس وهي تصوّر بشكل راعية تفتل بمغزلها وأمامها غنمها

ممسوح بالبرنيق. على جانبي الباب في الطابق الأرضي نافذتان مشابهتان لنوافذ المنزل الأخرى ينتهي الإطار المبني بالحجر الأبيض تحت المستند بربعيات غنية بالزخرفة، ومن الأعلى بقوسين متماثلين تفصل بينها ركيزة صليب تقسم الحاجز الزجاجي إلى أربعة أقسام غير متساوية، إذ أن العارضة الموضوعة على ارتفاع محدد لتشكيل صليباً، تعطي للقسمين السفليين من النافذة بعداً يقرب من ضعف الأقسام العليا المدوّرة تحت العقد، إنّ القوس المضاعف نوتزينات مؤلفة من ثلاثة صفوف من الحجر يتقدم كل منها على الآخر، كما تبرز كل آجرة أو تنحسر عن الأخرى بالتناوب بمقدار بوصة تقريباً بحيث ترسم نقشاً مشبكاً. أما الألواح الزجاجية فصغيرة وبشكل معينات وهي منزّلة في أطر حديدية دقيقة جداً ومدهونة باللون الأحمر. كانت الجدران المبتنية من حجر محشّى بملاط أبيض، مدعومة من مسافة إلى أخرى، وفي الزوايا بصفوف من حجر؛ وتخترق الطابق الأول خمس نوافذ، أما الطابق الثاني فقد اقتصر على ثلاث، بينما استمد مخزن الغلال النور من فتحة واسعة مستديرة ذات خمسة أجزاء يحيط بها الحجر الرملي وتقع وسط الجبهة المثلثة التي يرسمها الجملون كأنها وردة في بوابة كاتدرائية؛ وفي القمة يرتفع، بمثابة دلالة ربيع، مغزل محاط بالكتان. إن ضلعي المثلث الكبير الذي يشكل جدار الجملون مقطعة عمودياً بنوع من الدرجات حتى رأس الطابق الأوّل حيث عن يمين وشمال المنزل تسيل مياه الأمطار مدفوعة من شدة حيوان عجيب، في أسفل البيت قاعدة من حجر رملي تشبه الدّرجة. أخيراً يوجد على جانبي الباب، بين النافذتين، وعلى الشارع، بوب قلّاب مسلّح بعصائب كبيرة من حديد، يدأف منه إلى الأقبية، وهو آخر بقية من التقاليد القديمة.

كانت هذه الواجهة منذ إنشائها، تنظّف مرتين سنوياً، فإن بدا نقص في الملاط في مكان ما، سدّ الثقب الناتج عنه سريعاً، أما النوافذ والدعامات، والأحجار فينفض عنها الغبار كما ينفض في باريس عن أثمن أنواع الرخام؛ وهكذا فواجهة هذا المنزل لاتظهر أي أثر للتداعي. وبالرغم من الألوان القاتمة

الناجمة عن قِدَمِ الأجر، فإنه محفوظ جيداً كحفظ لوحة قديمة، أو كتاب أثري يحرص عليهما هاويهما ويحافظ دائماً على جدتهما، لولا التمرّض تحت قبة جونا لهذه الغازات التي تهددنا حتى نحن بالذات بأضرارها؛ وسماء الفلاندر المكفّهرة ومناخها الرطب والظلال الناتجة عن ضيق عرض الشارع تنزع غالباً عن هذا البناء الرنّوق الذي يستمدّه من شدة العناية بنظافته، التي تجعله، مع ذلك، باهتاً وكئيّباً أمام العين؛ فالنفس الشاعرية تتمنى لو تشاهد بعض الأعشاب تنمو في جوانب الكوة، أو بعض الطحالب تظهر في الفواصل بين الحجارة الرملية، بل لاشتيت لو تتشقق هذه الصفوف من الأجر، ولو تبني بعض السنونوات أعشاشها تحت بهّواس النوافذ وفي النخاريب المثلثة الحمراء التي تزيناها. هكذا يعطي الإتقان والمظهر النظيف لهذه الواجهة نصف المكشوفة بالعدك منظرًا مغلفًا بوقار جاف وتقدير محتشم يُبعد بكل تأكيد، الرومانسي عن الرغبة في السكن في مواجهته. عندما يسحب زائر سلسلة الجرس الحديدية المجدولة التي تتدلى من إطار الباب، تهرع خادمة من الداخل لتفتح صفاقاً مجهّزاً بمشبك صغير، يقلت سريعاً من اليد هذا الصفاق محمولاً بثقله، ويسقط مجدداً تحت عقد رواق واسع مبلط محدثاً في أعماق البيت صوتاً خفيضاً وثقيلاً كما لو أن الباب مصنوع من البرونز. هذا الرواق مزوّق بالرخام النضر دائماً، والمفروش بطبقة من رمل ناعم، يقود إلى فناء داخلي مربع واسع مبلط ببلاطات عريضة مبرنقة وذات لون مخضر. إلى اليسار يوجد مخزن البياضات، والمطابخ وقاعة المستخدمين؛ وإلى اليمين المحطبة، ومخزن الفحم الحجري والأكناف العامة حيث الأبواب والنوافذ والجدران مزخرفة برسوم مصونة بنظافة رائعة، والضوء المتسرّب من بين الجدران الأربعة الحمراء المخططة بشبكات بيضاء يعكس ظلالاً وردية تخلع على الوجوه والتفاصيل الدقيقة جاذبية غامضة ومظاهر عجيبة.

إن بيتاً ثانياً مشابهاً تماماً للبناء المواجه للشارع، وهو يسمى في الفلاندر الحيّ الخلفي يقوم في نهاية ذلك الفناء وهو مخصص لسكن العائلة

فقط. ففي الطابق الأرضي، تخصص الغرفة الأولى كصالّة صغيرة وهي متوّرة بنافذتين من جهة الفناء، ونافذتين أخريين تطلّان على حديقة تساوي في عرضها عرض البيت بينما ينفّتح بابان مزجّجان متوازيان فيؤدي أحدهما إلى الحديقة، والآخر إلى الفناء، وتطلّ على باب الشارع، بحيث يتمكن الغريب، من المدخل، أن يحيط بنظرة على كامل المسكن، ورؤية حتى الأبسطه الخضراء في نهاية الحديقة.

إن المسكن الأمامي مخصّص للاستقبالات، وطابقه الثاني يضم شقّقاً لاستقبال الضيوف الأجانب وهو يحوي بالتأكيد روائع فنية وذخائر ثمينة بمجموعة. لكن مامن شيء يساوي في نظر آل كلايس، ولا في رأي الخبير المدقق تلك الكنوز التي تزيّن القاعة التي كانت تقضي فيها العائلة معظم وقتها، منذ قرنين، فكلّيس الأكبر الذي مات دفاعاً عن حريات غان، ذلك الحرفي الذي لم يذكر عنه الكثير، والذي غفل المؤرّخ عن القول بأنّه كان يملك نحو اربعين ألف مارك من الفضة كسبها من نسج الأشرطة الضرورية لأسطول البندقية الجبّار. إن كلايس هذا كانت تربطه صداقة بأحد الفنانين الذين اشتهروا بالحفر على الخشب في بروج وهو ثون هويزيوم^(١)، وقد استعان الفنان مرات عديدة بمحفظة صديقه الحرفي، وبعد أن أصبح غنياً، قبل ثورة غان ببعض الوقت، جفر سراً لصديقه، على كتل من خشب الإبنوس مشاهد رئيسة من حياة آرثفلد^(٢) هذا الصانع للبيرة الذي أصبح ملكاً على الفلاندر. هذه المشاهد تمثّلت في ستين لوحاً جدارياً رسم فيها نحو ألف واربعمئة شخص رئيس، تعتبر التحفة الرئيسية لفون هويزيوم: ويقال أن الضابط المكلف بحراسة البورجوازيين ومنهم كلايس

(١) يعتمد يلّذاك «مرة أخرى» على التاريخ محرّفاً فمن الفنانين المشهورين باسم فون هويزيوم وجد جان هويزيوم الذي وُكِّد في امستردام العام ١٦٨٢ وتوفي في العام ١٧٤٩ كما وجد فنان آخر باسم جوست فون هويزيوم (١٦٥٩ - ١٧١٦) وله لوحات عن المعارك البحرية كما أن للأول ست لوحات تمثّل أزهاراً وثماراً ومناظر طبيعية في اللوفر لكن الإثنين لم يكونا في عصر لوران كلايس الذي عاش في القرن السادس عشر.

(٢) جاك آرثفلد نبيل من غان انتخب عميداً لصناع البيرة وأعلن ملكاً على غان في ١٥٤٠ وقد عرفت المدينة في عهده ازدهاراً كبيراً

الذين هدّد شارل كنت بإعدامهم عند دخوله مدينتهم، قد عرض على كلايس أن يسهّل له هربه إذا منحه تحفة فون هويزيوم، لكن النسّاج كان قد أرسلها إلى فرنسا. هذه القاعة اكتست جدرانها بكاملها بألواح فون هويزيوم الذي حضر بنفسه فوضع لها أطراً مذهونة باللزورد الممتزج بخيوط ذهبية، وهي تعتبر العمل الأكثر روعة واتقاناً لهذا المعلم بحيث أن أيّة قطعة منها في الوقت الحاضر تساوي وزنها ذهباً؛ وفوق جدار المدفأة لوحة لتيتيان^(١) تمثل فون كلايس مرتدياً ثوب رئيس محكمة «الپارشون»^(٢) وهي تزيد من اعتزاز هذه العائلة برجلها الكبير.

إن المدفأة كانت مبنية من الحجر أولاً وذات برقع عال جداً، ثم أعيد بناؤها في القرن الأخير من الرخام الأبيض، وقد وضعت فوقها ساعة جدارية كبيرة وشمعدانان كل منهما بخمسة فروع ملتفة، ولا تتمّ عن ذوق مرهف، لكنها من الفضة المصمتة.

تزيّن النوافذ الأربعة ستائر كبيرة من الدمقس الأحمر ذي الأهار السوداء المبطن بحريز أبيض، كما أن الأثاث، وقد جدّد على طراز لويس الرابع عشر، مكسو بالقماش نفسه؛ وتتألف الأرضية، وهي حديثة طبعاً من صفائح خشب مؤطرة بعصائب من السنديان؛ والسقف مشكّل من أطر عديدة في داخلها أقنعة غربية، حفرها فون هويزيوم، وقد التزمت وحافظت على ألوان سنديان هولانده الداكنة.

في الزوايا الأربع من هذه القاعة، ترتفع أعمدة مجزوعة تعلوها شمعدانات مماثلة لتلك القائمة فوق المدفأة؛ ومنضدة مستديرة تشغل وسط تلك

(١) تيتيان (تيزيانو فسيليو) رسّام إيطالي (١٤٩٠ - ١٥٧٦) ذو شهرة عالمية رسم للبابوات وفرنسا الأولى شارل كنت وفيليب الثاني.

(٢) پارشون: قضاة مدينة غان، وقد ورد ذكرهم أيضاً في رواية «المعلم كورنيليوس» لبزّاك التي يصور فيها ثيابهم «بأنها من مخمل أسود يلتصق بأبهة والثوب عريض الكمين ويدون طوق».

إن لوحة لتيتيان تظهر هذه الثياب ولكنها على فارس من فرسان رهبان مالطة.

القاعة، وصُفَّت مناخد لعب متناظرة قرب الجدران؛ وعلى منضدتين مزخرفتين ومذهبتين، سطحهما من رخام أبيض، وجدت في العصر الذي بدأت فيه روايتنا، كرتان من زجاج مليئتان بالماء، تسبح فيهما فوق سرير من الرمل والقواقع، أسماك حمراء، أذهبية، أو فضية.

كانت هذه القاعة براقعة وقائمة فالسقف يمتص الضوء بالضرورة دون أن يعكس منه شيئاً؛ وإذا كان النور يرد غزيراً من ناحية الحديقة ليبرق على نقوش الإبنوس، فإن نوافذ الفناء لا تأتي إلا بقليل من الضوء يكاد لا يبدو بريقه على الخيوط المذهبة المطبوعة على الجوانب المقابلة.

هذه القاعة الشديدة الروعة، كانت تملؤها إذاً في أحد الأيام الجميلة، ولعظم الوقت الألوان الناعمة ذات المسحة الشهباء الكثيبة التي تخلعها الشمس على قمم الغابات في الخريف. لذلك فمن غير المفيد أن نستمر في وصف بيت كلايس، في أقسامه الأخرى التي كانت تحدث بها حتماً مشاهد عديدة تتعلق بروايتنا؛ وكفي الآن أننا قد تعرفنا على ترتيباته الرئيسة.

في العام ١٨١٢، وفي الأيام الأخيرة من شهر آب، وفي يوم أحد، بعد صلاة العصر، كانت امرأة تجلس على أريكتها أمام إحدى النوافذ المظلة على الحديقة، وكانت أشعة الشمس تسقط منحرفة على المنزل، فتلفه بشكل وشاح وتخترق القاعة لتنتهي بانعكاسات غريبة على الخشبيات التي تغطي الجدران من ناحية الفناء، وتلف تلك المرأة بغلاف قرمزي يتعكس عن ستارة الدمقس المنشورة على طول النافذة، لوتسنى لرسام مهما بلغ ضعفه، أن يرسم تلك المرأة في تلك اللحظة، لأعطى بالتأكيد لوحة نافرة برأس مليء بالآلم والكآبة؛ فوضع الجسم والرجلين المتهاكتين إلى الامام تبرز وهن تلك المرأة التي غاب عنها الشعور بكيانها الحسي وهي تركّز قواها في فكرة ثابتة تملكها. كانت تستشف الإشراق في المستقبل، كما يستشف غالباً شعاع من الشمس، يخرق الغيوم ويرسم في الأفق شريطاً منيراً.

كانت يدا تلك المرأة المرتدتين عن ذراعي الأريكة تتدلى إلى الخارج

ورأسها الذي بدا ثقيلًا جداً يستند إلى المتكأ، وثوب من البركال القطني الواسع جداً يحول دون الحكم على تناسق تقاطيع جسمها، وقد احتجب صدرها تحت طيات منديل تصالب طرفاه على صدرها وعقدا بلا مبالاة؛ وحتى لو لم يبرز النور وجهها الذي يبدو أنها تفضل إظهاره عن بقية كيائها، فإن من غير الممكن إلا الاهتمام به حصراً، فتعبيره الذي يثير أكثر الأطفال لا مبالاة، هو ذهول مستمر وبارد بالرغم من بعض العبرات الحارقة. مامن شيء أكثر هولاً من رؤية ألم بالغ لا يطفح إلا في فترات نادرة متقطعة، ويلتصق بذلك الوجه كلابة تجمدت حول فوهة بركان، حتى ليخال أنها أم تحتضر، وقد تركت أطفالها في لجة من الشقاء دون أن تستطيع تأمين أية حماية بشرية لهم.

إن سحنة تلك المرأة، وهي في نحو الأربعين من العمر، لكنها أقل بعداً عن الجمال الذي لم تكن تمتلكه في شبابها، لاتظهر أيّاً من مزايا المرأة الفلمندية؛ فشعرها أسود كثيف يتدلى خصلات على كتفيها وحول وجنتيها، وجبهتها كثيرة التحبب، وضيقة عند الصدغين، مائلة إلى الإصفرار، لكن عينين سوداوين تبرقان تحتها وكأنها ترميان الشرر؛ وجهها، الإسباني كلياً، المائل إلى السمرة، والشاحب اللون، الذي غزته الجدري، يستلفت النظر باكتمال شكله البيضوي الذي تحتفظ استدارته بالرغم من تغير قسماته، برقة وقار أنيق، يبدو أحياناً بتمامه عندما تجهد الروح في أن ترد إليه صفاءه الأولي. إن السمرة الأكثر تميزاً في ذلك الوجه الرجولي هي أنف محني كأنه منقار نسر، ويبدو كثير التحبب في الوسط حتى ليخال أنه مشوه داخلياً، لكن تكمن فيه رقة يتعذر وصفها، فحاجز المنخرين من النعومة بحيث تسمح شفافتيه للضوء بأن يخلع عليه الاحمرار بشدة؛ ومع أن الشفتين العريضتين، الكثيرتي التفضن، تنمان عن أنفة تكشف عن نبل محتدها، فأنهما تتسمان بطيبة طبيعية، وتوحيان بالتهذيب. يمكن الجدل حول جمال هذا الوجه الذي يبدو قوياً وانثوياً في آن معاً، لكنه يستلفت الانتباه، لقد بقيت هذه المرأة الصغيرة القائمة، المقوسة الظهر، والعرجاء مدة طويلة عزباء، بحيث زعم إنكار الروح الانتثوية لديها، لولا وجود بعض

الرجال الذين تأثروا بشدة بالنشاط المتحمس المحتدم في رأسها، وبمعالم حنان لا يوصف، بحيث تأثروا بفتنة متناقضة مع كثير من العيوب، ويبدو أنها تدين بالكثير لجدها دوق كازا ريال^(١)، أحد كبار اسبانية،

في تلك الفترة تفجرت في رأسها الجاذبية التي تناولت سابقاً بشكل طاغ الأرواح المغرمة بالشعر، وبلغت من الشدة ما لم تبلغه في أي لحظة من حياتها الماضية، لقد شغلت إن صح القول، الفراغ معبرة عن إرادة ساحرة وطاغية على الرجال، لكنها بدون تأثير على الأقدار. عندما حوكت عينيها عن الوعاء الذي تتطلع فيه إلى الأسماك دون أن تراها، رفعتها بحركة يائسة كأنها تتضرع إلى السماء، إذ يبدو أن ماتعانيه من آلام لا يمكن البوح به إلا إلى الله. لم يكن يعكر الصمت إلا الجدادج، وبعض الزيزان التي تنبعث أصواتها من الحديقة الصغيرة حيث تسود حرارة لافحة، ورتين أصم للفضيات والصحون والكراسي التي تحرك في الغرفة المجاورة للقاعة حيث يبدو أن خادماً يرتب المائدة للعشاء. عند ذلك أصاحت المرأة المكروية بسمعها، ويبدو أنها استعادت هدوها فتناولت متديلاً وممسحت دموعها، وجريت أن تبتسم، وأن تتخلص من تعبير الألم المحفور على جميع قسماتها بحيث يمكن الظن أنها في تلك الحالة من اللامبالاة التي تولدها حياة خالية من الهموم؛ وسواء أكانت عادة العيش في ذلك المنزل الذي تنستر فيه عاهاتها قد يسرت لها إدراك بعض النتائج الطبيعية التي يتعذر إدراكها على الآخرين، والتي يسعى إليها بحارة الأشخاص ذوو العواطف المفرطة؛ أو أن الطبيعة قد عوضتها عن العيوب الجسيمة بمنحها أحاسيس أكثر دقة من تلك التي يتمتع بها الأشخاص الأسوياء أو الأفضل بنية في الظاهر. فقد أحسّت هذه المرأة بخطوات رجل في الرواق القائم فوق المطابخ والأماكن المخصصة لخدمات المنزل، والذي يصل بين المبنى الأمامي والمبنى الخلفي؛ ثم ازداد وقع الخطوات تميزاً؛ وسريعاً؛ ودون امتلاك تلك القدرة التي يعرف بها كائن انفعالي، كتلك المرأة، كيف يلغي غالباً المسافات ليتحد بالآنا الآخر، فإن

(١) اسم نبيل وهمي ورد ذكره أيضاً في قصة عقد الزواج

غريباً يمكنه أن يستمتع بسهولة إلى وقع خطوات ذلك الرجل على السلم الذي ينزل بواسطته من الرواق إلى القاعة؛ وعلى وقع هذه الخطوات، فإن الكائن مهما بلغ عدم انتباهه تتلاحق عليه الأفكار، إذ من غير الممكن أن نستمتع إليها ببرود، إن مسعى مفاجئاً أو متقطعاً يربع؛ وعندما ينهض رجل ويصرخ مستغيثاً من النار، فإن رجليه تتحدثان بسرعة أكبر من صوته؛ وإن كان الأمر كذلك، فيجب ألا يحدث المسعى المعاكس انفعالات أقل شدة؛ فالبطء الشديد والخطوات المتثاقلة لذلك الرجل، كانت ستقلق دون شك الأشخاص الطائشين، لكن الملاحظ أو الأشخاص العصبيين سيعانون من إحساس قريب من الرعب عند وقع خطوات هذه الأقدام التي تبدو الحياة غائبة عنها، والتي تقرر الأرضية كأنها ثقلان من حديد يقرعانهما بالتناوب؛ فلكنكم تخبرون فيها الخطوة الثقيلة وغير الواثقة لعجوز أو السير الجليل لمفكرٍ يجرّ العوالم معه. عندما نزل هذا الرجل عن الدرجة الأخيرة، وهو يضغط برجليه على البلاط بحركة مليئة بالتردد، فإنه بقي للحظة على المنبسط الواسع الذي ينتهي إليه الممر المؤدي إلى قاعة المستخدمين، وحيث يمكن أيضاً الدخول إلى القاعة بباب خفي ضمن الخشب المغطى للجدران، وهو مماثل لباب آخر موازٍ له يؤدي إلى غرفة الطعام.

في تلك اللحظة انتابت المرأة الجالسة على الأريكة رعشة خفيفة مماثلة للرعشة التي يحدثها تماس كهربائي، لكنها ترافقت بأعذب ابتسامة افترت عنها شفاتها، وأبرقت أسارير وجهها المتوقّع لسعادة منتظرة كوجه مادونا إيطالية جميلة. لقد وجدت فجأة القوة لأن تبعد مخاوفها إلى أعماق روحها؛ ثم أدارت رأسها نحو مآطورات الباب الذي كاد يفتح في زاوية القاعة، والذي دفع في الواقع بفضاظة أحسّت معها المخلوقة المسكينة وكأنّها تلقت صدمة.

ظهر بلتزار كلايس فجأة، وتقدم بضع خطوات دون أن يتطلع إلى تلك المرأة، أو إن تطلع إليها لم يرّها، وبقي منتصباً في وسط القاعة وهو يسند رأسه المنحني قليلاً بيده اليمنى.

كان عذاب هائل، لم تتمكن تلك المرأة من الاعتياد عليه بالرغم من تكراره

غالباً كل يوم، قد شدّد الخناق على قلبها؛ فبدد ايتسامتها، وغضن جبينها الأسمر بين الحاجبين ونحو ذلك الخطّ الذي تحفره التعابير الغالبة للعواطف المفرطة؛ وامتلات عيناها بالدموع فجأة وهي تتطلع إلى بلتزار، فمن المستحيل عدم التأثّر بعمق لرئيس عائلة كلايس هذا؛ إذ لاشك أنه في شبابه كان يشبه الشهيد السامي الذي هدد شارل كنت بأن يجدد آرتفلد؛ لكنه في هذه اللحظة بدا وكأن عمره فوق الستين بالرغم من أنه في حوالي الخمسين، وهذه الشيوخوخة المبكّرة قد شوّهت هذا التشابه النبيل، فقامته الطويلة قد انحنى قليلاً، سواء من أعماله التي تجبره على الإنحاء، أو لأن السلسلة الظهرية قد تقبّبت تحت ثقل رأسه، كان ذا صدر عريض، وجذع مربع، لكن الأقسام السفلية من جسمه كانت هزيلة بالرغم من متانتها وعصبيتها. هذا التنافر في عضوية تامة بالتأكيد حيّرت سابقاً الفكر الذي جهد لتفسير أسباب هذا الشكل الغريب بتفردٍ مافي الوجود، وكان شعره الغزير الأشقر المهمل يتهدّل على كتفيه وفق الطريقة الألمانية ولكن في فوضى تتناسق مع الغرابة العامة لشخصيته، أما جبينه العريض فيدي الصدبات التي جعلها غال^(١) مستقرّاً للعواالم الشعرية، وعيناها بزرقة فاتحة غنية تشعّ منهما حيوية مفاجئة تلاحظ لدى كبار الباحثين عن الأسباب الخفية؛ وأنفه وهو تام دون شك، قد تطاول، وبدا منخراه يتوسعان تدريجياً أكثر فأكثرت بتوتر لا إرادي في العضلات الشميّة، ووجنتاه المزغبتان تبرزان بشكل ظاهر، وخداه اللذان اعتراهما الذبول يبدوان غائرين، وفمه الظاهر الفتنة ينحصر بين الأنف وذقن قصيرة تبدو مرتفعة فجأة، مع أن شكل وجهه يبدو متطاولاً أكثر منه ببيضوياً، وهكذا فإن النظام العلمي الذي ينسب لكل وجه بشري تشابهاً مع سحنة حيوان يجد برهاناً إضافياً في وجه بلتزار كلايس الذي يمكن مقارنته برأس حصان^(٢). إن جلده يبدو ملتصقاً بعظامه كأن لهباً

(١) غال (فرانز جوزيف) (١٧٥٨ - ١٨٢٨) طبيب ألماني، مبتكر فراسة الدماغ.

(٢) يتهج بلزاك منهج لافاتر (١٧٤١ - ١٨٠١) مبتكر علم القراسة في المقارنة ما بين سحن الحيوانات وعلامح الإنسان.

سرياً قد جفّفه دون انقطاع، ومن ثم، وفي بعض لحظات، عندما يتطلع في الفراغ، كأنما يفتش فيه عن تحقيق أحلامه، يبدو وكأنه ينفث من منخريه لهباً يفترس روحه.

إن العواطف العميقة التي تحرك الرجال الكبار تتجلى في هذا الوجه الشاحب الذي خدّته النجايد، وعلى هذا الجبين المتغضن كجبين ملك عجوز^(١) تملؤه الهموم، وفي هاتين العينين البراقتين اللتين يزداد ألقهما خاصة بالعفة التي يفرضها طغيان الأفكار، والبؤرة الداخلية لذكاء واسع، هاتان العينان الغائرتان بعمق في محجريها تظهران وكأنهما تعبتان فقط من ليالي السهر والارتكاسات الرهيبة لرجاء يلقي الخيبة دائماً، ويتجدد دائماً. ينكشف التعصب الغيور الذي يوحى به الفن أو العلم عند هذا الرجل، بالشرود الثابت والمتفرد الذي يشهد عليه وضعه وتصرفه المتوافقان مع التشوّه العجيب في سحنته، فيداه العريضتان المكسوتتان بالشعر وسختان، وأظافره الطويلة تنتهي في أطرافها بخطوط سوداء قاتمة، وحذاؤه تنقصه الأشرطة أو غير نظيف، والمعلم السيد في منزله يمكن أن يعطي عن نفسه هذه الشهادة الغريبة في عدم النظافة: فينبطاله من الجوخ الأسود المليء بالبقع، وسترت المفككة الأزرار، وربطة عنقه المائلة، ومعطفه المخضّر المفتّق دائماً تكمل هذه المجموعة الغريبة من الأشياء الصغيرة والكبيرة التي تكشف عند الآخرين بؤساً تتولد عنه هذه النقائص، لكنه عند بلتزار كلايس لامبالاة العبقرية، غالباً ما تحدث النقيصة والعبقرية أثاراً متشابهة تخدع الرجل العادي؛ أليست العبقرية إفراطاً ثابتاً يلتهم الوقت والمال والجسم ويؤدي إلى المشفى بسرعة أكبر من سرعة الأهواء السيئة؟ بل إن الرجال قد يظهرون احتراماً أكبر للنقائص منهم للعبقرية، لأن هذه الأخيرة لاتحوز على ثقتهم ويبدو أن مكاسب الأعمال السريّة للعالم بعيدة لدرجة يخشى فيه النظام الاجتماعي من التعامل معه في حياته، وهو يفضل أن يفي ما عليه دون أن يغفر له بؤسه أو بلاياه.

(١) يقصد بذلك لويس الحادي عشر

لو أن بلتزار كلايس، رغم نسيانه للحاضر، يتخلى عن هذه التأملات الغامضة، لو أن رغبة عذبة واجتماعية تنعش هذا الوجه المفكر، لو أن عينيه الثابتين تفقدان بريقهما الجامد لتلونا عاطفة، لو أنه ينظر حوله ويعود إلى الحياة الحقيقية والعادية، لكان من الصعب ألا يلقى جمال هذا الوجه الفاتن، وما يبدو فيه من مسحة لطف، التقدير اللاإرادي. هكذا فإن كل من يراه يأسف لأن هذا الرجل ليس في هذا العالم، وهو يقول: «لأشك أنه كان جميلاً في شبابه!» خطأ شائع، إذ أن بلتزار كلايس ما كان أبداً شاعرياً كما هو الآن. إن لافتاتر كان يتمنى بالتأكيد دراسة هذا الرأس المليء بالأناة، والاستقامة الفلمنية، والأخلاقية الساذجة، حيث كل شيء يبدو فسيحاً وكبيراً، حيث الهوى يبدو هادئاً لأنه قوي. يجب أن يكون طبع هذا الرجل رائعاً، وكلمته مقدسة، وصداقته ثابتة، ووفاءه كاملاً؛ لكن الإرادة التي تستخدم هذه المزايا لمصلحة الوطن، أو العالم، أو العائلة، قد شاء لها القدر أن تتحرف بعيداً. إن هذا المواطن الذي يتوقع منه السهر على سعادة بيت زوجي، ويدير شؤون ثروة، ويوجه أبناءه نحو مستقبل زاهر، يعيش خارج واجباته، وخارج انفعالاته، مسخراً لعبقرية تملكته.

إنه يبدو مع الكاهن وكأن كلام الله يملأ قلبه، والفنان يحييه كأحد جهابذة الفن، أما المتحمس فيخاله صاحب رؤى من الكنيسة السويدية (١) في تلك اللحظة بدت الثياب المقطعة، والغريبة والرثة التي يلبسها هذا الرجل تتعارض خاصة مع التطلعات اللطيفة التي توجهها إليه المرأة باعجاب متالم. إن الأشخاص المشوهين ذوي الذوق أو الروح الطيبة يعتنون بزيتهم بانتباه فائق، أو أنهم يلتزمون بالبساطة معتبرين أن جاذبيتهم معنوية أو أنهم يعرفون كيف يخفون عدم التناسق في أجسامهم بنوع من الأناقة تلهي النظر وتشغل الفكر. لاتقتصر عاطفة هذه المرأة على طيبة الروح وإنما هي تحب بلتزار كلايس بتلك

(١) سويدنيورج: (١٦٨٨ - ١٧٧٢): تيوسوفي وصاحب رؤى سويدي، له مؤلفات يشرح فيها مذهبه في اتصال الأفكار، وله أتباع عديون في انكلترا والولايات المتحدة

الغريزة الإنثوية التي تعطي شعوراً مسبقاً بذكاء الملائكة؛ وقد تربت في وسط أشهر العائلات في بلجيكة، فاكترسبت إضافة إلى ماتملكه من ذوق ذوقاً، وتوجهت بالرغبة في أن تعجب باستمرار الرجل الذي أحبته، فاتفقت العناية بملابسها دون أن تتأثر أناقتها بالانشغولين الخلقين المصابة بهما؛ فصدارها لا ينقص إلا عند الكتفين، باعتبار أن أحدهما أثخن من الآخر بشكل ملحوظ.

كانت تنظر من إحدى النافذتين إلى الفناء الداخلي ثم من الأخرى إلى الحديقة، وكأنها تريد أن ترى فيما إذا كانت وحيدة مع بلتزار، وقالت له بصوت عذب، وهي تلقى عليه نظرة ملأى بالامتثال الذي يميز الفلمنديات، إذ أن الحب بينهما قد طرد منذ زمن بعيد أنفة الوجاهة الإسبانية: «أكون مشغولاً كثيراً يا بلتزار؟» فما هو الأحد الثالث والثلاثون الذي لم تحضر فيه القداس أو صلاة العصر.

لم يجب كلايس، وخفضت زوجته رأسها، وضمت يديها وانتظرت فهي تعرف أن هذا الصمت لا يعبر لاعتقار ولا عن كره، وإنما عن انشغال طاغ، قبلتزار هو أحد هذه الكائنات الذين يحتفظون لمدة طويلة في صميم نفوسهم برقة الصبا، وهو يجد أن من الإجماع أن يبدي أية فكرة جارحة للمرأة المثقلة بمصيبتها الجسمية، فهو وحده، بين الرجال على الأرجح، من يعرف أن كلمة أو نظرة يمكن أن تحذف سنوات من السعادة، وستكون قاسية بمقدار شدة تباينها مع عذوبة ثابتة، لأن طبيعتنا تحملنا على الشعور بمزيد من الألم في تفاوت الهناء يفوق ما نشعر به من لذة في متعة تدرج ضمن الشقاء.

بعد لحظات بدا بلتزار وكأنه يستفيق، وتطلع بعمق حوله وقال: «صلاة العصر؟ آه، الأولاد في صلاة العصر»، ومشى عدة خطوات ليلقي نظرة على الحديقة التي تكتسي جميع جنباتها ببساط رائع من أزهار الخزامى؛ لكنه توقّف فجأة، وكأنه اصدام بجدار وصاح: «لماذا لا نتحد خلال زمن محدّد؟»^(١)

(١) هكذا تدخل الكيمياء في الرؤية، وقد كان موضوع اتحاد الأجسام إلى جانب الاحتراق يشغل بال علماء ذلك العصر.

«هل أصيب بلوثة؟» قالت امرأته في نفسها وقد تملكها ذعر عميق.
 لأجل بيان أهمية المشهد الذي أدّى إلى ذلك الوضع من الضروري أن
 نلقي نظرة على الحياة العائلية لبلتزار كلايس وحفيدة الدوق كارا - ريال.
 في العام ١٧٨٣، كان بلتزار كلايس دى نورو، وهو آنذاك في الثانية
 والعشرين من عمره، ممن تطلق عليهم في فرنسة اسم الرجل الوسيم، فقد أنهى
 دراسته في باريس حيث اكتسب أرقى أساليب التصرف في المجتمع لمعاشرته:
 السيدة إغمون، والكونت دي هورن، والأمير أرمبرغ، وسفير إسبانية،
 وهلفسيوس^(١)، والفرنسيين من أصل بلجيكي، أو الأشخاص الوافدين من تلك
 البلاد، والذين يعتبرون من ناحية ولادتهم أو من ناحية ثروتهم من كبار سادة
 ذلك الزمن المعبرين عن عادات مجتمعهم: وقد وجد كلايس الشاب في باريس
 عدداً من الأقارب والأصدقاء الذين أطلقوه في هذا المجتمع الرفيع في اللحظة
 التي كان فيها هذا المجتمع يتداعى، ولكن وكمعظم الشباب، كان أكثر انجذاباً
 للعلم والمجد منه للغرور، وهكذا فقد اختلط كثيراً بالعلماء، وبصورة خاصة
 لافوازييه، الذي اشتهر آنذاك ولفت الانتباه العام بثروته الواسعة كعمول ملتزم
 ضرائب أكثر منه كعالم ذي اكتشافات كيميائية، لكن الكيميائي الكبير بعد ذلك
 غطى على ملتزم الضرائب الصغير، وقد استهوى العلم الذي يتابعه لافوازييه
 بلتزار فأصبح أحد مريديه المتحمسين، لكنه كان شاباً فانتأ كزميله هلفسيوس،
 وعلمته نساء باريس سريعاً كيف يقطر حصرأ الطرف والحب وبالرغم من أنه
 انصرف إلى الدراسة بحماس حتى أن لافوازييه قد خصه ببعض التقريظ، لكنه
 هجر معلمه ليستمع إلى معلمات الذوق اللواتي يتلقى على أيديهن الشباب
 الدروس الأخيرة في آداب السلوك، ويتدربون على ممارسات المجتمع المخملي
 الذي يشكل في أوربة عائلة واحدة.

لم يدم حلم النجاح المسكر إلا قليلاً، وبعد أن استمتع بلتزار بالحياة

(١) هلفسيوس (١٧١٥ - ١٧٧١): متعهد ضرائب وفيلسوف له كتاب «الروح» ويعبر عن
 الحسوة المطلقة.

الباريسية، انصرف تعباً من حياة جوفاء لا تتلأم لامع روحه المتوثبة ولامع قلبه المغمم لقد بدت له الحياة البيتية بعذوبتها وهدهدها، التي يتذكرها لمجرد ذكر اسم الفلاندر، أكثر ملائمة لطبعه وطموحات قلبه؛ إذ لم تتمكن مذهبات أي صالون باريس أن تمحو أنغام الردهة الداكنة ولا الحديقة الصغيرة التي قضى بينهما أسعد أيام فتوته، ومن يرغب البقاء في باريس، يجب أن ينسى البيت والوطن، فباريس مدينة الأجناس المختلفة، أو مدينة الرجال الذين اقترنوا بالعالم يعانقونه دون انقطاع بذراع العلم أو الفن أو السلطة.

عاد فتى الفلاندر إذًا إلى دوي، كما عادت حمامة لافونتين إلى عشها، ويكى فرحاً بدخوله المدينة في ذكرى اليوم الذي تجول فيها غايان. غايان هذا المسعد الوهمي لكل المدينة، وهذا الفائز بالذكريات القلمندية.

كان بيت كلايس خالياً بعد وفاة الأب والأم اللذين شغلاه فترة من الزمن، وشعر الشاب بعد انقضاء فترة حزنه الأولى، بالحاجة إلى الزواج ليتطمح الوجود السعيد الذي أوصت به جميع الأديان، وأراد أن يتبع النهج المعتاد للبيت العائلي، بذهابه كأسلافه، للتفتيش عن زوجة سواء في غان، أو بروج، أو أنقر، لكن مامن واحدة ممن صادفهن أعجبتة؛ فقد كان له على الأرجح حول الزواج بعض الآراء الخاصة، وهو المتهم منذ مطلع شبابه بعدم السير وفق الطريق الاعتيادي؛ وفي يوم سمع من يتحدث عند أحد أقربائه في غان عن أنسة من بروكسل غدت موضوع مناقشات مثيرة، فقد وجد بعض الحاضرين أن جمال الأنسة دى تمنيك يمحي نتيجة تشوّهاتها الخلقية، بينما رأى بعضهم الآخر أنها كاملة رغم هذه العيوب؛ أما ابن عم بليزار كلايس العجوز فقد قال لدعويه، بأنها، بغض النظر عن الجمال والقيح، ذات روح تدفعه لو أنه مازال أهلاً للزواج ليقترن بها، وقصّ كيف أنها تخلت عن ميراث والدها لتؤمن لأخيها الشاب زواجاً يليق باسمه مضحية بسعادتها وبأمل كل حياتها في سبيل سعادة هذا الأخ، إذ لا أحد يؤمن أن الأنسة دى تمنيك ستتزوج بعد تقدمها في العمر. وبعد أن غدت بدون ثروة، بينما لم يتقدّم إليها أحد وهي شابة ذات ميراث.

بعد عدة أيام كان يلتزار كلايس يسعى إلى الأنسة دي تمينيك، وهي في الخامسة والعشرين من العمر، وقد تدلّه بها بحماس. ظنّت جوزفين دي تمينيك أنها عرضة لنزوة ورفضت أن تستمع إلى كلايس، لكن الهوى كثير الموصلية، وبالنسبة لفتاة مسكينة ذات عاهة وعرجاء، فإن الحب الملهم لرجل شاب حسن التكوين يحتمل إغواءات كبيرة بحيث وافقت على أن تقبل تودّده لها. ألا يلزمنا كتاب كامل لنصف جيداً حب شابة خاضعة بتواضع لرأي يعتبرها قبيحة، بينما تشعر في نفسها بجاذبية لاتقاوم تحدثها العواطف الحقيقية؟ إنّه غير شرسة على طيف السعادة، وتردد قاس في الانتقام من أية منافسة تسرق نظره، أخيراً إنّه تأثيرات ومخاوف من معظم النساء تدمرها مجرد الإشارة إليهن. إن الشك، الشديد المساوية في الحب، هو سرّ هذا التحليل المدقق بشكل رئيس الذي تجد فيه بعض النفوس الشاعرية المفقودة، لكن غير المنسية، لتشوّشاتها الأولى: هذه الاثارات السامية في صميم القلب التي لا يمكن للوجه أن يخفيها، وهذه الخشية من عدم تفهّم الآخرين، وهذه المسرّات غير المحدودة لوجود الحب، وهذه الترددات في الروح التي تنطوي على نفسها، وهذه الإسقاطات المغناطيسية التي تدفع إليها كلمة، والتي تتبدّد عند سماع نغم صوت يمتدّ كامتداد العاطفة التي تكشف عن مثابرة لم يعرف قدرها؛ وهذه النظرات الهلعة التي تحجب جراءة رهيبة، وهذه الرغبات المفاجئة في التحدّث والحركة المكبوحَة بعنفها بالذات، وهذه البلاغة الحميمة الناتجة عن عبارات بدون معنى، لكنها مقولة بصوت متأثر؛ وهذه التأثيرات الغامضة لهذا الخفر البدائي في الروح وهذا الكتمان السماوي الذي ينعكس شهامة في الظل ويهدي ذوقاً رهيفاً إلى توضّحات غامضة؛ أخيراً كل مفاتن الحب الفتني ومواقف الضعف التي تحدثها قدرته.. كانت الأنسة جوزفين دي تمينيك مغناجاً في سموّ نفسها، وقد جعلها الشعور بعيوبها الجسمية الظاهرة بمثل صعوبة أجمل الفتيات، فالخشية من أن تفقد الإعجاب يوماً أيّظ كبريائها، وحطّم ثقّتها، ومنحها الجراءة على أن تحتفظ في أعماق نفسها بالمباهج الأولى التي ترغب النساء الأخريات أن تعلنها

بطرائقهن، ويجعلن منها وسيلة مباهاة وزهو، وكلّما زاد الحبّ في دفعها للتعلّق ببلتزار، كلما قلّت جرأتها في أن تعبر له عن عواطفها؛ ألا تغدو الحركة أو النظرة أو الجواب أو الطلب مزايادات مزرية بالنسبة لها؟ بينما هي في نظر المرأة الجميلة ملاطفات للرجل، إنّ المرأة الفاتنة يمكن أن تكون كما تشتهي وترغب فالمجتمع يغفر لها دائماً أية حماقة أو أيّ تلّبك، بينما نظرة واحدة توقف التعبير الأكثر سحراً على شفّتي امرأة دميمة، وترمي الوجل في عينيها، وتزيد من سماجة حركاتها، وتربك تصرفاتها. ألا تعلم أنّها هي وحدها التي يحرم عليها أن ترتكب الأخطاء، وكلّ يرفض فيها المقدرة على التصحيح، وما من أحد يوفّر لها فرصة ذلك، ألا تخمد ضرورة محافظتها في كل لحظة على الكمال قدرتها وتجمّد ممارستها؟ إنّ هذه المرأة لاتستطيع العيش إلا في جوٍّ من تسامح ملائكي، وأين هي القلوب التي يتفتح التسامح فيها دون أن يصطبغ ذلك بشفقة جارحة مرّة؟ هذه الأفكار التي عوّدت عليها مجاملتها الرهيبة للمجتمع، وهذه المراعاة الأكثر قسوة من الإهانات فاقمت البلايا بالتحقق منها، وأرهقت الأنسة تمنينك، وسببت لها مضايقة ثابتة أبعدت إلى أعماق روحها الانطباعات الأكثر عنوية وكست بالبرود تصرفها وكلامها ونظرتها. إنها متيمة خفية لاتجرؤ على الإفصاح أو التّجمل إلا في العزلة. فهي تعيسة في وضخ النهار، فاتنة لو يتيسر لها أن تقضي حياتها في عتمة الليل، وغالباً ماتكره التزيّن، الذي يمكن أن يستر بعض عيوبها، لتستمتع بهذا الحب مجازفة يفقده؛ فعيناها كاسبانية تفتن عندما تلاحظ أن بلتزار يجدها جميلة وهي على طبيعتها، غير أنّ الريبة أفسدت عليها اللحظات النادرة التي كانت تجازف خلالها بأن تستمتع بالسعادة. لقد تساعت سريعاً عما إذا كان كلايس لا يبغي الزواج بها إلا ليكون له في منزله أمة، وعن احتمال وجود عيوب سرية فيه تجعله يقتنع بالزواج من فتاة بائسة مشوّمة. هذا القلق المستمر كان يثقل بفداحة ثمنه على الساعات التي تعتقد فيها باستمرارية وإخلاص حبّ ينتقم لها من العالم، كانت تثير مناقشات حسّاسة عندما تتعرض بالمبالغة لدمامتها، لتتغلغل إلى أعماق وجدان

حبيبها، وكانت تنتزع عند ذاك من بلتزار حقائق قليلة التملق، لكنها كانت تهوى الارتباك الذي يقع فيه، عندما تستدرجه ليقول أن ما يحب في المرأة هو قبل كل شيء الروح الطيبة، وهذه التضحية التي تجعل جميع أيام الحياة سعيدة بشكل ثابت، وأن أجمل نساء الأرض، بعد عدة سنوات من الزواج تغفو بالنسبة للزوج مثل أقبحهن. فجة أحس بلتزار بفظاظة هذه المقترحات واكتشف كل ما في قلبه من طيبة في رقة التحولات التي عرف كيف يبيدها للآنسة تمنينك التي كانت كاملة بالنسبة له، فالتضحية التي قد تكون لدى المرأة قمة الحب لا تنقص هذه الفتاة؛ إذ أنها وقد قنطت من أن تكون محبوبة على النوم، أغراها منظور الصراع الذي يجب أن تتغلب فيه العاطفة على الجمال؛ ثم وجدت أن من الكبر أن تهب نفسها دون أن تؤمن بالحب؛ أخيراً فإن السعادة مهما كانت مدتها قصيرة ستكلفها غالياً جداً إن امتنعت عن تنويعها. هذه الشكوك، وهذه الصراعات بإشاعتها الجاذبية وغير المتوقع في هوى هذه المخلوقة السامية، أوجت إلى بلتزار بحب شبه فروسي.

تم الزواج في بدء سنة ١٧٩٥ وعاد الزوجان إلى دوي ليقتضوا أيام اقترانهما الأولى في بيت كلايس الأبوي، الذي أغنت الآنسة دي تمنينك كتوزه ببعض اللوحات الجميلة لموريلو وفلاسكز^(١)، وبالإلميس أمها، وبالهدايا الرائعة التي أرسلها لها أخوها، الذي أصبح نوق كازا - ريال.

قلة من النساء كن بمثل سعادة السيدة كلايس؛ وقد دامت سعادتها خمسة عشر عاماً دون أن تعكرها أية غيمة، وكنور ساطع انبثت في أدق تفاصيل وجودها. إن لدى معظم الرجال تفاوت في الطباع يحدث تنافراً مستمراً، وبذلك يحرمون بيوتهم من ذلك الانسجام، وهو هدف مثالي لكل عائلة؛ ذلك أن معظم الرجال ملوثون بالصغائر، والصغائر تولد الإزعاجات، فأحدهم مستقيم ونشط لكنه قاس وخشن، وآخر طيب لكنه عنيد؛ هذا يحب امرأته لكن تكبل الشكوك إرادته وذاك، وقد انشغل بالطموح، يتصرف مع العواطف وكأنها دين، فإذا ازدهى بالحصول على الثروة فإنه قد حرم من متعة جميع الأيام.

(١) موريلو (١٦١٧ - ١٦٨٢)، فلاسكز (١٥٩٠ - ١٦٦٠): من الفنانين الأسبانيين

أخيراً فإن رجال الوسط الاجتماعي غير كاملين دون أن يتوجبّ لوهمهم بالضرورة، ورجال الفكر متغيّرون كتغير مقاييس الضغط الجوي والبعقري منهم هو الطيّب، وهكذا فالسعادة الحقيقية هي بين طرفي السلم المعنوي: الغبي الساذج أو رجل الإبداع هما القادران على تحقيقها، الأول بضعفه والآخر بقوته، بهذه المساواة في الطبع والعذوبة الدائمة التي يرقّ فيها ما أخشوشن من أمور الحياة، لدى الأول لامبالاة وقصور ذاتي ولدى الثاني تسامح واستمرار فكر سام، هو المعبر عنه، بتماثل في المبدأ، كما في التطبيق، الأول والثاني بسيطان بريئان إنما لدى هذا العمق ولدى ذاك الفراغ؛ وهكذا فالنساء البارعات مهيأت تقريباً لتقبّل الغبي وكأنه الأمل المرتجى كالبعقري.

كان يلتزار يتميّز إذا بسموه حتى في أتفه أمور الحياة، وقد راق له أن يرى في الحبّ الزوجي تحفة رائعة، أراد أن يبسط فيها كل معاني الجمال كجميع الرجال أصحاب الغايات الكبيرة، فكانت روحه تعدّل دون انقطاع هدأة السعادة وطبعه النبل يوجّه انتباهه إلى معالم الرقة والتلطّف، وهكذا فبالرغم من اتباعه للمبادئ الفلسفية السائدة في القرن الثامن عشر فقد أوى إليه حتى العام ١٨٠١، رغم تعرّضه لمخاطر القوانين الثورية كاهناً كاثوليكياً، كي يرضي التعصب الإسباني للكاثوليكية الرومانية الذي رضعته زوجته مع حبيب أمّها. ثم بعد أن أطلقت حرية العبادة في فرنسا، كان يرافق امرأته كلّ يوم أحد إلى القديس؛ وهكذا فإن مودته لم تتخل عن أشكال الهوى المتّيم، ولم يظهر أبداً في منزله تلك القوّة الحامية. بالرغم من محبة النساء لها، لأن زوجته تراها تشبه الشفقة. أخيراً ويحس تصرف بارع في الذكاء كان يعاملها كندّ له ويسمح لنفسه بأن تبدر عنه بعض مظاهر الحرد التي يبيدها الرجل تجاه المرأة الجميلة ليرضي فيها تعاليها. كانت بسمة السعادة تتجلّى دائماً على شفّتيه، وكلامه تملؤه العذوبة دوماً، لقد أحبّ جوزفينه لذاتها وله بهذه الحماسة التي يقتضيها التقريظ المستمر لمزايا ومفاتن المرأة، أما الإخلاص وهو غالباً نتيجة مبدأ اجتماعي أو تديّن أو غاية لدى الأزواج، فهو لديه على ما يبدو، لا إرادي ومتراقر

يوماً بملاطفات ربيع الحب العذبة؛ والواجب في الزواج هو الغرض الوحيد الذي يبدو مجهولاً لدى هذين الكائنين المتحابين بالتساوي؛ إذ رأى بلتزار كلايس في الأنسة دي تمينك تحقيقاً كاملاً وثابتاً لجميع آماله؛ والقلب لديه قد أقعّم حباً دون كَدَر والرجل يرتع في السعادة؛ فالدم الاسباني في عروق حفيدة آل كازا - ريال لم يكذب أصالته وقد منحها سرّ هذا العلم الذي يعرف كيف ينوّع اللذات إلى ما لانهاية، ليس هذا فقط، إنما منحت تضحية لحدود لها هي ابداع جنسها كما تحولّ الجمال كلّها فيها إلى جاذبية لقد أصبح الحب فيها عصبية عمياء يسرّها فيه أن تنطلق إلى الموت بإيماءة من رأس الصبيب؛ فرقة بلتزار أثارت فيها أنبل ما تحسّ به المرأة من عواطف وأوحت إليها بحاجة ملحة لتعطي أكثر مما تتلقى. هذا التبادل المشترك لسعادة تتناوب متدفقة أطلقت مبدأ حياتها من كوامن نفسها بشكل ظاهر، فانتشر حب متزايد في عباراتها ونظراتها وتصرفاتها؛ وأغنى العرفان بالجميل، من جهة وأخرى، حياة القلب وزادها تنوعاً، كما أن اليقين بأن كلا منهما هو كلّ شيء بالنسبة للآخر قد أبعد الصغائر بارتقائه بأنفه ملحقات الوجود، وأيضاً ألا تشعر المرأة المشوّهة التي يجدها زوجها تامة، أو المرأة العرجاء التي يجدها الرجل غير ذلك، أو المرأة المتقدمة في العمر التي تبدو شابة، أنهن أسعد المخلوقات في العالم النسائي؟.... ألا يمكن للهوى الإنساني أن يذهب إلى الأبعد^(١)؛ أليست عزّة المرأة في أن تجعل عيوبها موضع تيجيل؟ إن نسيان المشية غير السوية لعرجاء هو افتتاح لحظة، لكن حبّها لأنها تعرج هو تقديس لعلتها. ربّما يجب أن ينتعش يوماً في الكتاب المقدس للنساء هذه الحكمة: «طوبى للمشوّهات لأنّ لهن ملكوت الحب». حقّاً يجب أن ينظر إلى الجمال كنقمة على المرأة؛ فهذه النعمة العابرة تتدخل كثيراً بما توحيه من عاطفة، فكان الجميلة تحب لجمالها، كما يسعى للزواج بالوريثة الثرية لغناها. لكن الحب الذي تثيره أو تظهره امرأة حُرمت من المزايا الهشّة التي يتهافت عليها أبناء آدم؛ هو الحب الحقيقي، والهوى الغامض

(١) بذلك يكون حبّ كلايس الزوجي يمثل المطلق في مجال الهوى.

حقاً وعناق الأرواح الحاد، والعاطفة التي لا تعرف يوماً خيبة الأمل. إن لهذه المرأة مغائن مجهولة من عالم المراقبة الذي تتغلّت منه. إنها جميلة بالشكل الصائب وتتهيا لها العزّة بحيث تنسى عليها التي لا تحول أبداً دون نجاحها. هكذا فإن أشهر قصص الحب في التاريخ قد استوحيت جميعها تقريباً من نساء رأى فيهن العوام بعض التشوهات: كليوباترة^(١)، جان نابولي، ديان بواتيه، الأنسة دي لافالير، السيدة دي بومبادور. أخيراً فإن معظم النساء اللواتي خلّدهن الحب لم يخلون من تشوّه أو عجز، بينما معظم النساء اللواتي اشتهرن بجمال تام رأين حبّهن ينتهي إلى الخيبة. هذه الغرابة الظاهرية يجب أن يكون لها سبباً أهو اهتمام الرجل بالعاطفة أكثر منه بالمتعة؟ أم أن الجاذبية الجسمية للمرأة الجميلة ذات حدود بينما الجاذبية المعنوية بشكل رئيس لامرأة ذات جمال متواضع لانهاية لها؟ أليس هذا ما يستنتج من حكايات ألف ليلة وليلة؟ لو أن زوجة هنري الثامن كانت دميمة لتحدث الفأس وتغلّبت على تقلبات الملك^(٢).

بغربة لها عذرها عند فتاة ذات أصل اسباني، كانت السيدة كلايس جاهلة، اقتصر ثقافتها على القراءة والكتابة، لكنها حتى العشرين من عمرها، عندما أخرجها أهلها من الدير، لم تكن متعطشة إلى مسرّاته، فلم تتعلم إلا مبادئ التزين الثقافية، إنّما كانت مستخرجة من جهلها بحيث لم تجرؤ على الدخول في محادثة، مما دفع إلى الظن بأنها محدودة التفكير. غير أن هذه

(١) كليوباترة (٦٩ - ٣٠ ق م) ملكة مصر، أحبها قيصر، ثم انطونيوس. لم يعجب أنفها اوكتافيوس

جان نابولي (١٣٢٧ - ١٣٨٢) ملكة نابولي، اشتهرت بإسامة معاملة الأزواج، ماتت مخنوقة

ديان بواتيه (١٤٩٩ - ١٥٦٦) خلية هنري الثاني.

دي لافالير (١٦٤٤ - ١٧١٠) عشيقة لويس الرابع عشر، كانت عرجاء.

السيدة دي بومبادور (١٧٢١ - ١٧٦٤) عشيقة لويس الخامس عشر.

(٢) المقصود أن بولين (١٥٠٧ - ١٥٣٦) التي تزوجها الملك رغم حرمان روما ثم قتلها بعد أن أحبّ غيرها.

التربية الغامضة انتجت لديها احتداماً في العواطف دون أن تفسد ذكائها الطبيعي؛ فهي دميعة وحمقاء كوريثة في أعين البشر، لكنها جميلة ومرهفة العقل في نظر زوجها؛ وقد عمل بلتزار في السنوات الأولى من زواجهما على أن يكسب امرأته المعارف التي تحتاج إليها لانخراطها في المجتمع، لكن الوقت قد فات دون شك، ولم تعد الذاكرة تستوعب إلا قضايا القلب، فجوزفين لاتنسى شيئاً مما يقوله لها كلايس عما يتعلق بهما، وتتذكر أدق تفاصيل حياتها السعيدة، لكن في العلم لاتتذكر درس الأمس في اليوم التالي. هذا الجهل لو كان بين أزواج آخرين لأدى إلى تنافر كبير، لكن السيدة كلايس في توافقها الساذج البريء مع الهوى، تحب زوجها إلى درجة التقى والتقديس، بحيث يمنحها توقها للمحافظة على سعادتهما مهارة تمكنها دائماً من فهمه وطي هذا الجهل بحيث لا يبدو جلياً، الواقع عندما يتحاب شخصان إلى الدرجة التي يبدو فيها كل يوم ليهما هو يوم هواهما الأول، تترسخ في سعادتهما العامرة ظواهر تبدل جميع شروط الحياة، أليس هما في طفولة خلية من كل هم لاتبالي إلا بالضحك والمرح والسرور؟ ومن ثم فعندما تكون الحياة تمرر نشاطاً، والبيت ملوفا الحركة فإن الرجل ينطلق معها في قدتها دون أن يعن التفكير أو المناقشة بها، ودون حساب للوسائل والغايات، عدا عن أن مامن ابنة لحواء أفضل من السيدة كلايس في إدراكها لواجباتها كامراًة؛ فهي تتصف بامتثال الفلمندية التي تملأ البيت العائلي جاذبية، بينما يمنحه زهو أصلها الاسباني نكهة فائقة؛ وقد تميّزت بالوقار، فهي تعرف كيف تفرض احترامها بنظرة يشع منها إحساس بمكانتها ونبلها، لكنها أمام كلايس كانت ترتجف، وانتهت مع الزمن إلى وضعه في منزلة سامية تقرّبه من إله، بعد أن نقلت إليه جميع أحداث حياتها وكلّ ما يخطر ببالها بحيث اكتسب حبها مسحة من خشية موقرة تشحذه وتزيده مضاًء، واتبعت بزهو جميع تقاليد البورجوازية الفلمندية، واعتبرت كرامتها رهناً بتحقيق حياة عائلية مرفهة سعيدة فهي تعنى بكل شؤون البيت محافظة على نظافتها التقليدية، وتختار من الأشياء ما عرف بجودته

المطلقة، وتهيء لمائدتها أشهى المأكّل، وترتب كل شيء في تناسق مع أحاسيس قلبها. رزق الزوجان أربعة أولاد، صبيين وبنيتين، وقد ولدت ابنتها البكر مرغريت في العام ١٧٩٦، أما الولد الأخير فكان صبياً عمره الآن ثلاث سنوات واسمه جان بلتزار؛ وكانت عاطفة الأمومة عند السيدة كلايس تعادل تقريباً محبتها لزوجها؛ وهكذا فقد قامت في أعماق نفسها، وخاصة في الأيام الأخيرة من حياتها معركة رهيبة بين هاتين العاطفتين اللتين تتميز كلاهما بالقوة، والتي تحمل كل منهما للآخرى نوعاً من العداوة.

في الفترة التي بدأت فيها قصة هذه المأساة العائلية التي احتضنها ذلك البيت الوديع، وسم الذعر والدموع وجه السيدة كلايس خشية أن تكون قد ضحت بأولادها من أجل زوجها.

في العام ١٨٠٥ توفي شقيق السيدة كلايس دون أن يرزق أولاداً، والقوانين الإسبانية تحول دون انتقال ملكية الأراضي المشكلة لإقطاع العائلة إلى الأخت لكن الدوق في وصيته ورث أخته نحو ستين ألف دوكا لا يمكن أن يئازعها فيها الورثاء من الحواشي، وبالرغم من أن العاطفة التي تربطها ببلتزار كلايس لم تشبها يوماً فكرة الكسب المادي، فإن جوزفين أحسّت بنوع من الغبطة لأنها امتلكت ثروة تعادل ثروة زوجها، وشعرت بالسعادة لأن في مكنيتها الآن أن تقدّم له شيئاً بعد أن تلّقت منه بنبل كل شيء. هكذا أرادت الصدفة أن يصبح هذا الزواج، الذي اعتبره أنصار المصالح جنوناً، من الناحية المادية، زواجاً ممتازاً. لكن استغلال هذا المبلغ أحدث صعوبة في التطبيق؛ فبيت كلايس كان مليئاً بالآثاث، واللوحات، والتحف الفنية والقيّمة، بحيث بدا من الصعب أن تضاف إليها رياش أخرى مماثلة لما يحويه؛ فذوق تلك العائلة قد راكّم كنوزاً، وانطلق جيل كامل سعيّاً وراء اللوحات القيمة، ثم جعلت ضرورة إكمال المجموعة التي بديء بها الميل إلى الرسم وراثياً، فاللوحات المئة التي تزيّن الرواق الواصل بين الجناح الخلفي وقاعات الاستقبال الواقعة في الطابق الأول من الجناح الأمامي، وكذلك اللوحات الخمسون الموضوعة في صالات الاحتفالات قد تطلّبت

ثلاثة قرون من سعي دُوب. إنها قطع فنية شهيرة لروينس، ورويزدال وفان ديك، وقربرغ، وجيراردو، وتنيه، وميريس، وبول پوتر، وورمانس ورامبراندت، وأوبما، وكراناش، وهولبين. قليلة كانت اللوحات الايطالية والفرنسية لكنها جميعها أصيلة ورثيسة. كما أن جيلا آخر قد استهوته المائدة اليابانية والصينية؛ وهكذا استهوى الأثاث أحد أفراد عائلة كلايس، بينما استهوت الفصيات آخر، فكان لكل منهم هُوسه، وهواه، وإحدى السمات الأكثر بروزاً في الطبع الفلمندي؛ فوالد بلتزار، وهو من نهاية سلسلة المجتمع الهولندي الشهيرة ترك إحدى أغنى مجموعات الخزّامي المعروفة. عدا هذه الكنوز الموروثة التي تمثل رأسمال هائلاً، والتي كانت تؤثث بشكل رائع ذلك البيت العتيق، البسيط في مظهره من الخارج كقوقعة، لكنها قوقعة لؤلؤية من الداخل ومزينة بأغنى الألوان.

كان بلتزار كلايس يمتلك أيضاً بيتاً ريفياً في سهل أوركي، وكان بعيداً عن أن ينفق كل مايرده، كما يفعل الفرنسيون، بل انه اتبع التقليد الهولندي القديم فلا ينفق إلا ربع دخله، وبالتالي فإن هذا الربع المعادل لألف ومئتي دوكا سنوياً يجعل انفاقه على مستوى أغنى الأشخاص في المدينة. أظهر نشر القانون المدني صحة هذا التصرف الحكيم، فهو بتقريره توزيع الملكية بالتساوي، فإن توزّع المواريث سيترك كل ولد شبه فقير، وسيشئت يوماً كنوز متحف آل كلايس القديم، لذلك وضع بلتزار بالاتفاق مع السيدة كلايس ثروتها بطريقة تؤمن لكل من أولادهم وضعاً مماثلاً لوضع الأب؛ فاستمر بيت كلايس في بساطة سيرته، واشترى مناطق حراجية أسيئت العناية بها خلال الحروب التي مرّت لكنها بعد عشر سنوات من حسن الصيانة ستكون ذات قيمة كبيرة.

إن المجتمع الراقي في دواي الذي يعاشره كلايس، عرف كيف يقدر جيداً طبع ومزايا زوجته، فقد أعفاها من الواجبات التي يتمسك بها أهل الأقاليم بشدة، فكانت خلال فصل الشتاء الذي تقضيه في المدينة لاتزور الناس إلا نادراً، إنما يأتي الزوّار إليها، فتستقبل كل يوم أربعاء، وتقيم ثلاث ولائم عشاء

كبرى في الشهر، وكان كل فرد يشعر انها اكثر راحة في ملازمة منزلها التي يوجبها عليها هواها لزوجها، وما تتطلبه رعاية أولادها من عناية.

هكذا كانت، حتى العام ١٨٠٩، سيرة هذه العائلة المتوافقة مع الأفكار التي تبنتها، فحياة هذين الكائنين المليئة سرّاً بالحب والغبطة، كانت تبدو للخارج مماثلة لحياة أية عائلة أخرى. إن هوى بلتزار كلايس لزوجته التي عرفت كيف تجعله يستمر، بدا كما لاحظ هو بنفسه يستخدم مثابرتة الفطرية في زراعة السعادة التي تعادل زراعة الخزامى التي استهوته منذ صغره، وأغنته عن أن يكون له هوسه الذي لازم كل واحد من أسلافه.

في نهاية تلك السنة طرأت على نفس بلتزار وتصرفاته تغيّرات مشؤومة بدأت بشكل طبيعي أولاً بحيث لم تجد السيدة كلايس ضرورة لسؤاله عن السبب. في ذات مساء أوى زوجها إلى فراشه وقد بدا في حالة انشغال بال وجدت أن من واجبها أن تحترم عدم اقصاحه عنها، فرّقتها كامرأة، وعاداتها في الامتثال جعلتها دائماً تنتظر اعترافات بلتزار لها التي ضمن ثقتها به حباً حقيقي لايفسح أي مجال للغيرة؛ وبالرغم من يقينها بالحصول على جواب إذا سمحت لنفسها بسؤال فضولي، فإنها احتفظت دائماً من انطباعاتها الأولى عن الحياة بخشية الرفض، غير أن مرض زوجها النفسي كان ذا أطوار، ولم يصل إلا على ظلال تتدرّج إلى أن غدت أكثر قوة من ذلك العنف الذي لايطاق، والذي يهدّد سعادة الحياة الزوجية؛ ومهما بدا بلتزار مشغولاً، فقد بقي مع ذلك، وخلال عدة أشهر، محدثاً، عطوفاً، لم يبد عليه من تغير في الطبع إلا تلك الفترات من الشرود المتكاثرة. أمّلت السيدة كلايس طويلاً أن يطلعها زوجها على سرّ مشاغله، واعتقدت أنه لايرغب بالبوح بها إلا في اللحظة التي يحقق فيها نتائج مفيدة، إذ أن كثيراً من الرجال يدفعهم الإباء إلى إخفاء معاركهم فلا يظهرونها إلا منتصرين. في يوم النصر إذاً ستعود السعادة العائلية أكثر تالقاً بحيث يلاحظ بلتزار تلك الفجوة في حياته الغرامية التي سيسحبها قلبه دون شك؛ وجوزفين تعرف جيداً زوجها بحيث تدرك أنه لن يغفر لنفسه أنه جعل حبيبته أقل

سعادة خلال عدة أشهر، لذلك لزمّت الصمت، وهي تشعر بنوع من اللذة لأنها تتشقى بسببه ومن أجله؛ فهوها مشوب بتلك التقوى الاسبانية، التي لاتفصل أبداً الإيمان عن الحب، ولاتفهم أبداً العاطفة دون الآم، وانتظرت عودة الودّ وهي تقول لنفسها كل مساء: «ستتفرج غداً»، كانت تتعامل مع سعادتها كأنها غائبة؛ وقد حملت بطفلها الأخير وسط هذه التشوشات الغامضة؛ فكان هذا الحمل كشفاً رقيقاً عن مستقبل آلام! في هذا الظرف كان الحب بين سهوات زوجها، هو الأكثر تعرضاً للسهر، ودفعها إياها الجريح لأول مرّة، لأن تسبر عمق الهوة المجهولة التي فصلتها إلى الأبد عن كلايس الأيام الأولى، ومنذ تلك اللحظة ساءت حالة كلايس، فهذا الرجل الذي كان سابقاً غارقاً دون انقطاع في الأفراح العائلية، ملاعباً لساعات كاملة أولاده، يتدحرج معهم على سجادة غرفة الجلوس، أو في ممرات الحديقة، يبدو وكأنه يتطلع إلى الحياة من خلال عيني زوجته المدلّة الحبيبة، لم يلاحظ في شروده الآن حتى حمل امرأته، وقد نسي حياة العائلة، بل نسي نفسه، وكلما تأخر الوقت على السيدة كلايس لسؤاله عن مشاغله، كلما قلت جرائتها على هذا السؤال. عند هذا الخاطر يغلي الدم في عروقها، ويخونها النطق، أخيراً خيل إليها أنها لم تعد تثير إعجاب زوجها، وانتابها من ذلك قلق جاد؛ سيطر الروح فيه على نفسها، وأقنطها، وأثارها، وغداً سبباً لساعات كآبة طويلة، وأحلام يقظة حزينة. بررت لبلتزار موقفه ملقية على نفسها اللوم، فهي عدا عن دماستها قد شاخّت؛ ثم خطرت لها فكرة سمحة لكنها مدلّة بالنسبة لها، فقد رأت في العمل المنصرف إليه وفاءً سلبياً، وأرادت أن تمنحه استقلاله بإقامة واحد من هذه الأشكال السريّة للطلاق مشكلاً كلمة السعادة التي يبدو أن أزواجاً عديدين يرتعون بها، غير أنها قبل أن تلقي كلمة الوداع على الحياة الزوجية، جرّبت أن تقرأ في أعماق هذا القلب، لكنها وجدته مغلقاً، وشيئاً فشيئاً رأت بلتزار يغدو لامبالياً تجاه كل ماكان يحبه، فقد أهمل نباتات الخزامي وهي مزهرة، ولم يعد يفكر بأولاده. إنّه دون شك منصرف إلى هوى، خارج تعلّقات القلب، لكنه بالنسبة للنساء لا يخفف من قسوة القلب. إنّ الحبّ هاجع لكنه غير هارب؛ وإن وجد عزاء فهو في أن البليّة لن تبقى على

حالتها؛ لكن استمرار هذه الأزمة يتفسّر بكلمة واحدة هي الأمل، سر جميع هذه الأوضاع الزوجية، ففي اللحظة التي تصل فيها تلك المرأة المسكينة إلى درجة من اليأس، تدفعها إلى أن تتجرأ لتطلب إيضاحاً من زوجها؛ عند ذاك بالضبط تتجدّد لديها لحظات عذبة يبرهن خلالها بلبتزار على أن الأفكار التي تشغل ذهنه، مهما كانت شيطانية، تتيح له أن يعود أحياناً إلى نفسه كما عهدتها؛ وخلال تلك اللحظات التي تصفو فيها سماؤها، تسارع لتستمتع بسعادتها بدلاً من أن تعكرها بالمضايقات، ومن ثم عندما تتشجع لتسال بلبتزار، وفي اللحظة التي تكاد تتكلم فيها يقلت منها سريعاً، أو يتركها فجأة، أو يهوي في لجة تأملاته التي لا يمكن لأي شيء أن ينتزعه منها.

لم يمض إلا القليل حتى بدأ الفعل النفسي يفتك بالجسد فتكاً غير محسوس في البدء غير أنه لا يخفى على عين المرأة المحبة التي تتابع أفكار زوجها المبهمة حتى أدق مظاهرها؛ وغالباً ما يصعب عليها حبس دموعها وهي تراه بعد العشاء، وقد غاص في أريكة قرب النار، عابساً مفكراً، وقد تسمّرت عينه على لوح أسود دون أن يلاحظ الصمت الذي ران حوله، كانت تلحظ بذعر التغيّرات غير المحسوسة التي أخذت تتلف هذا الوجه الذي سما به الحب في نظرها، فيزداد، كل يوم انسحاب حيوية الروح منه، وتبقى القسمات جامدة خالية من أي تعبير، وأحياناً تأخذ العينان لوناً زجاجياً، فيبدو وكأن النظر قد ارتد ليمارس فعاليته من الداخل؛ وعندما يأوي الأولاد إلى المهاجع بعد عدة ساعات من الصمت والعزلة، وقد ملأها الأفكار المريعة، قد تتجرأ ببيتا^(١) وتساله، «يا صديقي، هل ثمة ما يضايقك؟». أحياناً لا يجيب بلبتزار، وإن أجاب، يعود بارتعاشة إلى نفسه كمن استيقظ مذعوراً من نومه، ليقول بجفاف وبصوت أجش «كلا»، فتسقط هذه الكلمة ثقيلة على قلب امرأته الخافق باختلاج؛ وبالرغم من أنها أرادت أن تخفي عن أصدقائها الحالة الغريبة التي وصلت إليها، فإنها

(١) بيتا: Pepita : من الأسماء الأولى لجوزفين كلايس والمعروف أن العائلات النبيلة تعدّد أسماء بناتها وبناتها.

قد وجدت نفسها مضطرة للحدث عنها؛ ووفقاً لعادات المدن الصغيرة، فإن معظم الصالونات اتخذت من اختلال بلتزار موضوع أحاديثها، بل إن بعض الحلقات الاجتماعية تطرقت إلى تفاصيل عديدة تجهلها السيدة كلايس، وهكذا فبالرغم من الصمت الذي توجيهه المجاملة المهذبة، فإن بعض الأصدقاء أظهروا قلقاً بالغاً دفعها إلى سرعة تبرير تفردات زوجها مدّعية «أن السيد بلتزار قد انشغل بعمل كبير يستغرق كل تفكيره، لكن نجاحه فيه سيكون موضع فخر لعائلته ووطنه». هذا التفسير الغامض دأب كثيراً طموح مدينة يسود فيها حبّ الوطن، أكثر من أية مدينة أخرى، بحيث أحدث في النفوس ردّ فعل مقدّر للسيد كلايس، فافتراضات زوجته لم تكن، إلى حدّ ما، دون أساس، إذ أن عمالاً من مهن متعددة عملوا لمدة طويلة في عنبر القسم الأمامي من المنزل حيث أخذ يتردد عليه بلتزار منذ الصباح، وبعد أن كان يقضي فيه خلوات تتزايد أوقاتها طوياً، بحيث تعود عليها زوجها وأفراد المنزل تدريجياً؛ فإنه وصل إلى مرحلة تمرّ عليه فيها أيام كاملة وهو في خلوته هذه. لكن الألم غير المتوقع كان فيما علمته السيدة كلايس خلال المسارات المذلة من بعض صديقاتها المخلصات المندمشات من أنها تجهل مايقوم به زوجها من شراء متواصل لأجهزة فيزيائية، ومواد ثمينة، وكتب، وماكنات من باريس، وأنه سائر إلى الخراب، كما يقال، في سعيه إلى الوصول إلى حجر الفلاسفة؛ وأضافت الصديقات أن عليها أن تفكر بمستقبلها الخاص، وسيكون من الإجماع ألا تستخدم تأثيرها لتحويل زوجها عن الطريق الضال الذي تورط فيه.

إن كانت السيّد كلايس قد وجدت الجرأة الحازمة لتضع حدّاً لهذه الأقاويل غير المعقولة فقد تملكها الرعب رغم اطمئنانها الظاهر وقرّرت أن تتخلّى عن دورها في إنكار الذات. لقد تولّدت فيها إحدى هذه الحالات التي تشعر فيها المرأة أنها على قدم المساواة مع زوجها، فتخلت عن وجلها، وتجرّأت أن تطلب من بلتزار سبب هذا التغيّر ومبرّر خلوته المستمرة، لكن الفلمندي قطّب حاجبيه وأجابها: «ياعزيزتي، لن تفهمي شيئاً من ذلك».

أَلَحَّتْ جوزفين يوماً لتعرف هذا السرّ، معلّلة بلطف أن من تشاركه الحياة، يجب أن يشاركها في أفكاره، فأجابها بـلتزار وهو يجلسها على ركبتيه ويداعب شعرها الفاحم قائلاً: «بما أن هذا الأمر يشغل بالك كثيراً، فاعلمي أنني منصرف إلى الكيمياء، وانني بذلك أسعد رجل في العالم.»

بعد سنتين من الشتاء الذي غدا فيه السيد كلايس كيميائياً تغير وضع منزله، سواء لأن المجتمع قد افزعج من شرود العالم المستمر، أو ظنّ أنه يضايقه، أو لأن الهموم المكتومة قد جعلت السيّد كلايس أقلّ ظرفاً، فلم تعد ترى إلا أصدقاءه الخُصّ، أما بـلتزار فلم يعد يذهب إلى أي مكان، فهو منحبس في مخبره طيلة النهار، ويبقى فيه أحياناً خلال الليل، ولا يظهر بين أفراد عائلته إلا في موعد العشاء؛ وقد انقطع منذ السنة الثانية عن أن يقضي نهاية الربيع والصيف في منزله الريفي وأبت امرأته أن تؤمه من دونه.

كان بـلتزار أحياناً يخرج من منزله متنزهاً ولا يعود إلا في اليوم التالي، تاركاً السيدة كلايس خلال ليل بكامله نهياً لقلق مميت، بعد أن تكون قد أرسلت من يفتش عنه عبثاً في مدينة تغلق أبوابها مساءً وفقاً لعادات الأماكن المحصّنة، وعند ذاك لا يبقى للمرأة التعمّسة حتّى أمل الانتظار المشوب بالقلق وتستمر في ألمها الممضّ حتّى اليوم التالي عندما يصل بـلتزار الذي نسي في أمسّه موعد إغلاق الأبواب وهو هادئ دون أن يحسّ بما سببه شروده من عذابات في عائلته، حتّى أن سعادة رؤيته ثانية تخلق بالنسبة لامرأته أزمة بمثل ماتوقعته تخوّفاتها من مخاطر، فتصمّت ولا تجرؤ على سؤاله إذ أنه يجيبها لأوّل بادرة، وقد اعترته الدهشة: «إيه، ماذا جرى، ألا يمكن للمرء التّنزه؟». إن العواطف لا تعرف الخداع، وهموم السيّد كلايس تبرّر إذا الشائعات التي طاب لها سابقاً أن تكذّبها، وقد خبرت في شبابها الشفقة المهذّبة للمجتمع، بحيث لا تريد أن تتعرّض لها مرة أخرى، وحبست نفسها بدرجة أكبر بين جدران منزلها الذي هجره حتّى أصدقاؤها الآخرون الخُصّ، إن الفوضى في الملابس المحطّة دائماً من قدر إنسان من عليّة القوم، لم تكن لدى بـلتزار الأقلّ حساسية من جميع

أسباب الأحزان التي تؤلم تلك المرأة المتعوّدة على نظافة الفلمنديات الفائقة، وبالاتفاق مع لمولكيني وصيف زوجها، تداركت جوزفين لبعض الوقت التلف اليومي للثياب، لكن وجب عليها أن تتخلى عن ذلك، ففي ذات اليوم الذي كانت تعوّض فيه حوائج جديدة، دون علم بلتزار، بالحوائج المبقعة، أو الممزقة، أو المثقبة؛ تجعل تلك بدورها أسماً. فجأة وجدت هذه المرأة السعيدة خلال خمسة عشر عاماً، لم تتطرق فيها الغيرة إلى نفسها، أنها ليست في الظاهر شيئاً في القلب الذي كانت تحتله سابقاً؛ ودوت في نفسها عاطفة المرأة الاسبانية، وهي الاسبانية الأصل، عندما وجدت في العلم، منافساً ينتزع منها زوجها، ونهشت أنياب الغيرة قلبها، وغيّرت حبّها. لكن كيف يمكن التصرف ضد العلم؟ كيف يمكن مصارعة القدرة المستمرة، والطاغية، والمتزايدة؟ كيف يمكن القضاء على منافسة غير منظورة؟ كيف يمكن لامرأة ذات قدرة محدودة بطبيعتها أن تتصارع مع فكرة مباهجها لانهاية لها، ومقاتنها جديدة دوماً؟ ماذا يُحاول ضد غنج أفكار تنتعش وتنشق أكثر جمالاً في الصعوبات وتجذب رجلاً إلى مدى بعيد عن العالم بحيث ينسى حتى أعزّ مودّاته؟ أخيراً، وفي يوم أرادت السيدة بلتزار رغم أوامر زوجها الصارمة، ألا تتركه منفرداً على الأقل، وأن تحبس معه في هذا العنبر الذي يعتزل فيه، وأن تجابه وجهاً لوجه منافستها، بملازمتها لزوجها خلال الساعات الطويلة التي يسخو بها على هذه الخلية الرهيبة، وأرادت أن تنسلّ سراً إلى هذا المحترف الغامض في إغرائه، وتكتسب حقّ البقاء فيه دائماً؛ وجريّت إذا أن تتقاسم مع لمولكيني حق الدخول إلى المخبر، لكنها خشيت نزاعاً يحضره الوصيف، فانتظرت اليوم الذي يسمح له فيه زوجها بالغياب، وكانت تتحرى منذ مدة روّحات وجيئات هذا الخادم بنقاد صبر بغيض، ألا يعرف هذا الوصيف ما ترغب في معرفته، وما يخفيه زوجها عنها ولا تجسر أن تسأله عنه؟ لقد وجدت لمولكيني أكثر حظوة منها، هي الزوجة!

تقدمت إذا وجلة، شبه سعيدة، لكنها لأوّل مرة في حياتها عرفت شدة غضب بلتزار؛ إذ ماكادت تفتح الباب، حتى انقضّ عليها، وأمسك بها، وربما

بقسوة على السلم بحيث كادت تهوي متدحرجة من أعلاه إلى أسفله، لولم ينتشلها وهو يصرخ «حمداً لله، ماتزالين في الوجود!» وانكسر قناع من زجاج جطاماً حول السيدة كلايس، التي رأت زوجها شاحباً، ممتفعاً، مذموراً.
قال بعد أن جلس على درجة من السلم كرجل مقهور: «لقد حرمت عليك، عزيزتي أن تحضري إلى هنا، لقد وقاك القديسون من الموت، أية صدفه جعلت عينيّ موجّهتين نحو الباب؟ لولا ذلك لهلكنا.

- «كم كان يسعدني ذلك، عندئذ» قالت.

- لقد فشلت تجربتي، لا يمكن أن أغفر إلا لك الألم الذي سببته لي خيبة الأمل القاسية هذه، كدت على الأرجح أصل إلى تفكيك الأزوت^(١)، إذ هبى وعودي إلى مشاغلك، قال هذا ودخل يلتزار إلى مخبره، «كدت على الأرجح، أفكك الأزوت!» ردّت المرأة المسكينة وهي تعود إلى غرفتها حيث تقجّرت دموعها.
كانت هذه العبارة غامضة بالنسبة لها، فالرجال المتعودون بثقافتهم على تصوّر كلّ شيء لا يعرفون مدى معاناة المرأة من عجزها عن فهم فكرة من تحب؛ وهذه المخلوقات السماوية أكثر تسامحاً منا، فهن لا يقلن لنا متى تبقى لغة أرواحهن غير مفهومة، إذ أنهن يخشين إشعاراً بسمو عواطفهن، ويخفين عند ذاك ألامهن بالقدر ذاته من الغبطة التي يسكنن فيها مسرّاتهن المجهولة؛ لكنهن في الحب أكثر طموحاً منا، فهن يردن أن يقترن بما هو أكثر من قلب الرجل، إنهن يبيغن كل فكرة أيضاً. بالنسبة للسيدة كلايس. فإن عدم معرفة شيء من العلوم التي يهتم بها زوجها قد ولد في نفسها غيظاً أكثر عنفاً من ذلك الناتج عن جمال منافسة لها، فصراع امرأة مع امرأة يترك لتلك التي تحب أكثر ميزة أن تحبّ أفضل، لكن ذلك الغيظ كان يسجل عجزاً ويذلّ جميع العواطف التي تساعدنا على العيش. إنّ جوزفين لاتلمّ بالعلم! وجهلها يضعها في حالة تبعدها

(١) في العام ١٨١٥ راجت شائعات مفادها أن برزليوس في استوكهولم وداقي في لندن قد توصلا في أن معاً إلى تحليل الأزوت، ووجدوا أنه يتألف من ٤٥٪ من غاز لهوب و ٥٥٪ أوكسجين، وهذا ما ردّد صداه بلزك هنا، لكن التطورات العلمية أفادت أن لاصحة لذلك، وأن الأزوت غاز بسيط.

عن زوجها، عدا عن عذاب أخير هو الأكثر شدة، فهذا الزوج غالباً بين الحياة والموت، إنه معرض للخطر، بعيداً عنها وقريباً منها دون أن تتمكن من أن تشاركه مجازفته أو أن تتمكن من معرفتها، فكأنها في جحيم، في سجن معنئ لا منفذ منه، ولا أمل بالنجاة؛ وقد أرادت السيدة كلايس أن تتعرف على الأقل على جوانب هذا العلم، فأخذت تدرس سرّاً الكيمياء في الكتب؛ وهكذا أصبحت هذه العائلة وكأنها في دير حبيس.

هكذا كانت التغيرات المتتالية التي مرّ بها الشقاء الذي حلّ على بيت كلايس قبل أن يؤدي بهم إلى نوع من موت مدني أصاب العائلة في الفترة التي تبدأ بها هذه الرواية.

تعقّد هذا الوضع العنيف، فالسيدة كلايس كجميع النساء المشبوبات العاطفة تتميزّ بترقّع خارق؛ ومن يحبّ بصدق يعرف أن لاقينة المال تجاه العواطف ويعرف بأية صعوبة يجمع، غير أن جوزفين لم تتمكن أن تتقبل إلا بانفعال قاس خبراً وصلها بأن زوجها مدين بمبلغ ثلاثمئة فرنك لقاء رهن عقاراته، لكن صحة العقود أكّدت الشكوك والإشاعات وتخمينات أهل المدينة، وما أن أنذرت السيدة كلايس حتى اضطرت، رغم إبائها، أن تسأل موثق عقود زوجها وأن تكشف له أسرار آلامها أو تدعه يخبئها، وأن تسمع أخيراً هذا السؤال المذلّ:

«كيف ألم يخبرك السيد كلايس حتى الآن بذلك؟» لحسن الحظ كان موثق عقود كلايس قريباً له، وهذه القرابة ناتجة عن أن جدّ كلايس قد تزوج فتاة من عائلة بييركين آنقر وهي ذات عائلة بييركين دواي؛ ومنذ هذا الزواج فإن هؤلاء، بالرغم من أنهم غرباء عن آل كلايس يعاملونهم كأولاد عمومة؛ والسيد بييركين، وهو شاب في السادسة والعشرين من العمر حل محل أبيه في وظيفته. كان الشخص الوحيد الذي يستقبل في منزل كلايس. ولما كانت السيدة كلايس تعيش منذ عدة شهور في عزلة تامة، اضطّر الموثق أن يؤكد لها خبر الكارثة المالية التي أصبحت معروفة في المدينة، وقال إن زوجها مدين على الأرجح

بمبالغ معتبرة للبيت التجاري الذي يؤمن له المواد الأولية الكيميائية؛ إذ أنه بعد أن تحرّى عن ثروة ومقام السيد كلايس، أخذ يتقبّل طلباته ويؤمن له إرسالها، دون قلق، رغم كِبَرِ اعتماداتها. كلّفت السيدة كلايس ببيركين أن يطلب كشفاً بالطلبات المرسلّة لزوجها؛ وبعد شهرين من ذلك أرسل السيدين بروتز وشيفرثيل حساباً نهائياً مقداره مئة ألف فرنك وقد درس السيد ببيركين والسيدة كلايس هذه الفاتورة بدهشة متزايدة؛ وإذا كانت كثير من المفردات المعبّر عنها علمياً أو تجارياً مُبهِمة بالنسبة لهما فإنهما قد ذعرا لورود كميات من المعادن والجواهر من جميع الأصناف، لكن بكميات صغيرة جداً؛ وكان من السهل تفسير مبلغ الديون بتعدد المواد المطلوبة، والاحتياجات التي يجب اتخاذها لنقل بعضها، أو لإرسال بعض الأجهزة الثمينة، أو لارتفاع سعر بعض المنتجات التي لا يمكن الحصول عليها إلا بصعوبة أو أن ندرتها تجعلها غالية الثمن، وأخيراً لارتفاع كلفة بعض الأنواع الفيزيائية أو الكيميائية المصنّعة خصيصاً وفق تعليمات السيد كلايس. قام موثق العقود، حرصاً منه على مصلحة قريبه، بالاستعلام عن بروتز وشيفرثيل وقد طمأنته نزاهة هذين التاجرّين عن صحة العمليات التجارية الجارية مع السيد كلايس، عدا عن أنهما كانا غالباً ما يطلعانه على النتائج التي حصل عليها كيميائيو باريس لتجنيبه بعض النفقات.

رَحِبَتِ السيدة كلايس أن يكتّم عن مجتمع دوي طبيعة هذه المقتنيات التي يمكن أن تنسب إلى الجنون، لكن ببيركين أجابها بأنّه قد أخّر حرصاً منه على عدم النيل من التقدير الذي يحظى به كلايس، للالتزامات العقدية التي تتطلبها أهمية المبالغ المقدّمة من الدائنين على أساس الثقة، وكشف عن فداحة الجرح، معلناً لقريبته بأنّها إن لم تتدارك وسيلة لمنع زوجها من انفاق ثروته بمثل هذا الجنون، فإنّ أملاك العائلة ستغدو خلال ستة أشهر مرهونة على مبالغ تفوق قيمتها؛ وأضاف أن ملاحظاته هذه التي سبق أن أبدّاها لكلايس قريبه، مع التحفظ الواجب اتخاذها أمام رجل في مقامه، لم تؤدّ إلى أيّة نتيجة، إذ أن بلتزار

أجابه جازماً بأنه يعمل لفخار وغنى عائلته؛ وهكذا فقد انضمت إلى هموم القلب التي تحملتها السيِّدة كلايس خلال سنتين، وكان كل منها يُضاف إلى الآخر ويزيد ألم اللحظة الحاضرة عن الآلام التي سبقتها، انضمت خشية مرعية ومستمرة جعلت المستقبل أمامها رهيباً. إن للنساء هواجس تعتبر صحتها من قبيل الخوارق. لماذا يرتعشن بشكل عام، أكثر مما يؤمّن عندما يتعلق الأمر بمصالح الحياة؟ لماذا لا يؤمن إلا بأفكار المستقبل الديني الكبيرة؟ لماذا يخمن بمهارة قصوى النكبات المالية أو أزمات مقاديرنا؟

ربّما تجعلهن العاطفة التي توحدن مع الرجل الذي يحبن أكثر قدرة على وزن القوى، وتقدير الإمكانيات، ومعرفة الأنواق، والأهواء، والرذائل، والفضائل. إن الدراسة المستمرة لهذه الأسباب التي يجدن أنفسهن أمامها دون انقطاع، تعطيهن بلا شك القدرة الحاسمة على توقع نتائجها في جميع الحالات الممكنة؛ وما يرينه في الحاضر يجعلهن يحكمن على المستقبل بمهارة تفسّر طبيعياً بكمال جهازهن العصبي الذي يتيح لهن التقاط أدقّ تشخيصات الفكر والعواطف، فكل شيء يهتز متناغماً مع الصدمات المعنوية الكبرى، فهن يشعرن أو يرين.

أحسّت السيِّدة كلايس، بالرغم من انعزالها عن زوجها منذ سنتين، بضياع ثروتها. لقد قدّرت الحماس الواعي والمثابرة الثابتة في بلتزار؛ فإن كان صحيحاً أنّه يفتش عن الذهب، فيجب أن يلقّم ببرودة تامة بوقتته آخر قطعة خبز لديه. لكن عمّا يفتش؟

كانت عاطفة الأمومة والحبّ الزوجي حتى الآن مختلطين في قلب تلك المرأة، بحيث أن أولادها المحبوبين منها ومن زوجها لم يقفوا أبداً حائلاً بينهما. لكنها فجأة أخذت تحسّ أحياناً بأنها أمّ أكثر منها زوجة، بينما كانت سابقاً زوجة أكثر منها أمّاً على الأغلب. بيد أنّها مهما كانت مستعدة لتضحّي بثروتها وحتى بأولادها من أجل سعادة من اختارته، وأحبته وعبدته، وهي ماتزال المرأة الوحيدة التي له في العالم، لكن تأنيب الضمير الذي سبّبه لها ضعف حبّها

الأمومي قد رمى بها بين خيارات رهيبة؛ فهي كامراًة تتألم في قلبها، وكأماً تتألم في أطفالها، وكمسيحية تتألم لأجل الجميع. إنَّها تصمت وتحتوي هذه العواصف القاسية في روحها؛ فزوجها وهو الحكم الوحيد على مصير عائلته، هو السيّد في تنظيّم القدر الذي يرثيها لها، وليس مسؤولاً في ذلك إلا أمام الله. من جهة أخرى، هل يمكنها أن تلومه على استخدام ثروته بعد الترقّع الذي أبداه خلال عشر سنوات من الزواج؟ وهل هي حكم على نواياه؟ لكن وجدانها المنسجم مع العاطفة والقوانين كان يقول لها: «إنّ الأهل مؤتمنون على الثروة وليس لهم الحق أن يستلبوا سعادة أبنائهم الماديّة.

لقد فضلت، كي لا تحلّ هذه القضايا العصيّة، أن تغلق عينيها، على عادة الأشخاص الذين يرفضون رؤية الهوّة التي يعرفون أنهم يكادون ينحدرون إليها. منذ ستة أشهر لم يقدّم لها زوجها المال اللازم للإنفاق على المنزل، فأرسلت من يبيع سرّاً في باريس حلّي الألباس الثمينة التي أهداها إليها أخواها يوم زواجها، واتبعت سياسة التقتير الشديد في إدارة المنزل، فصرقت مربية الأولاد، وحتى مرضعة جان.

كان ترف العريّات، في السابق، غير سائد لدى الطبقة البورجوازية المتواضعة في تقاليدها، والفخور بعواطفها في أن معاً، لذلك لم يكن في منزل كلايس مكان مهياً لهذا الابتكار الحديث، وقد اضطرّ بلبّاز لإقامة اسطبله ومرأب عرباته في منزل مقابل لمنزله، وقد شغلته اهتماماته عن الإشراف على هذا القسم من الشؤون البيّتيّة التي تتعلّق بشكل رئيس بالرجال، اذّك حذفت السيدة كلايس النفقة الكبيرة لهذه التجهيزات والعاملين بها الذين جعلتهم عزلة العائلة بدون فائدة لها، وبإلرغم من صلاح هذه الأسباب فإنّها لم تجرّب أبداً أن تجد لها الذرائع، إذ أن الوقائع حتى الوقت الحاضر، كانت تكذبّ كلماتها، فالصمت من الآن فصاعداً هو الأكثر ملائمة، فتغيّر أسلوب العيش لدى آل كلايس يصعب تبريره في بلاد كهولندة يعتبر من ينفق فيها كامل دخله مجنوناً. لكن جوزفين، وقد قاربت ابنتها البكر مرغريت على بلوغ ربيعها السادس عشر،

أرادت أن تقوم بترتيبات تهية للعائلة مصاهرة لائقة وأن تظهر ابنتها في المجتمع بما يناسب فتاة تنتمي إلى آل مولينا، وفون أوستروم - تمنيك، وكازا - ريال. أنما دراهم مبيع حلي الألباس كانت قد نفدت قبل أيام من إجراء هذه الترتيبات، وفي هذا اليوم، التقت السيدة كلايس عند الساعة الثالثة، وهي ترافق أولادها إلى صلاة العصر بالسيد بييركين الذي كان متوجهاً لرؤيتها فرافقها حتى كنيسة القديس بطرس وهما يتحدثان بصوت منخفض عن وضعها المالي. قال: «يا ابنة العم، يجب دون إساءة تقدير للصدقة التي تربطني بعائلتكم ألا أخفي عنك الوضع الحرج الذي أنتم فيه، وأن تبخثيه بجديّة مع زوجك. من يتمكن غيرك أن يوقفه عن السقوط في الهاوية وأنتم الآن على جفعتها. إن مداخيل الأملاك المرهونة لا تكفي أبداً لدفع فوائد المبالغ المقرضة، قد يكون المخرج الوحيد المتبقي لكم لانقاذكم من الوضع الحرج في المستقبل، بعد أن أصبحتم بدون أي دخل، في قطع أخشاب الغابة التي تملكونها. إن ابن العم بليزار مدين حالياً بمبلغ ثلاثين ألف فرنك لمتجر بروتز وشيفرغيل في باريس، فمن أين ستدفعونها؟ وكيف ستعيشون؟

وما هو مصيركم إذا استمر كلايس في طلب المدفوعات، والزجاجيات، وأبيال قوطا، وأمثال هذه الترهات. إن جميع ثروتكم، باستثناء المنزل والأثاث قد تشتتت بين الغاز والفحم، لقد وصل الوضع قبل البارحة إلى رهن المنزل. هل تعلمين جواب كلايس عند ذلك؟ لقد بدرت منه لأول مرة منذ ثلاثة سنوات أول بادرة تعقل عندما هتف مستكراً «يا للشيطان!»

ضغطت السيدة كلايس بآلم على ذراع بييركين، ورفعت عينيها إلى السماء وقالت: «لنحتفظ بسرّ هذا الوضع».

لم تتمكن المرأة المسكينة، رغم إيمانها، وقد هدتها هذه الكلمات بوضوحها الصاعق، أن تتبع صلاتها المعتادة فبقيت على كرسيها بين أولادها، وقد فتحت سواعيتها^(١) دون أن تقلب صفحة منها. لقد راحت في تأمل شاغل

(١) سواعيه: هو كتاب الطقوس الدينية المتبع في الصلاة لدى المسيحيين ويسمى أيضاً «الاورلوجيون»

ممائل لما يستغرق فيه زوجها من أفكار؛ فالشرف الاسباني والاستقامة الفلمندية أخذًا يرنان في أعماقها بأصوات أقوى من نغمات أرغن الكنيسة، ومسببات دمار أبنائها متجلية ويجب عدم التردد بين مستقبلهم وكرامة والدهم. صراع مرتقب بينها وبين زوجها أرعبتها ضرورته، فقد كان في عينيها على قدر من الكبر والمهابة بحيث أن منظور غضبه وحده يهز مشاعرهما كأنه مستمد من العزة الالهية. عليها إذاً أن تتخلص من هذا الخضوع المستمر الذي انقادت إليه كزوجة بشعور قدسي، فمصلحة أولادها تلزمها على أن تعاكس أهواء الرجل الذي تهيم به. ألا يجب إعادته إلى القضايا الواقعية عندما يحلق عالياً في آفاق العلم، ألا يجب أن يوقظ بشدة من تخیلات مستقبل زاهر ليغوص في مادية الحاضر في أقبح مآظفهر به في نظر الفنانين وعظماء الرجال. إن بلتزار كلايس في نظرها نابغة في العلم ورجل مهياً للأمجاد، ولا يمكن أن يكون قد نسيها إلا سعيًا وراء آمال عريضة، ومن ثم فهو عميق الرشد، وقد سمعته يتكلم بموهبة رائعة في قضايا متنوعة، بحيث يجب الاقتناع بأنه مدرك برصانة لقوله أنه يعمل لمجد وثروة عائلته

إن حب هذا الرجل لزوجته وأطفاله ليس واسعاً فقط، إنما لا حدود له؛ وهذه العواطف لا يمكن أن تزول، بل انها دون شك قد كبرت إنما متغيرة إلى شكل آخر؛ وهي على نبلها، وشهامتها، ووجلها، ستذهب لتردد دون انقطاع. في أدني هذا الرجل الكبير كلمة المال، وصوت المال وتظهر له جروح الشقاء وتسمعه أصوات الشؤم، بينما هو متصرف لسماع نغمات الشهرة الشجية.

أ تكون المحبة التي يكنّها بلتزار لها قد نقصت؟ لو لم يكن لديها أولاد لتقبلت بشجاعة وسعادة المصير الجديد الذي أوصلها زوجها إليه؛ فالنساء اللواتي تربين في الرخاء يشعرون بسرعة بالفراغ الذي تملؤه المباهج المادية وعندما يهتدي فيهن القلب، الأكثر تعباً منه ذبولاً، إلى سعادة يمنحها عوض ثابت في العواطف الحقيقية، فإنهن لا يتراجعن أبداً أمام ظروف عيش هزيل إذا كانت تناسب الشخص الذي يعرفن أنه يكنّ لهن الحب؛ فافكارهن ومسراتهن

يرضخن لنزوات تلك الحياة الخارجة عن حياتهن؛ فالمستقبل المرعب بالنسبة لهن هو خسارة تلك الحياة. في هذه الفترة إذًا، فإن أولاد بيتا يبعدون عن حياتها الحقيقية كما يبعد العلم بـلنزار كلايس عنها؛ وهكذا عندما عادت من صلاة العصر، وارتمت على أريكتها، صرفت أولادها عنها طالبة منهم المحافظة على الهدوء التام، ثم أرسلت تستدعي زوجها لرؤيتها، وبالرغم من أن لمولكينية الوصيف العجوز قد ألح عليه محاولاً إخراجها من خبره، فإن بلنزار بقي فيه؛ وبذلك تسنى للسيدة كلايس الوقت للتفكير، فبقيت بدورها شاردة دون أن تنتبه للساعة أو لمرور الزمن أو انقضاء النهار؛ ففكرة استحقاق ثلاثين ألف فرنك، وعدم القدرة على تسديدها، قد أيقظت ألامها الماضية وضمتها إلى آلام الحاضر والمستقبل. هذه الكتلة من المصالح، والأفكار، والأحاسيس هبطت عليها وهي ضعيفة جداً، فانخرطت في البكاء.

عندما رأت بلنزار يدخل، بدت لها سحنته أكثر رهبة، وأكثر استغراقاً، وأكثر شروداً من أي وقت مضى، وعندما لم يتوجّه إليها بكلمة بقيت في البدء مسحورة بجمود هذه النظرة البيضاء الفارغة، وبجميع الأفكار المضنية التي تقطرها جبهته العريضة. لقد تمتّ الموت تحت تأثير هذا الشعور وعندما سمعت هذا الصوت اللامبالي يعبر عن رغبة علمية في اللحظة التي يكاد فيها قلبها ينقطر، استردت شجاعته وصممت أن تصارع هذه القوة المروعة التي أغوت لها حبيباً، واختطفت من أولادها أباً، وضيّعت على البيت ثروة، وحرمت الجميع من السعادة؛ غير أنها لم تستطع كبح الاضطراب المستمر الذي يهزّ كيائها، إذ أنها لم تصادف، في حياتها، مثل هذا الموقف الصارم، ألا تحتوي هذه اللحظة الرهيبة ضمناً على مستقبلها؟ ألا يختصر بها الماضي بكامله.

إن الأفراد الضعفاء، أو الأشخاص الخجولين، أو أولئك الذين تزيد حيوية حساسياتهم من أتفه صعوبات الحياة، الناس الذين تنتابهم رعشة لا إرادية أمام من يتحكمون بمصائرهم، هؤلاء جميعاً يمكنهم الآن أن يتصوروا آلاف الأفكار التي تدور في رأس تلك المرأة، والعواطف التي رزح قلبها تحت وطأتها،

عندما رأت زوجها يتوجّه بهدوء نحو باب الحديقة. إن معظم النساء يعرفن القلق الذي تتخبط فيه السيدة كلايس في مداولتها الباطنة، حتى اللواتي لم يخفق قلبهن بشدة إلا ليعلن لأزواجهن بعض اسراف في النفقات أو بعض ديون عليهن لبائعات الأزياء يدركن كم يجب أن يشتد وجيب القلب عندما يكون الموضوع متعلقاً بالحياة ككل. إن للمرأة الجميلة جاذبية وهي تلقي بنفسها على قدمي زوجها، وهي تجد في أوضاع الألم وسائل فعالة، بينما شعور السيدة كلايس بعيوبها الجسمية يزيد من مخاوفها، وهكذا فعندما رأت بلتزار مزعماً على الخروج كان رد فعلها الأول أن تندفع نحوه، لكن فكرة قاسية كبحت اندفاعها، فعمزت على أن تقف منتصبة أمامه! إذ يجب ألا تبدو مثيرة للسخرية أمام رجل، لم تعد تستميله إغراءات الحب، وعليه أن يرى الأمر بشكله الصحيح، إن جوزفين تفضل أن تخسر كل شيء الثروة، والأولاد، ولاينال الوهن قوة المرأة فيها، وأرادت أن تبعد كل ظرف سيء في هذه الساعة الحاسمة، ونادته بصوت قوي: «بلتزار؟».

التفت بلتزار بحركة آلية وسعل، ودون أن يعير امرأته التفاته، ذهب ييصق في إحدى هذه العلب الصغيرة المربعة الموضوعة بين مسافة وأخرى من الخشب المغطى للجدران، كما هو الأمر في جميع بيوت هولاندة وبلجيكة. إن هذا الرجل، الذي لم يعد يفكر بإنسان، لم ينس أبداً المياصق لشدة تمكّن هذا التقليد، أما جوزفين المسكينة فكانت غير قادرة على أن تأخذ بالاعتبار هذه التوافة، والاهتمام الزائد الذي كان يبيده زوجها بالأثاث سبب لها قلقاً لا يحتمل، لكنه في هذه اللحظة كان من العنف بحيث خرجت عن طورها، فصرخت في وجهه بلهجة مليئة بتفان الصبر تتجلى فيها كل عواطفها المجروحة: «استمع أيها السيد إنني أكلّمك!» -

- ماذا يعني هذا؟! أجاب بلتزار وهو يلتفت بشدة ويوجه إلى امرأته نظرة تجددت فيها الحياة ويدت لها وكأنها وقوع صاعقة.

- «عذراً يا صديقي» قالت وقد شحِبَ لونُها، وأرادت النهوض ومدّت له يدها لكنها سقطت متهاككة وقالت بصوت متهدّج تخنقه العبرات «أكاد أموت!».

في تلك اللحظة، انتاب بلتزار، كجميع شاردي الذهن، ردّ فعل عنيف، وخمن إن صحَّ التعبير سرّ هذه الأزمة، واحتضن سريعاُ السيدة كلايس بين ذراعيه، وفتح الباب المطلّ على المدخل الصغير واجتاز بسرعة سلّم الخشب القديم بحيث علق ثوب زوجته بشدق تمثال وحش تاراسكوني من التماثيل المشكّلة للدرابزين فبقي منه عليه شريط طويل تمرّق محدثاً جلبة كبيرة، وفتح بركلة من قدمه باب الرواق المفضي إلى جناحيهما لكنه وجد غرفة زوجته مغلقة.

وضع بهدوء جوزفين على مقعد طويل وهو يتساءل: «يا الهي أين المفتاح؟»

- شكراً يا صديقي، هذه هي المرّة الأولى منذ زمن طويل، التي أشعر فيها أنني جدّ قريبة من قلبك» قالت السيدة كلايس وهي تفتح عينيها.

- بحقّ الإله! أين المفتاح؟ هوذا خدمنا آتون، صرخ كلايس.

أشارت له جوزفين بأن يأخذ المفتاح المعلق بشريطة مدلاة في جيبها. بعد أن فتح بلتزار باب الغرفة وضع امرأته على أريكة عريضة فيها وخرج ليمنع الخدم المذعورين من الصعود، معطياً الأمر بأن يجهّزوا مائدة العشاء بسرعة، ثم عاد متعجلاً لقرب زوجته.

«مالك، يا حياتي العزيزة؟» قال وهو يجلس قريبها ويأخذ يدها مقبلاً.

- لاشيء أبداً الآن، فأننا لم أعد أتألم، إنما أود لو يمنحني الإله القدرة على أن أضع أمام قدميك كل ذهب الأرض.

- «ولماذا الذهب؟» سألها وهو يضمّها إليه ويقبل من جديد جبينها ثم استأنف قائلاً: «ألا تعطيني أكبر الثروات بهذا الحبّ الذي تمنحينه لي أيتها المخلوقة العزيزة الغالية»

- آه، يا بلتزاري، لماذا لا تبعد القلق عن حياتنا جميعاً، كما تبعد الآن بصوتك الحزن عن قلبي. أخيراً، أنا أرى، هاقد عدت كما أنت.

- عن أي قلق تتحدثين يا عزيزتي.

- لكن، لقد حلّ بنا الافلاس، يا صديقي!

- «الإفلاس» ردّد، وهو يضحك. ثم أخذ يد زوجته بين يديه. وقال بصوت عذب لم يُسمع منه منذ مدة طويلة: «لكن غداً، يا ملاكي، ستكون ثروتنا على الأرجح بدون حدود. فالبارحة وأنا أبحث عن أسرار في غاية الأهمية، أعتقد أنني توصلت إلى طريقة لبلورة الكربون، العنصر المؤدّي إلى الإلماس... أه يا زوجتي العزيزة! ... خلال بضعة أيام ستغفرين لي ذهولي. يبدو لي أنني أشرد أحياناً، ألم أكن فظلاً معك منذ لحظة؟ كوني متسامحة مع رجل لم ينقطع عن التفكير بك، وجميع أعماله مليئة بك، بنا

- كفى، كفى، سنتحدث عن كل ذلك هذا المساء، يا صديقي، لقد كنت أعاني من فرط الألم، وأنا أعاني الآن من فرط السعادة».

لم تكن تنتظر أن ترى مجدداً هذا الوجه وقد أشرق بعاطفة مليئة بالحنان الذي عرفته فيه سابقاً، ويسماع هذا الصوت الذي ما يزال على عذوبته السابقة، وأن تستعيد مجدداً كلّ الذي خيل إليها أنّها فقدته.

«هذا المساء، كم أُرغب أن نتسامر، فإن استغرقت في بعض تأملات، أرجو أن تذكريني بهذا الوعد. أريد هذا المساء أن أتخلّى عن حساباتي، وأعمالي، وأغرق في مباحث العائلة، وفي شهوات القلب، إذ أنني بحاجة لها يا بيتي، ومتعطش لتجديدها.

- ستقول لي عمّا تبحث يا بلتزار؟

- لكنك يا طفلي المسكينة لن تفهمي شيئاً من ذلك

- أتظن؟ أيه يا صديقي، هوذا قد مضت أربعة أشهر وأنا أدرس الكيمياء لأتمكن من التداول معك. لقد قرأت فوركروا، ولافوازيه، وشابتيال، ونوله، ورويل، وبرتوله، وغى لوساك، وسبالانزاني، ولوفنهوك، وغالفاني، وفولطا، أخيراً جميع الكتب المتعلقة بالعلوم التي تعبدها، هيا، يمكنك أن تصارحني بأسرارك.

- «أوه! إنك ملاك، سنتفاهم على كل شيء» هتف بلزاك وهو يسند رأسه إلى ركبتي زوجته ويذرف دموع الحنان التي جعلتها ترتعش انفعالاً وتقول: «أه

إنني أرمي بنفسي في النار التي تؤجج جحيم أفرانك لأسمع هذه الكلمة ولأراك هذه الرؤية».

عند سماعها وقع خطوات ابنتها في الرواق انطلقت إليها بحيوية متسائلة: «ماذا تريدين يا مرغريت؟».

- أمي العزيزة، لقد وصل السيد بييركين، فإن كان سيبقى على العشاء، فيجب وضع غطاء على المائدة، وقد نسيت أن تعدي ذلك هذا الصباح، أخرجت السيدة كلايس من جيبها مجموعة مفاتيح صغيرة أعطتها لابنتها مشيرة إلى الخزائن المصنوعة من خشب الجوز والمصفوفة قرب جدار الرواق قائلة لها: «خذي عن يمين الخزانة أحد أغطية غراندروج^(١)، يا ابنتي» ثم عادت السيدة كلايس إلى زوجها وقد ارتسمت على محياها بسمّة تعبير ساخر عذبة وقالت «بما أن عزيزي يلتزار قد عاد إليّ هذا اليوم فأعطني إياه كاملاً» - يا صديقي اذهب إلى جناحك وتلطف بتغيير ثيابك، فلدينا بييركين على العشاء، هيّا تخلّ عن هذه الثياب الممزقة، انظر ألا ترى هذه البقع؟ أليس ما يحيط بهذه الثقوب من اصفرار ناتجاً عن الحمض المورياتي^(٢) أو عن حمض الكبريت. أرايـ بـلتـزار أن يمرّ إلى غرفته عبر الباب المشترك بينها وبين غرفة زوجته لكنه وجده مقفلاً وفاته أنه قد أجرى هذا الإقفال بنفسه ومن جهة غرفته، فخرج عبر الرواق.

نادت السيدة كلايس ابنتها قائلة: «مرغريت، ضعي الغطاء على هذا المقعد، وتعال لي لتساعديني في ارتداء ثيابي، فأنا لا أريد أن استدعي مارتا الآن» كان يلتزار قد التقى بابنته، وضمّها إليه بحركة فرحة وهو يقول لها: «ليكن يومك سعيداً يا ابنتي، كم انت جميلة في هذا الثوب من الموسلين وهذا الزنار الوردي» ثم قبلها على جبينها وشدّ على يدها .
هرعت الابنة إلى أمها قائلة: «ماما، لقد قبلني أبي، وهو يبدو شديد الغبطة، في كامل السعادة».

(١) غراندروج: أحد أنواع الأقمشة المقلّدة «للدمشقية» التي كانت تصنع في الفلاندر وبيكارديّة على اسم صانعها غراندروج.
(١) الاسم القديم لحمض الكلور.

- يا ابنتي، إن والدك رجل عظيم، هاقد مضت ثلاث سنوات وهو يعمل
لمجد هذه العائلة وثروتها، ويبدو أنه قد توصل إلى نتائج محققة لأهداف أبحاثه.
فهذا اليوم بالنسبة لنا جميعاً يوم عيد سعيد.

- كان جميع الخدم مكتئبين لرؤيته في عبوس دائم، يا أمي العزيزة،
والغبطة تشمل الجميع الآن، فهياً ضعي إذا زئاراً آخر غير هذا الحائل اللون.

- ليكن، لكن لنسرع، فأنا أريد التحدث مع ببيركين، فأين هو؟

- إنه في غرفة الجلوس يداعب جان.

- وأين غبرييل وفليسيا؟

- إنني اسمع جلبتهما في الحديقة.

- حسن، اسرعي بالنزول وحذريهما من قطاف الخزامى، فوالدك لم
يشاهد إزهارها هذه السنة حتى الآن، وقد يرغب بمشاهدتها هذا المساء بعد
الانتهاء من العشاء، اطلبي من مولكينييه أن يوافي والدك بكل ما يحتاج إليه
لتغيير هندامه.

بعد أن خرجت مرغريت، ألقت السيدة كلايس نظرة على ولديها من نوافذ
الغرفة المطلّة على الحديقة، ورأتها مشغولين بالنظر إلى إحدى هذه الحشرات
ذات الأجنحة الخضراء اللماعة والمبقعة التي تسمى بالعاتية «الخياطات»^(١)
«كونوا عاقلين يا أحبابي» قالت وهي ترفع الزجاج ذا الزلاقة الذي تركته مفتوحاً
لتهوية غرفتها؛ ثم قرعت بلطف على الباب الواصل مع غرفة زوجها لتتأكد بأنه
لم يغب في إحدى لحظات شروده، وقالت له بعد أن لاحظت أنه نصف عار: «لن
تتركني طويلاً لوحدتي مع ببيركين أليس كذلك؟ ستلحق بي بسرعة» هبطت الدرج
بمنتهى الرشاقة، بحيث أن الغريب الذي يسمع خطواتها لا يتبين أنها عرجاء.

قال الوصيف الذي صادفها على الدرج: «لقد انشقت ثوب سيدتي عندما
حملها سيدي على الدرج، وهو طرف قماش يسهل تعويضه، لكنه كسر فكّ هذا
التمثال، ولا أعرف من يمكنه إصلاحه، لقد تشوّه منظر الدرج، فهذا الدرايزين
كان جميلاً جداً».

(١) حشرات من مغمدات الأجنحة تسمى أيضاً السرطانيات.

- «باه! يامولكيني المسكين، دعه ولا ترتقه، فليس للأمر أهمية»
- «ماذا حدث إذا، حتى لايعتبر الأمر كارثة؟ هل توصل معلمي إلى
الكشف عن المطلق؟» قال مولكيني في نفسه.
- «طابت أوقاتك، ياسيد بييركين» قالت السيدة كلايس وهي تفتح باب
غرفة الجلوس.

هرع موثق العقود عارضاً ذراعه لئلتأبطه قريبته، لكنها لم تكن تقوم بهذه
البادرة إلا مع زوجها، لذلك شكرت قريبها بابتسامة وقالت له: هل أتيت من أجل
الثلاثين ألف فرنك؟».

- نعم ياسيدتي، فقد وجدت عند وصولي إلى منزلي رسالة اخطار من
متجر بروتز وشيفرثيل تفيدني بحسم ستة سندات على السيد كلايس كل منها
بقيمة خمسة آلاف فرنك»

- «حسن، لا تتحدث بهذا الموضوع اليوم إلى بلتزار، وتعيش معنا، وإن
سألك عن سبب حضورك صدفة، فجد تعليلاً مناسباً، أرجوك، أعطني هذه
الرسالة، فسأنبئه بأمرها أنا بنفسني. كل شيء على مايرام، وخلال بضعة أشهر
سيسدّد زوجي على الأرجح، جميع ما اقترضه». قالت هذا وهي تلحظ دهشة
الموثق.

كان الموثق، وهو يستمع إلى العبارة الأخيرة المقولة بصوت منخفض،
مشغولاً بالنظر إلى الأنسة كلايس العائدة من الحديقة وقد تبعها غبريل
وفليسيا وقال: «لم يسبق لي أن رأيت الأنسة مرغريت بمثل جمالها في هذه
اللحظة».

كانت السيّدّة كلايس قد جلست على مقعد عريض ووضعت صغيرها
جان على ركبتيها، فرفعت رأسها لترmq ابنتها والموثق بنظرة لامبالية.

كان بييركين متوسط القامة معتدل الجسم، على وجهه مسحة ملاحظة
عادية تعبر عن كدر أكثر مما تعبر عن كآبة، وعن أحلام يقظة غير محدّدة أكثر
منها متأمّلة؛ إنه يبدو انساناً غير اجتماعي، لكنه نفعي مفرط في النفعية، وأكول

شره بحيث لا يستطيع قطيعة المجتمع. نظرته التائهة في فراغ، ومظهره اللامبالي، وصمته المتصنّع قد تضيف عليه عمقاً ظاهرياً لكنها تصجب في الحقيقة خواءً وعدم كفاءة لموثق يهتم حصراً بمصالح الناس، لكنه ما يزال شاباً ليطاله الحسد، وكان يمكن لولائه إلى آل كلايس أن يدفعه إلى تفان لا حدود له، لولا طبيعة الخجل الكامنة فيه، يتظاهر بالشهامة لكنه ينظر بعين المصلحة، وهكذا دون أن يبرّر لنفسه تغيير طرائقه، كانت اهتماماته جازمة وقاسية، وفظة، كما هي بصورة عامة اهتمامات رجال الأعمال، عندما بدا له أن كلايس على شفا الإفلاس؛ ثم غدت ودوداً، ودمثة، وشبه ذليلة، عندما توقّع نتائج سارّة لأعمال قريبه. كان يرى أحياناً في مرغريت كلايس طفلة من غير الممكن أن يحلم بها موثق عقود إقليمى بسيط، وأحياناً يعتبرها فتاة مسكينة شدّ ما يسعدها أن يتنازل ويجعل منها زوجة له، إنه رجل إقليم، وفلمندي بدون خبث، بل إنه لا يخلو من الوفاء والطيبة لكن فيه أنانية ساذجة تجعل ميزات ناقصة، وتوافه تفسد شخصيته في هذه اللحظة تذكرت السيدة كلايس اللهجة الأمرة التي كلّمها بها الموثّق تحت رواق كنيسة سان بيير، ولاحظت التغيّر الذي أحدثه جوابها على أسلوبه وخمّنت ما يدور في خاطره، وب نظرة ثاقبة جرّبت أن تستشف ما في خلد ابنتها، وما إن كانت تفكر بهذا القريب، لكنها لم تلاحظ لديها إلا لامبالاة كاملة. وبعد فترة من الوقت دار فيها الحديث حول ما يسري في المدينة من شائعات، نزل صاحب الدار من غرفته التي كانت امرأته تستمع منها بسرور لاتدري كنهه طقطقة جزمته على الأرضية الخشبية. كانت مشيته المماثلة لمشية رجل شاب خفيف الحركة تنبئ عن تحول كامل، وكان انتظار ظهوره يثير لدى السيدة كلايس اضطراباً لم تستطع خلاله أن تتحكم برعشة انتابتها عندما نزل الدرج، وظهر ملتزار عند ذاك وقد ارتدى بزّة حديثة الطراز، وانتعل جزمة ذات ثنية ملمّعة جيّدة وبرز من أعلاها طرفا جوربين من حرير أبيض، أما سرواله فكان من كزيمير أزرق ناعم وقد زيّن بأزرار ذهبية، والصدر أبيض نوأزهان، والسترة زرقاء، وقد كوّر لحيته، ومشطّ شعره، وعطّر رأسه، وقصّ أظافره،

وغسل يديه بعناية بحيث ظهر متغيراً كلياً لمن رآه سابقاً، فبدلاً من ذلك العجوز شبه المختل رأى فيه الآن زوجته وأولاده وموثق العقود رجلاً في الأربعين من العمر، ذو وجه بشوش، طري، ملؤه الإغراء؛ حتى أن التعب ومظاهر الشقاء التي يفضحها ضعف قسماته والتصاق الجلد على العظم بدت لاتخلو من جاذبية.

قال بلتزار كلايس وهو يدخل: «طاب يومك يا ببيركين» وعاد الكيميائي إلى طبيعته أباً وزوجاً فتناول طفله الأخير من حضن أمه ورفع في الهواء ثم أنزله سريعاً، ثم رفعه ثانية وهكذا دواليك؛ وقال لموثق العقود:

« أترى هذا الصغير؟ ألا يثير منظر هذه الحلقة الجميلة الرغبة لديك بالزواج؟ ثق يا عزيزي، أن مسرّات العائلة تعزي عن كل شيء». ثم عاد إلى مداعبة ولده وهو يقول: «بُرر .. بُوند ... ليضحكه».

كان الولد وهو تارة مرفوع إلى السقف، وأخرى موضوع على الأرضية الخشبية يقهقه بضحكاته الموسيقية، وحوّلت الأم ناظرها لتخفي الانفعال الذي خالجه من هذه المداعبة التي تبدو بسيطة في ظاهرها، لكنها بالنسبة إليها تتضمن تحولاً عائلياً كلياً.

- «ها لنرى كيف تركض» قال بلتزار وهو يضع ابنه على الأرض ويذهب ليجلس على أريكة، وهرع الولد إلى أبيه وقد جذبته لمعان الأزرار الذهبية التي تعلّق السروال فوق حلقة الجزمة : «كم أنت فاتن، انك حقاً من عائلة كلايس في انتصاب مشيتك» قال الأب لصغيره وهو يقبله، ثم التفت إلى ولده البكر، وأمسك شحمة أذنه وشدها مداعباً وهو يقول: «وأنت يا غبرييل، ماهي أخبار الأب موريون؟ هل تدافع بجرأة عن مواضيع الانشاء والترجمة لديه؟ هل تستوعب ببقطة الرياضيات؟».

ثم نهض بلتزار، وتوجّه نحو ببيركين وقال له بهذه الكياسة المحببة التي تميّزه: «يا عزيزي، قد يكون لديك بعض ماتطلبه مني؟» وأمسك بذراعه وقاده إلى الحديقة وهو يقول: «تعال لتشاهد خزامى حديقتي؟».

كانت السيدة كلايس تتأمل زوجها وهو يخرج، ولم تستطع أن تخفي فرحتها وهي تراه مجدداً ملؤه الحيوية والبشاشة، وماعرفت فيه من طبع حسن، فنهضت وضمت ابنتها إليها وقبلتها وهي تقول لها: «ياعزيزتي مرغيت، ياابنتي العزيزة إنني في هذا اليوم أكثر حباً لك من المعتاد.

- «لم أر أبي منذ وقت طويل بمثل هذا اللطف» أجابت الابنة.

أطل لمولكيثيه معلناً أن مائدة العشاء جاهزة، فتأبطت السيدة كلايس ذراع زوجها سريعاً لتجنب محاولة بييركين في أن يتقدم ليحظى بهذه المجاملة، وانتقلت العائلة بكاملها إلى غرفة الطعام.

كانت هذه الغرفة ذات سقف مؤلف من عوارض ظاهرة، لكنها مزينة بالألوان التي تغسل وتجدد كل سنة، وهي مجهزة بخزائن أطباق عالية من خشب السنديان ترى على رفوفها قطع آنية المائدة المورثة المدهشة. أما الجدران فهي مكسوة بجلد بنقسي طبع عليه بخطوط من ذهب مناظر صيد؛ وقد صُفّت فوق هذه الخزائن بعناية والتمعت هنا وهناك ريشات طيور غريبة وقواقع نادرة. لم تكن الكراسي قد غيّرت منذ بدء القرن السادس عشر، وتبدو بهذا الشكل المربع، وأعمدتها المبرومة، ومسندها الصغير المزين بقماش ذي أهداب من الطراز الذي ساد انتشاره بحيث أن رفايل قد صورّه في لوحته العذراء على الكرسي لقد غدا خشبها أسود، لكن المسامير المذهبة، كانت تلمع وكأنها جديدة وأغطيتها القماشية التي جدّت بعناية تبدو بلون أحمر مدهش. كانت الفلاندر تنبعث هنا بكلّيتها مع ابتكاراتها الأسبانية؛ والدوارق والقوارير، على المائدة، بمظهر يثير الاحترام تكسبها إياه بطونها المستديرة ذات الحنية القديمة، والأقداح من الزجاج العتيق بأعناقها العالية التي تشاهد في جميع لوحات المدرسة الهولندية أو الفلمندية. أمّا القيشاني فهي من صلصال رملي وقد زخرفت بأشكال ملونة على طريقة برنار دي پاليسي^(١) وهو من انتاج معمل وُدجود^(٢) الانكليزي، بينما أدوات المائدة من الفضة الكتليه ذات الزوايا المربعة المليئة بالنقوش، فضيات عائلية حقيقية، جميع القطع فيها متنوعة الحفر،

(١) برنار دي پاليسي (١٥١٠ - ١٥٩٠): خزّاف فرنسي مشهور، وعالم طبيعي وكاتب.

(٢) ودجود (ك) (١٧٢٠ - ١٧٩٥) صاحب معامل قيشاني تميّزت بالألوان الرصينة.

والطراز والشكل، وهي شواهد على بدايات رفاهية آل كلايس وتطور ثروتهم والفؤط مهدبة على الطراز الاسباني، وغطاء المائدة مما يعرف الجميع أن آل كلايس يملكون روائع منه. هذا الطقم من أدوات المائدة والفضيات مخصصة للاستخدام اليومي في العائلة، وللبيت الأمامي حيث تقام احتفالات الأعياد أدوات ترفه الخاصة، فروائعه محفوظة لأيام المناسبات الرسمية التي قد تفقد رونقها إن ابتذلت أشياءها بالاستعمال العادي، أما في البيت الخلفي فيسود طابع الأبوة الساذج. أخيراً تفصيل شيق يستحق أن يذكر هو أن كرمة معرشة تمتد على طول النوافذ وتنشر طرودها إلى كل الجوانب.

«إنك أمينة على التقاليد ياسيديتي» قال بييركين وقد قدم له صحن من الحساء المعطر بالصعتر الذي تضع فيه ربّات البيوت الفلمنديات أو الهولانديات كرات صغيرة من اللحم المفروم المكور مع قطع صغيرة من الخبز المحمص.

وتابع بييركين: «هوذا حساء يوم الأحد الذي كان يتناوله أبائنا! إن منزلكم ومنزل عمي دي راکة هما المحافظان على هذا الحساء التاريخي في البلاد الواطئة. أه! أرجو المغفرة، لقد قدّمه الشيخ سافارون دي سافاروس بزهو في منزله في تورني، لكنه غاب الآن عن موائد الفلاندر كغيا ب مميزاتها القديمة، فالأثاث الآن يصنع على الطريقة الكلاسيكية الجديدة؛ ولا نلاحظ الخوذ والمجنّات والحراب وحزم السهام في كل مكان؛ كل يعيد بناء منزله، ويبيع أثاثه القديم، ويعيد صهر فضياته أو يستبدل بها قيشاني سيقر الذي لا يعادل الساكس القديم ولا الصيني أه إنني فلمندي حتى أعماق الروح. وهكذا فقلبي ينقطر عندما أشاهد النحاسين يشترون بسعر الخشب أو المعدن أثاثا القديم الجميل، المطعم بالنحاس أو القصدير. لكن الحالة الاجتماعية تريد أن تغيّر وضعها عى ما أعتقد، بما في ذلك طرائق الفن التي تتلاشى، إذ عندما يغلب الاستعجال مامن شيء يتمّ بدقة. خلال رحلتي الأخيرة إلى باريس، ذهبت لمشاهدة لوحات الرسم المعروضة حديثاً في اللوفر، أقسم بشرفي، أنها أقرب

إلى الستائر هذه اللوحات بدون شكل، ولا عمق، ويضنُّ عليها الرسَّامون بالألوان^(١)، ويريدون، على ما يقال أن يغيروا مدرستنا القديمة آه، شتَّان!

قال بلتزار: «إنَّ رسَّامينا القدامى يدرسون مختلف الاتحادات ومقاومة الألوان بتعريضها للشمس والمطر، لكنك على حق، فالاهتمامات الماديَّة بلوازم الفن مهمة أكثر من أي وقت مضى.

لم تكن السيدة كلايس تهتم بهذه الحادثة، لكن سماعها مانقله موثق العقود عن أن أنوات المائدة من القيشاني سائدة الطراز أوحى إليها بفكرة التمتع سريعاً في ذهنها تتجلى في بيع الفضيات التي ورثتها من تركة أخيها بحيث يمكنها بثمنها تسديد الثلاثين ألف فرنك المتوجبة على زوجها.

- قال بلتزار للموثق عندما اهتمت السيدة كلايس بالمحادثة: «آه، آه! هل يبدو الاهتمام بأعمالي في دوي؟».

- نعم، أجب بيركين، كل واحد يتساعل عن سبب إنفاقك الكثير من المال، وقد سمعت البارحة الرئيس الأول في المحكمة يأسف لأن رجلاً من مقامك يسعى للكشف عن حجر الفلاسفة؛ وقد سمحت لنفسه بأن اجيب بأن ثقافتك تؤهلك للتمييز بين الممكن والمستحيل، وأن تقواك تمنعك من الاعتقاد بالقدرة على منافسة الله، كما أنك مدبرٌ واع ككل آل كلايس بحيث لن تستبدل بدراهمك مسحوق الدجالين السحري. غير أنني اعترف لك أنني أشارك من يأسف على انعزالك عن المجتمع، والحقيقة ياسيديتي لو تستمعين إلى المديح الذي يلهج به الجميع ثناء عليك وعلى السيد كلايس لملك الزهو.

- لقد تصرفت كقريب طيب بنقضك هذه الإتهامات التي أقل أضرارها أن تظهرني مثيراً للسخرية. آه إن أهل دوي يظنونني مفلساً. حسن، يا عزيزي بيركين، خلال شهرين ساقم بمناسبة الاحتفال بالذكرى السنوية لزواجي حفلة تعيد إليَّ أبهتها التقدير الذي يحيط به مواطنونا الأعزاء الدراهم. شاب الاحمرار بشدة وجه السيدة كلايس، فهذه الذكرى السنوية قد نسيت منذ

(١) قد يكون المقصود بذلك دافيد (١٧٤٨ - ١٨٢٥) ومدرسة الكلاسيكية الجديدة.

سنتين. لقد كان مشابهاً لهؤلاء المجانين الذين تمرُّ بهم لحظات تلتهم بها قدراتهم ببريق غير معتاد، إذ لم يسبق لبلتزار أبداً أن كان يمثل هذه الرهافة في حنوه، لقد بدا وكلّه انتباه لأولاده، وكانت محادثته ساحرة بجاذبيتها، ولطفها، وصوابها. هذه العودة إلى الأبوة، التي غابت مدة طويلة، كانت بالتأكيد أجمل عيد يمكن أن يمنحه لامرأته التي استعادت كلماته ونظراته لديها المشاركة الوجدانية الثابتة في تعبيرها من قلب إلى قلب، والتي تبرهن عن وحدة عذبة في العواطف.

بدا لمولكينييه العجوز وقد تجدد شباباه، فهو يروح ويجيء بخفة غريبة ناتجة عن بلوغ أمانيه الكامنة مرامها، فالتغير الذي طرأ فجأة على تصرفات معلمه كان على أهميته بالنسبة للسيدة كلايس أكثر أهمية بالنسبة له؛ فحيثما ترى العائلة السعادة، يرى الوصيف الثروة؛ وهو بمساعدته لبلتزار في تجاربه امتدت إليه عدوى الجنون، سواء لأنه أدرك مدى أهمية هذه الأبحاث خلال الشروح التي كانت تتفّلت من الكيميائي عندما يرى الهدف يتباعد عن مرامي يديه، أو لأن الميل الفطري للتقليد لدى الإنسان يجعله يتبنى أفكار من يعيش في جوه. كان لمولكينييه يكنّ لمعلمه عاطفة شديدة التعلّق تختلط فيها الرهبة بالاعجاب بالأتانية، وقد كان المخبر بالنسبة إليه كما مكتب الياناصيب بالنسبة لعامة الشعب، أملاً متجسّداً، فهو في كل مساء يتراعى له قبل نومه «أن الغد قد يكون طافحاً بالذهب!» ويستيقظ في اليوم التالي وقد ازداد إيماناً عن امسه؛ وإنّ اسمه يشير إلى أصل فلمندي تماماً، فأبناء الشعب في الماضي لم يكونوا يعرفون إلا من مزاياهم الأخلاقية، ويغدو هذا اللقب اسم العائلة البورجوازية التي يؤسسونها عند انعقادهم، في الفلاندر كان باعة خيوط الكتان يُسمون «المولكينييه» وقد كانت هذه هي مهنة الرجل الذي انتقل وضع من القنّ إلى وضع البورجوازي من بين أجداد الوصيف العجوز بون شك، إلى أن أعادت صروف الدهر الغامضة حفيد مولكينييه إلى حالته الأولية كقنّ مأجور، فتاريخ الفلاندر، وخطوطه، وتجارته تختصر إذاً في هذا الخادم العجوز الذي كان ينادي غالباً

للترخيم «مولكيني»؛ وقد كان في طبيعه وفي سحنته لا يخلو من تفرد: فوجهه بشكله المثلث عريض ومرتفع وقد أعطته ندوب الجدري مظاهر غريبة تاركة فيه العديد من السرار البيضاء البراقة. كان نحيفاً، ذا قامة منتصبه، مشيته رصينة غامضة. عيناه صغيرتان برتقائيتان كالشعر الأصفر الناعم المستعار الذي يغطي رأسه؛ نظراته المنحرفة دوماً في تناسق مع إحساس الفضول الذي يثيره؛ فهو بصفته كمحضر مطلع على أسرار معلمه، يحيط أعماله بكتمان يضفي عليه جاذبية، وسكان شارع باريس ينظرون إليه باهتمام تخالطه الخشية، لأن أجوبته غامضة دائماً، ووليئة دائماً بالكنوز، فهو المعتز بضرورته لمعلمه، يمارس على رفاقه نوعاً من سلطة منكدة يستغل فيها هذه التنازلات التي تجعله نصف سيد في المنزل؛ ويعكس الخدم الفلمندين الشديدي، التعلق ببيوت أسيادهم، لا يَكُنْ أيّ ودٍ إلا لبلتزار، فإن ألم كرب بالسيدة كلايس، أو طراً حدث يناسب مصلحة العائلة، كان الأمر سيان عنده، يأكل خبزه المدسّم بالزبدة، ويشرب جعته ببروده المعتاد.

بعد انتهاء العشاء اقترحت السيدة كلايس تناول القهوة في الحديقة، أمام دَغَل الخزامى التي تزِين وسطها، فأصص الفخار التي تتوزع فيها هذه الأزهار التي كتبت اسمائها على ألواح من الأردواز المنقوش، قد رصفت ودفنت بالتراب بحيث شكلت هرمًا تعلوه زهرة خزامى من نوع فم التنين يملكها بلتزار وحده وقد أطلق عليها اسم توليبا كلايسيانا Tulipa claesiana نسبة للعائلة، وهي تضم الألوان السبعة، وتبدو تقويراتها الطويلة مذهبة على الحواف، وقد حرص والد بلتزار الذي رفض عشرة آلاف فلورين لقاءها، أن يأخذ كامل الاحتياطات كي لا تسرق بذرة من بذورها، وكان يحفظها في غرفة جلوسه، ويقضي أياماً كاملة في تأملها. كان ساق هذه الزهرة ضخماً، جيد الاستقامة، متيناً، ذا خضرة رائعة، وكانت أقسام النبتة تتناسب بتوافق تام مع تويج هذه الزهرة الذي يتميز بصفاء براق في الألوان مما جعل منذ القدم ثمن هذه الأزهار المترفة مرتفعاً. «هوذا أزهار خزامى بقيمة ثلاثين أو أربعين ألف فرنك»!

قال موثق العقود وهو ينقل بصره بين قرييته، والدغل ذي الألف لون. كانت السيدة كلايس كثيرة الانشراح لمنظر هذه الأزهار التي تنسكب عليها أشعة الشمس فتجعلها أشبه بالجواهر، فلم تلق بالآ إلى ما تضمنته ملاحظة الموثق من تلميح.

تابع الموثق كلامه متوجهاً إلى بلتزار بالقول: «مافائدة هذا؟، يجب أن تتبعها»

- «ياه!، وهل أنا بحاجة إلى دراهم؟» قال كلايس، وقد بدرت منه حركة من لايلقي بالآ إلى مبلغ أربعين ألف فرنكا».

مرت فترة صمت لم تكن تقطعها إلا تعابير دهشة الأولاد:

- «انظري، ياماما، هذه الزهرة!»

- «أوه، هوذا واحدة هي الأجمل!»

- «ما اسم هذه الزهرة؟»

قال بلتزار وهو يرفع يديه بعصبية ثم يضمها بحركة قنوط: «آية ورطة يصعب على العقل البشري الوصول إلى نتيجة فيها: اتحاد بين الهيدروجين والاكسجين، تتفقت عنه وفق معايير مختلفة في الوسط نفسه، والمبدأ نفسه، هذه الألوان التي يشكل كل منها نتيجة مختلفة»^(١).

استمعت السيدة كلايس جيداً إلى طرفي هذه القضية التي طرحها بلتزار بسرعة بحيث بدا من الصعب أن تلم بها كلية بالرغم من اقتناعه أنها تدرس علمه المفضل، ثم توجه إليها بإشارة غامضة: «ستدركين أن من الصعب جداً استيعاب ما أعنيه!» وبدا أنه قد غاب في إحدى هذه التأملات التي غدت لديه مألوفة.

قال بييركين وهو يتناول فنجان القهوة من يدي مرغريت: «أعتقد هذا» والتفت إلى السيدة كلايس هامساً: «تطردين الأمر الطبيعي فيرتد بخطأ سريعة،

(١) هذه الملاحظات حول النباتات تعود إلى عالم النبات السويسري بيرام دي كندول الذي بدأ تأثير ملاحظاته العلمية في مؤلفات بلزك في هذه الرواية وفي «سرافيتا».

أرجو أن تتكرّمي بمحادثته عن موضوع الدين بنفسك. إنَّ الشيطان غير قادر الآن أن ينتزعه من تأملاته التي قد يستمرّ فيها حتى الغد». ثم نهض مودّعاً كلايس الذي تظاهر بأنه لم يسمعه، وقبل جان الصغير الذي كان في حضن أمّه وانسحب بعد انحناء احترام عميقة.

التفت بلفتار إلى امرأته بعد أن أغلق الباب وأحاط خصرها بذراعه، وبدد القلق الذي اعتراها من شروده المصطنع وهو يقول لها: «لقد عرفت جيداً كيف جعلته ينصرف».

أدارت السيدة كلايس رأسها نحو زوجها لئن أن تخجل من أن تظهر له الدموع التي ترقرت في عينيها، فقد كانت دموع الفرح العذبة! ثم أسندت جبينها إلى كتفه وتركت جان ينزلق من حضنها إلى الأرض.
«لندخل إلى غرفة الجلوس»، قالت بعد فترة.

كان بلتزار خلال السهرة بكاملها في غبطة عارمة، فقد ابتكر ألف لعبة لأولاده، وانخرط في بعض هذه الألعاب بنفسه بحيث لم يلاحظ مغادرة امرأته لمرتين أو ثلاثة. في نحو الساعة التاسعة والنصف، بعد أن نام جان، وبعد أن ساعدت مرغريت أختها فليسيا على خلع ملابسها، وعادت لتجد أمّها جالسة على الأريكة الكبيرة، ووالدها إلى جانبها يتحدث إليها وهو يمسك بيدها؛ وخشيت أن تعكر على والديها خلوتهما، وأرادت أن تعود دون أن تكلمهما، لكن السيّد كلايس لاحظ ذلك ونادت ابنتها «تعال يامرغريت تعالي يا ابنتي العزيزة» ثم جذبتها نحوها وقبّلت بحنان جبينها وقالت لها: «خذي كتابك إلى غرفتك ونامي باكراً» وقال بلتزار «أسعدت مساءً يا ابنتي العزيزة»، وتقدمت مرغريت فقبّلت أباهما ثم انسحبت.

بقي كلايس وزوجته لفترة من الوقت وحدهما يرقبان الألوان الأخيرة للشفق التي تتلاشى بين تفرّعات أغصان وأوراق الحديقة التي حلّت بها العتمة فلم تعد تلاحظ تقاطيعها، وما أن ساد الليل حتى قال بلتزار لزوجته بصوت غلب عليه التأثر «فلنصعد».

قبل أن تجعل التقاليد الانكليزية غرفة المرأة مكاناً مقدساً، كانت غرفة الفنلندية مكاناً عصياً، فربّات المنازل في تلك البلاد لا يحطن الفضيلة بالآبهة، وإنما هي عادة متأصلة منذ الطفولة، تعلق بيتي يجعل من غرفة النوم حرماً بهياً تسود فيه العواطف الرقيقة، وتتحد البساطة بكل ما في الحياة الاجتماعية من رقة وقديسة.

في الوضع الخاص الذي كانت السيدة كلايس موجودة فيه، فإنّ آية امرأة تريد مثلها أن تجمع حولها الأشياء الأكثر أناقة، وقد فعلت هي ذلك، إنّما بنوق مرهف يقدر تأثير المظهر الذي يحيط بنا على العواطف. إن هذا يعد ترفاً لدى المخلوقة الجميلة، لكنه لدى السيّد كلايس ضرورة، فهي قد أدركت مدلول هذه الكلمات «إن المرأة تخلق جمالها» وهي حكمة وجهت لجميع تصرفات الزوجة الأولى لنابوليون وجعلتها غالباً متصنّعة بينما بقيت السيدة كلايس دائماً طبيعية وحقيقية.

بالرغم من أن بلتزار كان قد عرف جيداً غرفة زوجته، فإن نسيانه للأشياء المادية في الحياة وصل إلى درجة جعلته يحسّ برعدة محببة وكأنه يرى هذه الغرفة للمرّة الأولى؛ فالبهجة المزهوة لامرأة ظافرة انسكبت في ألوان الخزامى الرائعة التي تسامت بأعناقها الطويلة من مزهريات البورسلين الصيني الضخمة الموزّعة بمهارة، وفي انتشار الأضواء التي لا يمكن مقارنة تأثيراتها إلا بتلك التي تحدثها الجوقات الموسيقية الطروب. كان ضوء الشموع يعطي بريقاً متناسقاً لأقمشة الحرير المطعمة بالكثبان التي تجلّت رتابتها بانعكاسات الذهب الموزّع باعتدال على بعض الأثاث وباختلافات ألوان الأزهار التي تشبه مجموعات الجواهر، إنه هو سرّ هذه التجهيزات، دائماً هو ...!

لا يمكن لجوزفين أن تعبّر لبلتزار ببيان أوضح بأنه هو دائماً سبب أفراحها وأتراحها، ومظهر هذه الغرفة يبهج الروح ويطرد كل فكرة كئيبة بحيث لا تبقى إلا عاطفة مفعمة بالسعادة الثابتة النقية. كان قماش الطنافس المشتري من الصين ينشر حلوة عذبة تتغلغل في الجسد دون أن تتعبه؛ أخيراً فالستائر

المسحوبة بعناية تعبّر عن رغبة في العزلة، ورغبة خاصة في المحافظة على أدق الأصوات في الكلام، وأن تحبس هنا أنظار الزوج المستعاد.

كانت السيدة كلايس قد سرّحت شعرها الجميل الأسود الناعم وأرسلته على جانبي جببتها كجناحي غراب وقد تدثرت بمئزر يرتفع حتى العنق حيث يزينه وشاح طويل تتثنى فيه المخرّمات؛ وقد ألقت على زوجها بعد أن أنزلت السجف العازل للباب، وهو يجلس قرب المدخنة إحدى هذه النظرات المفعمة بابتسامة مرحة التي تعرف المرأة المرفهة العقل، وقد اضفت روحها مزيداً من الجمال على وجهها، كيف تعبر فيها عن آمالها التي لا تقاوم، إنّ أكبر جاذبية للمرأة تتجلى في اعتمادها المستمر على شهامة الرجل في تصريح رقيق بالضعف تمجّده فيه، وتوقظ لديه أروع العواطف، ألا يتلاءم التصريح بالضعف مع الإغراءات الساحرة؟

عندما انزلت حلقات السجف خفية على قضيبها الخشبي، التفتت إلى زوجها، واستندت يدها على كرسي، كأنها أرادت في تلك اللحظة أن تخفي عيوبها الجسدية، فبدت حركتها اللطيفة دعوة خفية إلى عونها، دفعت بلفتزار الغارق في تأمل ذلك الرأس الزيتوني اللون البارز أمام خلفية رمادية تجذب النظر وتسره، إلى أن ينهض ليحتضن امرأته ويحملها إلى الأريكة، وكان هذا جلّ مطلبها.

قالت له وهي تأخذ يده وتحتفظ بها بين يديها المكهربتين: «لقد وعدتني أن تطلعني على سر أبحاثك، فلنتفق، ياعزيزي على أنني أهل لمعرفة، إذ أنني امتلكت الشجاعة لدراسة هذا العلم الذي أدانته الكنيسة لأتمكن من فهمك، لكنني فضولية، فلا تخف عني شيئاً، لذلك حدثني أية صدمة دفعتك لتنهض ذات صباح وملوك انشغال البال، بينما تركتك في العشيّة مفعماً بالسعادة؟

- الأجل أن تستمعني إلى حديث في الكيمياء خلقت هذا الجو من الفتنة

الساحرة؟

- ياعزيزي، أن ألتقي اعترافاً يجعلني أكثر قرباً إلى قلبك هو أكبر

المسرّات بالنسبة لي، أليس تفاهم الروح هو الذي يشمل ويؤدّ كل مباحج الحياة؟ لقد عاد حبك لي نقياً وكاملاً، وأريد أن أعرف أيّة فكرة سيطرت عليك فحرمتني منك طويلاً. نعم إنني أغار من فكرة أكثر من غيرتي من جميع النساء مجتمعات؛ فالحب واسع لكنه ليس بلانهاية، بينما للعالم أعماق لا حدود لها، لا أستطيع أن أراك فيها غائصاً لوحداك، إنني أكره كل ما يمكن أن يفصل بيننا. فإن حصلت على المجد الذي تسعى إليه، فساكون تعيسة بالرغم من الغبطة العارمة التي سترفل بها، فأنا وحدي ياسيدي من يجب أن يكون ينبوع سعادتك.

- كلا، ياملاكي، لم تكن فكرة تلك التي وجهتني الوجهة الجميلة، إنّما هو رجل.

- رجل، صاحبت بذعر.

- ألا تذكرين يا ببيتا ذلك الضابط البولوني الذي أويناه لدينا في العام

٩١٨٠٩

- نعم إنني أتذكره، بل لقد عيل صبري من أن ذاكرتي تستعيد غالباً منظر عينيه الشبيهتين بلسانين من نار، وهذين الوقبين فوق حاجبيه وكأنّ فيهما سواد فحم جهنم، وصلعته العريضة، وشاربيه المفتصين، ووجهه المزوّى التعب!... أخيراً الهنوء المرعب في مشيته!... ولو أن مكاناً وجد في نزل المدينة، لما رقد هنا بالتأكيد.

- هذا الرجل البولوني النبيل اسمه آدم ويرزشفونيا، وعندما تركتنا مساءً، منفردين في غرفة الجلوس، أخذنا نتحدث صدفة عن الكيمياء، ولقد انتزعه البؤس من هذا العلم، فاضطر أن يتجنّد. أعتقد أننا بمناسبة كأس ماء محلي، تعارفنا على أننا من هواة هذا العلم، فعندما طلبت من مولكيزيه أن يحضر بعض قطع السكر، بدرت من الضابط حركة تتمّ عن دهشة، وسألني هل درست الكيمياء؟ - مع لاقوازييه، أجبتة. - كم أنت سعيد لأنك حرّ وغني! هتف، وانطلقت من صدره إحدى هذه الزفرات التي تكشف لدى الرجال عن جحيم من

الأم مكبوتة في قحف الرأس أو حبيسة في القلب، أو بالأحرى هي شيء من لهب، أو من همّ مركز لا يستطيع الكلام التعبير عنه، وقد ختم تأملّه بنظرة جمدتني. بعد فترة صمت، أخبرني أنه لجأ إلى السويد بعد أن أصبحت بولونية شبه ميتة، ووجد في دراسة الكيمياء التي كان يشعر دائماً بميل لا يقاوم نحوها مواساة له هناك؛ ثم أضاف: «أعتقد أنك قد تعرفت مثلي على أن الصمغ العربي، والسكر والنشاء المسحوق تعطي جميعها مادة واحدة قطعاً، وفي التحليل تعطي النتيجة الكيفية ذاتها». ومرّت فترة صمت أخرى، وبعد أن تأملني بعين مستقصية قال لي في مسارة وبصوت منخفض، كلمات جدية ورسمية لم يبق في ذاكرتي منها اليوم إلا المعنى العام، لكنه أرفقها بعزم في الصوت، وبنبرات حارة وقوة في الحركة هزت مني الصميم وضربت على موطن الإدراك كما تضرب المطرقة على حديد وضع على سندان.

إليك باختصار هذه الاستدلالات التي كانت بالنسبة لي كما الجمرة التي وضعها الله على لسان أشعيا، إذ أن دراساتي لدى لافوازييه جعلتني أشعر بمدى أهميتها، لقد قال لي: إن تكافؤ هذه العناصر الثلاثة، المتميزة في الظاهر، قد قادتني ياسيدي، إلى التفكير بأن جميع منتجات الطبيعة تعود إلى المبدأ نفسه. إن مبادئ الكيمياء الحديثة قد برهنت عن حقيقة هذا القانون، في القسم الأكثر أهمية من التأثيرات الطبيعية. إن الكيمياء تقسم الخلق إلى قسمين متميزين: الطبيعة العضوية، والطبيعة اللاعضوية.

إن الطبيعة العضوية بشمولها جميع المخلوقات النباتية أو الحيوانية التي تظهر فيها تعضية أكثر أو أقل كمالاً، أو بمعنى أصح، قدرة مختلفة على التحرك تحدّد فيها عواطف مختلفة، هي بالتأكيد القسم الأكثر أهمية في عالمنا؛ والواقع أن التحليل قد ردّ جميع منتجات هذه الطبيعة إلى أربعة أجسام بسيطة، ثلاثة منها غازية: الأزوت، والهيدروجين، والأكسجين، وجسم آخر صلب، لامعدني هو الكربون.

بعكس الطبيعة اللاعضوية القليلة الاختلاف، المجردة من الحركة

والإحساس، والتي يمكن ألا نقرّ لها إمكان النمو، بالرغم من أن العالم ليّنه قد منحها شيئاً بسيطاً من ذلك. هذه الطبيعة تحوي ثلاثة وخمسين عنصراً تشكل باتحاداتها المتنوعة جميع منتجاتها. أیحتمل أن تكون الوسائل أكثر عدداً حيث تكون النتائج الأقل؟...

إن رأيي معلّمي القديم أن هذه الأجسام الثلاثة والخمسين لها أساس واحد، عدله سابقاً تأثير قوّة خادمة الآن، لكن العبقرية الانسانية قادرة على إحيائها. لننتصور أن فعالية هذه القوّة قد استيقظت للحظة، إننا سنحصل عند ذلك على كيمياء موحدة^(١)، ويختمل أن تكون الطبيعتان العضوية واللاعضوية مستندتين إلى أربعة عناصر أساسية، وإذا تمكنا أن نفكك الأزوت الذي يجب أن نعتبره عنصراً سالباً، فلا يتبقى لدينا إلا ثلاثة عناصر. هكذا نصل إلى ثلاثية الأقدمين الشهيرة وإلى مقولة سيميائي العصر الوسيط الذين نسخر منهم خطأً. إن الكيمياء الحديثة ليست الآن إلا هذا، وهو كثير كما أنه قليل، إنه كثير لأن الكيمياء قد ألفت ألا تتراجع أمام أيّة صعوبة، وهو قليل بالمقارنة مع ماتبقى ويجب فعله. لقد قدّمت الصدفة خدمة جلّی لهذا العلم الرائع! وهكذا فإن هذه الدفعة من الكربون النقي، المتبلور، وهي الألماس، تبدو وكأنها آخر عنصر يمكن خلقه. إن السيميائيين القدامى الذين اعتقدوا أن الذهب قابل للتفكك وبالتالي قابل للصنع، قد تراجعوا أمام فكرة انتاج الألماس، مع إننا قد اكتشفنا طبيعة تركيبه وقانونه. لقد ذهبنا أنا إلى أبعد من ذلك! لقد قمت بتجربة برهنت لي أن الثلاثية الغامضة موضع الاهتمام منذ زمن عريق في القدم لا وجود لها في التحاليل الحالية التي لا تتوجّه نحو نقطة ثابتة؛ وإليك التجربة^(٢):

(١) يعتمد بذاك في سرد هذه المعلومات السائدة في عصره على مااستمدّه من «لافوازييه» (١٧٤٣ - ١٧٩٤) العالم الكيميائي الفرنسي المشهور، وبرزيليوس (١٧٧٩ - ١٨٤٨) العالم الكيميائي السويدي، وبيرام دي كاندول (١٧٧٨ - ١٨٤١) عالم النبات السويسري، ولينه (١٧٠٧ - ١٧٧٨) العالم الطبيعي السويدي، وأخيراً جيرهارد (١٨١٦ - ١٨٥٦) الكيميائي الفرنسي.

(٢) هذه التجربة تعود إلى العالم برزيليوس.

«ابذر حبّات من الحُرْف (كمثال على مادة من مواد الطبيعة العضوية) في زهر الكبريت (كمثال أيضاً على جسم بسيط). اسق البذور بالماء المقطر كي لا تدخل إلى منتجات الإنتاش أي أساس غير معروف. إن البذور تنتش وتنمو في وسط معروف متغذية من عناصر سبق معرفتها بالتحليل. اقطع على عدّة مرات سوق هذه النباتات إلى أن تحصل على كمية كافية لإعطائك بالحرق مقداراً من الرماد. بتحليل هذا الرماد ستجد حمض السيليس، والألومين، وفوسفات الكلس وكربوناته، والكربونات المغنيزية، والكربونات البوتاسية، والكبريتات وأوكسيد الحديد، وكأن الحُرْف قد نبت في الأرض على ضفاف المياه؛ والحال أن هذه الأجسام لا توجد لا في الكبريت، وهو الجسم البسيط الذي استخدم كترية للنبات، ولا في الماء الذي استخدم لسقايته، والمعروف التركيب؛ وبما أنها ليست أيضاً في البذرة فلا يمكن تفسير وجودها في النبات إلا بافتراض عنصر مشترك للأجسام الموجودة في الحُرْف وفي الأجسام المستخدمة كوسط له.

هكذا فإن الهواء، والماء المقطر، وزهر الكبريت، والعناصر التي أعطاها تحليل الحرف أي البوتاس والكلس والمغنيزيا والألومين الخ... لها أساس مشترك منتشر في الجو كما صنعته الشمس.

من هذه التجربة غير القابلة للاعتراض استنتجت وجود المطلق! إنّه مادة مشتركة في جميع المخلوقات، معدّلة بقوة وحيدة، هذا هو الوضع الصريح والواضح للمشكلة التي يطرحها المطلق والتي تبدولي قابلة للبحث، هنا ستصادف الثلاثية المبهمة التي ركعت أمامها البشرية في كل الأزمان: المادة الأولى، والوسيلة، والنتيجة. ستجد هذا الرقم الرهيب «ثلاثة» في كلّ شيء بشري، إنّه يهيمن على الأديان، والعلوم، والقوانين.

هنا أوقفت الحرب والشقاء أبحاثي، إنك تلميذ لافوازييه، وأنت غني وسيد

وقتك، يمكنك، إذ أن أطلعك على نتائجي؛ وهذا التعليل الذي استشفه من تجاربي الشخصية: **المادة الواحدة** هي أساس مشترك بين الغازات الثلاثة والكربون **والوسيلة** هي الأساس المشترك للكهربائية السالبة والكهربائية الموجبة.

إن سرت إلى اكتشاف البراهين التي تثبت هاتين الحقيقتين، فستملك الإدراك السامي لجميع تأثيرات الطبيعة.

أوه! ياسيدي، عندما نحمل هنا - وضرب بيده على جبهته - كلمة الخلق الأخيرة، مع توقع المطلق، هل يمكن العيش بعد ذلك إلا منساقين في حركة هذه الجموع من البشر المندفعين في ساعة معينة كل مجموعة وراء الأخرى، دون أن يعرفوا ماذا يفعلون. إن حياتي الحالية هي عكس الحلم تماماً، إن جسدي يروح ويجيء، ويتحرك، ويدخل وسط الحديد والمدافع والرجال، ويخترق أوربة إرضاء لقدرة أطيعها مع احتقاري لها. إن روحي لاتعي أبدأ هذه الحركات، فهي ثابتة، غارقة في فكرة، متخذة بهذه الفكرة، فكرة البحث عن المطلق؛ عن هذا المبدأ الذي يمكن فيه لبذور مماثلة تماماً، توضع في وسط واحد، فيعطي بعضها كؤيسات بيضاء، وبعضها الآخر كؤيسات صفراء؛ وهي ظاهرة تنطبق أيضاً على دود الحرير الذي يتغذى من الأوراق نفسها، ويبدو دون أية فروق ظاهرة، لكن بعضه يعطي حريراً أصفر، وبعضه الآخر يعطي حريراً أبيض. أخيراً فإن هذا المبدأ يطبق على الإنسان ذاته، الذي يربز شرعاً أولاداً مختلفين كلياً، بالرغم من أنه هو ذاته لم يتغير الأم واحدة.

ألا يفرض الاستنتاج المنطقي لهذا الواقع تعليلاً بجميع هذه التأثيرات في الطبيعة؟ هيه، أي شيء أكثر مطابقة لأفكارنا عن الاله من الاعتقاد بأنه صنع كل شيء بالوسيلة الأكثر يسراً؟ ألا يلخص النوع الفيثاغوري بالرقم «واحد» الذي تتفرع عنه جميع الأرقام، وبالرقم «اثنين» الذي يبدأ فيه التراكم الأولي وهو نموذج التراكمات الأخرى، وبالرقم «ثلاثة» الذي شكّل في جميع

الأزمة «الإله» أي المادة، والقوة، والنتاج، ألا يلخص تقليدياً المعرفة المبهمة للمطلق؟

إن ستاهل^(١) وبيشه^(٢) وباراسلس^(٣) وأغريبا^(٤) وجميع الباحثين الكبار عن الأسباب السحرية، كانت كلمة السر لديهم «التريسمجيسيتا»^(٥) وهي تعني العظيم ثلاثاً. إن الجاهلين المتعوذين على إدانة السيمياء، هذه الكيمياء السامية، لا يعرفون دون شك، أننا مشغولون بتبرير الأبحاث المتحمسة لهؤلاء الرجال العظام؛ فعند التحقق من المطلق، يجب أن آخذ بتلابيب الحركة^(٦). أه! بينما كنت اتغذى بالبارود، وأوجه الأوامر للرجال للموت عبثاً، كان معلمي القديم يجمع الاكتشافات واحداً بعد الآخر، ويطير نحو المطلق! وأنا انتظر الموت ككلب قرب بطارية مدفع.

بعد أن استعاد هذا الرجل الكبير البأس بعض هدوئه، قال لي بأخوة مؤثرة: «إن وجدت تجربة تستحق الإجراء فسأوصي لك بها قبل أن أموت» تابع بليزار وهو يشد على يد امرأته: «إن دموع الغضب التي سالت على وجنتي هذا الرجل المخدّتين، ياعزيزتي بيتا، قد رمت في روعي نار هذا الاستدلال التي كان لا قوازيه قد هيأ وقّدها دون أن أجرؤ على الانصراف الكلي لها.

صاحت السيدة كلايس، التي لم تستطع الامتناع عن مقاطعة زوجها: «كيف تمكن هذا الرجل، بقضائه ليلة واحدة تحت سقف منزلنا، أن ينتزع منك كل مودّتنا، وأن يهدم بجملة واحدة، بل بكلمة واحدة، سعادة عائلة.

(١) ستاهل: (١٦٦٠ - ١٧٣٤): طبيب ألماني، وهو واضع نظرية الفلوجيسيتيك في الكيمياء، وقد نقضها لافوازيه

(٢) بيشه: (١٦٣٥ - ١٦٨٢): كيميائي ألماني، قال بوجود أجسام غير قابلة للانقسام، وأخرى مركبة

(٣) باراسلس: (١٩٤٣ - ١٥٤١) طبيب سويسري اهتم باكسير الحياة وحجر الفلاسفة.

(٤) أغريبا فون نتسهيم (١٤٨٦ - ١٥٣٥) سيميائي وطبيب، كان مستشاراً لشارل كنت

(٥) تريسمجيسيت: العظيم ثلاثاً، لقب كان اليونان يطلقونه على الهيم هرمس.

(٦) الحركة: مثار اهتمام بلزاك في رواياته الفلسفية، ذكرها في جلد الحب، وهنا في البحث عن المطلق.

آه ياعزيزي بلتزار! هل رسم هذا الرجل إشارة الصليب؟ هل تفحصته جيداً؟ إن إبليس وحده له هذه العين الصفراء التي تنفث لهب برومثيوس. نعم إن الشيطان وحده هو الذي تمكن من اقتلاعك مني، ومنذ ذلك اليوم، لم تعد أبداً أباً، ولا زوجاً، ولا ربّ عائلة.

انتصب بلتزار واقفاً في الغرفة ووجهه إلى امرأته نظرة ثابتة وهو يقول: «ماذا! أتلومين زوجك لأنه قد سما فوق جميع الرجال، ليتمكن أن يلقي تحت قدميك حلّة المجد الأرجوانية كتقدمة زهيدة أمام كنوز قلبك! إذا أنت لاتدركين ما فعلته منذ ثلاث سنوات؟

إنها خطوات جبّارة! ياعزيزتي بيتا»

قال هذا وقد أثير، وبدا وجهه عند ذاك لامرأته وقد تألق تحت نار العبقرية أكثر من تألقه تحت نار الحبّ وبكت وهي تسمعه يردد: «لقد نفذت اتحاد الكلور والأزوت^(١)، وحلّلت عدة أجسام اعتبرت بسيطة حتى الآن، واكتشفت معادن جديدة... وتابع عندما رأى دموع زوجته: «بل حلّلت الدموع، هذه الدموع تحوي قليلاً من فوسفات الكلس وكلورور الصوديوم، ومادة مخاطية، وماء^(٢)». واستمر في الكلام دون أن يلاحظ الاختلاجات الرهيبة التي أثرت على شكل جوزفين. لقد انساق مع العلم الذي حمله بعيداً، وقد نشر جوانحه، فوق العالم المادّي.

«هذا التحليل ياعزيزتي، هو أحد أفضل البراهين على نظام المطلق. إن كل حياة تنطوي على احتراق؛ ووفق فعالية الموقد شدة أو نقصاناً تكون الحياة أكثر أو أقل استمراراً، وهكذا فإن فناء الفلزّ المعدني بطيء إلى ما لا نهاية، لأن

(١) عملية كيميائية تمكن من إجرائها دلونغ في ١٨١٢.

(٢) تحليل أجراه فوركرها وفوككن في ١٧٩٠.

الاحتراق فيه فرضي وكامن، وغير محسوس: وهكذا فالنباتات التي تترطب دون انقطاع بالاتحاد الذي تنتج عنه الرطوبة، تعيش إلى مالا نهاية، وما يزال العديد من النباتات التي عاصرت الطوفان الأخير حيّة إلى الآن؛ لكن في جميع المرات التي أتقنت فيها الطبيعة جهازاً، ووضعت فيه لسبب مجهول الإحساس أو الغريزة، أو الذكاء، وهي ثلاث درجات متميّزة في المنظومة العضوية فإن هذه العضويات الثلاث تتطلب احتراقاً تتناسب فعاليته طرداً مع النتيجة الحاصلة؛ والانسان الذي يمثل أعلى درجة من الذكاء وهو رمز الجهاز الوحيد الذي ينتج قدرة نصف خلقة تتجلى في الفكر، هو بين الكائنات الحيوانية، المخلوق الذي يصل فيه الاحتراق إلى الدرجة الأكثر شدة والذي تبدو آثاره القوية منكشفة إلى حدّ ما بالفوسفاتات، والكبريتات والكربونات التي تنتج عن جسده وتكشفها تحاليلنا. أليست هذه المواد هي الآثار التي تتركها فعالية السيالة الكهربائية، أساس كل خصوبة؟

ألا تظهر الكهربائية فيه باتحادات متنوعة أكثر منها في أي حيوان آخر؟ أليست لديه قدرات أكبر منها في أي كائن آخر ليمتصّ النصبب الأشدّ من كنه المطلق، ويتمثله ليركب منه في أكمل ماكنة قوّته وأفكاره! أعتقد ذلك. إن الإنسان قربةً، وهكذا ففي رأيي^(١) إن الأحق هو من يحوي دماغه أقل نسبة من الفوسفور أو أي ناتج آخر من الكهرطيسية، والمجنون من حوى دماغه نسبة زائدة والانسان السوي من حوى نسبة قليلة، والرجل العبقرى من كان المخيخ فيه مشبعاً إلى درجة ملائمة، أما من اختلفت مشاربهم كالعاشق المتيم، والحمال، وراقص الباليه، والأكول النهم فهم هؤلاء الذين انحرفت فيهم القوة الناتجة عن سيالتهم الكهربائية. وهكذا فإن عواطفنا ...

- كفى يابلتزار، إنك ترعبنى، أنك تهين المقدّسات، كيف! أليكون حبي ...

(١) هذا الرأي يستند إلى دراسات قام بها كيميائي فرنسي شاب، هو جان باتيست كورب وقدّمت إلى أكاديمية العلوم في تموز ١٨٣٤.

- مادة اتيرية^(١) تنطلق، وهي دون شك كلمة المطلق، فكّرني إذاً فيما إذا كنت أول من يتمكن، أول من يتمكن! من إيجاد، من إيجاد، من إيجاد!.....
هتف كلايس بهذه الكلمات بنبرات ثلاث مختلفة، كان خلالها وجهه يسمو في درجات متصاعدة حتى التعبير عن الوحي. «سأصنع المعادن، سأصنع الألاميس، سأكرر الطبيعة.»

- هل ستكون أكثر سعادة؟ صرخت بقنوط، يا للعلم اللعين، وللشيطان الرجيم! إنك تنسى يا كلايس أنك ترتكب خطيئة الكبرياء التي وقع فيها إبليس. إنك تتناول على الله.
- أوه! أوه! أوه! الله!

- إنه ينكر الله! صاحت وهي تعصر يديها. «كلايس! إن لله قدرة لن تصل إليها أبداً.

عند هذه الحجة التي بدت وكأنها تلغي علمه العزيز، تطلّع إلى امرأته وهو يرتعش متسائلاً: «ماذا؟!».

- القوة الوحيدة، الحركة^(٢). هذا ما استوعبته من الكتب التي ألزمتني بقراءتها. حلّ الزهور، والثمار، وخمر ملّقة، ستكتشف بالتأكيد عناصرها التي تأتي، كعناصر عُشبة الحُرْف التي حللتها، من وسط يبدو أنه كيانها الغريب، ويمكنك أن تجدها في الطبيعة، لكن إن جمعتها هل ستصنع منها هذه الأزهار، وهذه الثمار، وخمر ملّقة؟ هل لديك تأثيرات الشمس التي لا يدرك كنهها؟ هل لديك جو إسبانية؟ أن تتمكن من التحليل لا يعني أنك تتمكن من الخلق!
- إذا تمكّنت من إيجاد القوة الملزمة^(٣)، يمكنني أن أخلق.

(١) الإثير: عرفت مقولة الإثير شهرة كبيرة في القرن التاسع عشر وقد عرفها معجم التاريخ الطبيعي الذي نشره دترفيل «الإثير مائع نافذ جداً يفترض أنه منتشر في الكون كله، وهو في بنية الكون كما السيالة العصبية في بنية الحيوان، إنه يصون هذه الرابطة الوثيقة بين أقسام هذا الكل الشامل

(٢) سجلّ بلزك في «أفكار، ومواضيع، وبشذرات» (إن الإنسان يستخدم القوة ولا يخلقها أبداً، وكل قوة يعتقد الإنسان أنه قد خلقها هي استعارة من الحركة الخالدة تعاد إليها في اللحظة ذاتها)

(٣) القوة الملزمة: فكرة شغلت اهتمام بلزك طويلاً وقد جاء في ملاحظات فلسفية: «ما هي القدرة الملزمة التي تضمّ وتجمع الجزئيات أو أقسام العناصر المادية؟»

- «ما من شيء يوقفه» صرخت ببيتا بصوت قانط. «آه يا حبي لقد مات، لقد فقدته» وفاضت عبراتها، وأبرقت عيناها، وقد حركهما الألم وقدسيتها العواطف التي تبوح بها، بجمال لا يحد، وتابعت وهي تنتحب «لقد متّ كلياً، إنني أرى ذلك، فهذا العلم فيك أكثر قوة من ذاتك، وقد حملك في تطبيقه إلى مرتبة أعلى بكثير من أن تنزل منها لتكون رفيق امرأة مسكينة. أية سعادة يمكنني أن أقدمها إليك أيضاً؟ أه، أريد كمواساة معزية أن أومن أن الله قد خلقك لتكشف عن أعماله، وتترنم بحمده، وأنه قد وضع في إهابك قوة لاتقاوم تهيمن عليك؛ لكن كلا، إن الله رحيم، وقد ترك في قلبك بعض أفكار من أجل امرأة تعبدك وأولاد يجب أن ترعاهم. نعم إن الشيطان وحده يمكن أن يوجهك للغوص وحيداً في وسط هذه اللجج التي لا قرار لها، وهذه الظلمات التي لا ينيرها إيمان الأعالي، إنما يخيم عليها. اعتقادك الرهيب بقدراتك!

من ناحية أخرى، ألم تلاحظ يا عزيزي أنك قد بددت تسعمئة ألف فرنك خلال ثلاث سنوات؟ أه! أنصفني، فأنت ربّي على هذه الأرض، وأنا لا ألومك على شيء؛ ولو أننا لوحدنا لحملت إليك وأنا راحة كل ثروتنا وأنا أقول لك: «خذ، ألق بها في فرنك حولها إلى دخان، وكنت سأضحك وأنا أراها تتطاير. وإن افتقرت لذهبت أتسوّل دون خجل لأومن لك الفحم الضروري لفرنك، أخيراً لو أنني بإلقائي نفسي في هذا القرن أهّي لك العثور على مطلق المفقوت، لفعلت ذلك، ياكلايس، بملء السعادة، لأنك تعتبر مجدك ومسرّاتك في هذا السرّ المفقود. لكن أولادنا ياكلايس، أولادنا، ماذا سيكون مصيرهم، إن لم تكتشف سريعاً هذا السرّ الجهنمي؟! هل تعلم لماذا حضر بييركين؟ لقد جاء يطلب منك تسديد ثلاثين ألف فرنك ديناً عليك، ولا تملكها، إن أملاكك لم تعد لك. لقد قلت له أن لديك هذه الثلاثين ألف فرنك لأجنبك الورطة التي ستوقعك فيها أسئلته، لكن للحصول على هذا المبلغ فكّرت ببيع فضيَّاتنا القديمة»

رأت عند ذلك عينيه وقد جال بهما الدمع، فألقت بنفسها بقنوط على قدميه

وقد رفعت نحوه يدين متوسلتين هاتفة: «أوقف ياعزيزي لفترة أبحاثك لنتمكن من توفير المال اللازم للعودة إليها فيما بعد، إذا لم نتمكن من الإقلاع عنها كلياً. أوه! أنا لا أدينها، وأنا مستعدة لأنفخ في أفرانك إن أردت، ولكن لا ترم أولادنا إلى الفاقة، وإذا كان العلم قد سيطر على قلبك بحيث لم يعد فيه مكان لحبهم، فلا تحول حياتهم إلى تعاسة بدلاً من السعادة التي يجب أن تهيئها لهم.

إن عاطفة الأمومة كانت غالباً الأضعف في قلبي. نعم لقد تمنيت غالباً ألا أكون أمّاً لأتمكن من الاتحاد بشكل أوثق مع روحك، وحياتك! وهكذا من أجل أن أتخلص من عذاب الضمير فأنا أسألك الرحمة بمصلحة أولادك قبل مصلحتي.

كان شعرها قد تهدل وتموج على كتفها، وعيناها ترشق ألف عاطفة كرشق السهام، لقد انتصرت على منافستها، ورفعها بلفتزار وحملها إلى الأريكة، وجثا عند قدميها، وقال لها بلهجة رجل استيقظ من كابوس مزعج: «لقد سببت لك إذاً كثيراً من الأحزان!»

- أجابت وهي تمرر يدها في شعره: «ياعزيزي البائس، ما زلت تسبب لي الكثير بالرغم منك، هيّا تعال واجلس قربي» وأشارت إلى مكانه على الأريكة الواسعة. «لقد نسيت كل شيء، لأنك عائد لنا سنصحح كل شيء ياعزيزي، لكنك لن تبتعد عن زوجتك أبداً، أليس كذلك؟ قل نعم! اسمح لي، ياعزيزي كلايس الطيب الجميل، أن أمارس على قلبك النبيذ هذا التأثير النسائي الضروري واللازم لسعادة الفنانين التعساء، وكبار الرجال المتألمين. لك أن تغيظني، وتعتفني إن أردت، لكن اسمح لي أن أخالفك قليلاً لمصلحتك، لن استغل أبداً السلطة التي ستمنحني إياها. كن شهيراً ولكن كن سعيداً أيضاً. لا تفضل الكيمياء علينا. اسمع سنكون كثيري التسامح، وسنسمح للكيمياء أن تدخل شريكاً معنا وتقاسمنا قلبك، ولكن كن عادلاً، ألا تعطينا نصف قلبك؟ قل، أليست توضيحي سامية؟

دفعت بـلتزار إلى الابتسام بهذا الفن الرائع الذي تمتلكه النساء، لقد تعرّضت للموضوع الشائك في صيغة مزاج تعرف النساء اتقانه. مع ذلك وبالرغم من أنّها تظاهرت بالضحك، فإن قلبها كان منكشاً بعنف بحيث لم يعد إلى الحركة المنتظمة والهادئة لحالته المعتادة، لكن عندما رأت في عيني بـلتزار التعبير الذي فتنها، والذي يسجّل نصرها الذاتي ويكشف عن التأثير الكامل لقدرتها القديمة التي ظنّت أنها قد فقدتها. قالت له وهي تبتسم: «صدّقني يا بـلتزار، لقد هيأتنا الطبيعة لنشعر، وبالرغم من أنك لا تريد إلا أن نكون ماكينات كهربائية، فإن غازاتك، وموادك الإثيرية لن تفسر أبداً الموهبة التي نملكها في استشفاف المستقبل.

- بلى، بواسطة الألفات، فالقدرة على الرؤيا التي تصنع الشاعر، والقدرة على الاستنتاج التي تصنع العالم، قائمتان على ألفات غير منظورة، لاتمسّ، ولا توزن، يصنّفها العامة في صفّ الظواهر المعنوية، إنما هي تأثيرات فيزيائية. إن المتنبئ ينظر ويستنتج، لكن هذا النوع من الألفات نادر جداً، ويصعب جداً إدراكه بحيث يتعذر إخضاعه للتحليل أو للملاحظة.

قالت وهي تختلس منه قبلة لتبعد حديث الكيمياء الذي شاء سوء الحظ أن تنثيره: «هذه إذاً ليست إلا ألفة؟!».

- كلا إنها اتحاد، فعنصران من إشارة واحدة لا ينتجان أية فعالية.
- كفى، اصمت، إنك تقودني إلى الموت المأ. نعم، لن أتحمل يا عزيزي، أن أرى منافستي حتى في فورات حبك.
- لكنني، يا حيّاتي العزيزة، لا أفكر إلا بك، فأعمالي هي أمجاد لعائلتي، وأنت في صميم جميع آمالي.
- هيا، ألا تنتظر إليّ؟.

خانت هذه المشاحنة العائلية قد أكسبتها جمال امرأة شابة، ولم يكن زوجها يرى من كل شخصها إلا رأسها الذي يبرز فوق غيمة من الحرائر والمخرمات.

- نعم، لقد كنت على خطأ بيّن في هجرك من أجل العلم، والآن عندما أغرق في مشاغلي فإنني أرجو يا عزيزتي بيتا أن تنتزعيني منها، فأنا أريد ذلك. خففت بصرها، وتركته يتناول يدها، مثال الجمال فيها هذه اليد القويّة والنساسة في آن معاً، لكنها قالت: أريد ما هو أكثر من ذلك».

- «إنك ساحرة في جمالك بحيث تستطيعين أن تتالي ماتريدين.

- «أريد أن أحطّم مخبرك وأقيّد بالأغلال علمك» قالت وقد أبرقت عيناها

بلهب مثير.

- حسن، فلتذهب الكيمياء إلى الجحيم

- إن هذه اللحظة تسمح لجميع ألامي، ويمكنك الآن أن تعذبني قدر ماتشاء تفرقت الدموع في عيني بلفتزار وهو يسمع هذه الكلمات وقال: «إنك على حق، فأنا لا أراك إلا من وراء حجاب، ولم أكن استمع إليك أبداً».

- لو أن الأمر يتعلّق بي وحدي لأغرقت عذابي في الصمت، دون أن أرفع صوتي أمام مليكي، لكن أولادك بحاجة إلى اهتمامك يا كلايس؛ وأؤكد لك أنك إن واصلت تبديد ثروتك بهذه الطريقة، حتى لو كان هدفك مجيداً فإن العالم لن يأخذه بالاعتبار وسيقع اللوم على عائلتك. ألا يكفيك، وأنت الرجل السامي الإدراك، أن امرأتك قد لقت انتباهك إلى خطر لم تلاحظه؟، كفانا كلاماً في هذا الموضوع يا عزيزي كلايس، ففي هذا المساء يجب ألا تكون سعادتنا منقوصة. قالت ذلك وهي توجه إليه ابتسامة ونظرة ملؤها الفنج والإغراء.

في صبيحة تلك الأمسية الخطيرة في حياة تلك العائلة، لم يصعد بلفتزار كلايس إلى مخبره، ولا شك أن جوزفين قد حصلت منه على وعد يتعلّق بأيقاف أعماله، وقد بقي إلى جانبها طيلة النهار.

في اليوم التالي اتخذت الأسرة استعداداتها للذهاب إلى الريف حيث بقيت نحو شهرين، ولم تعد إلى المدينة إلا لتهتم بالحفلة التي أراد كلايس إحياءها كالمسابق احتفاء بالذكرى السنوية لزواجه. كان بلفتزار مع مرور الأيام يحسّ بالاختلال الذي أحدثته أعماله ولا مبالاته في أوضاعه الماديّة، فمن الخدم

السبعة الذين كانوا لديه في آخر مرة استقبل فيها، لم يبق إلا لولكينيه، وجوزيت الطباخة، ووصيفة عجوز اسمها مرتا لم تفارق سيدتها منذ أن غادرت الدير، لذلك كان مستحيلاً استقبال عليّة القوم في المدينة بمثل هذا العدد المحدود من الخدم؛ لكن السيّد كلايس تغلبت على الصعوبات بأن عملت على استدعاء طبّاخ من باريس، واستخدم ابن البستاني كنادل واستعارة خدم ببيركين؛ وهكذا لم يلاحظ أحد ماهي فيه من ضيق؛ وخلال العشرين يوماً التي استغرقتها التحضيرات، عرفت السيدة كلايس بمهارة كيف تشغل أوقات زوجها: فحيناً تكلفه بالاهتمام بالأزهار النادرة التي يجب أن تزين الدرج الرئيس، والرواق والأجنحة، وحيناً آخر ترسله إلى دونرك ليؤمن بعض هذه الأسماك الضخمة التي تعتبر زينة الموائد في مناسبات إقليم الشمال. واحتفال كاحتفال كلايس يعتبر أمراً رئيساً يتطلب إجراءات عديدة ومراسلات نشطة في بلاد تعتبر تقاليد الضيافة فيها تعبيراً عن شرف العائلات، ومائدة العشاء نصراً يجب أن يحققه أسياد المنزل وخدمه على المدعوين. لقد جيء بالمحار من أوستند، وبالديوك البريّة من اسكوتلندة. وبالثمنار من باريس، أخيراً فإن أقل المكملات كانت على مستوى الترف الموروث؛ فالحفلة الراقصة في بيت كلايس لها شهرتها، إذ أن تلك السهرة في دوي وهي مركز المقاطعة آنئذ، تفتتح إن صحّ القول موسم الشتاء، وتعتبر مثلاً لجميع حفلات المنطقة، وهكذا فخلال خمسة عشر عاماً جهد بلتزار في أن يتميز، وقد نجح في ذلك بحيث رويت الحكايات عن حفلاته ضمن دائرة تعدّي نصف قطرها بعد عشرين فرسخاً، فسردت القصص عن التبرجات والمدعوين بأدق التفاصيل، وعن المستجدات التي شوهدت أو الأحداث التي مرّت.

هذه الاستعدادات حالت بين كلايس وبين التفكير بالبحث عن المطلق، فبعودته إلى الأفكار الأهلية والحياة الاجتماعية ارتدت إلى العالم كبريائه كرجل، وكفلمندي، وسيد بيت عريق واغتيط بإدهاش المقاطعة. وقد أراد أن يسمّ تلك السهرة بسمة جديدة فاختر من نزوات الترف أكثرها جمالاً، وأكثرها غنى،

واكثرها زوالاً، إذ جعل من بيته مشتل نباتات نادرة، وأعد لكل سيّدة من المدعوات باقة أزهار، وتطابقت تفاصيل الحفل الأخرى مع مستلزمات هذا الترف الخارق، فما من شيء إلا ويبدو مثيراً للانتباه، غير أن النشرة التاسعة والعشرين^(١)، والأخبار الخاصة المتعلقة بهزيمة الجيش الكبير في روسية ونكبة برزينا انتشرت بعد العشاء؛ وخيم على أهل دوي حزن عميق وصادق بحيث دفعتهم العاطفة الوطنية إلى الامتناع عن الرقص كليّة.

كان من بين الرسائل التي وصلت من بولونية إلى دوي واحدة لبلتزار مرسلّة من ويبرشونيا الذي كان يحتضر في درسدن، على ما يذكر، من جرّاء جرح أصيب به في أحد الاشتباكات الأخيرة، وقد أراد أن ينقل إلى مضيفه عدّة أفكار تتعلّق بالمطلق خطرت له بعد لقائهما الأخير، وقد أغرقت هذه الرسالة كلايس في شroud عميق دفع الحاضرين لتبجيل وطنيته، لكن الأمر لم يلتبس على زوجته، فقد غدت الحفلة بالنسبة لها حداداً مضاعفاً، إذ تغلّفت تلك الأمسية التي كان منزل كلايس يشعّ فيها بأخر بريق له بالكآبة والعبوس وسط كلّ هذا البهاء وهذه الطُرف التي تجمعت في ذلك البيت خلال ستة أجيال لكل منها هوسه، وكل طرفة منها أثارت إعجاب أهل دوي للمرة الأخيرة.

كانت ملكة ذلك اليوم مرغريت التي قدّمها أهلها للمجتمع وهي في ربيعها السادس عشر، وقد جذبت أنظار كلّ الحاضرين ببساطة متناهية، ومظهر ساذج بريء، وهيئة تتوافق مع ذلك المنزل؛ فهي نموذج الفتاة الفلمندية التي صوّرها رسّامو المنطقة رأس مليء مستدير تماماً، وشعر خرنوبي مسترسل ينقسم عند الجبين إلى عصبتين، وعينان رماديتان على خضرة، وذراعان بضئتان، وجسم مليء لا يؤثر على جمال القوام، ومظهر خجول، لكن على جبينها العريض المتعالي رزاة تحتجب بسكون ولطف ظاهرين؛ ودون أو تركن إلى

(١) النشرة التاسعة والعشرون: هي النشرة التي أصدرها نابوليون في ٣ كانون أول ١٨١٢ ووصلت إلى باريس في ١٨ منه تنبئ الشعب الفرنسي بتراجع الحملة على روسية. ونكبة برزينا: هي المفاجعة التي حلت بالجيش الفرنسي أثناء اجتياز النهر وقد ورد ذكرها في طبيب الريف .

الحنن أو الكآبة، لم يكن يبدو عليها كثير من الابتهاج، فالتفكير والنظام، والشعور بالواجب وهي التعابير الرئيسة الثلاثة في الطبع الفلمندي تتجلى في هذا الوجه الذي يبدو بارداً للوهلة الأولى لكن النظر يترد إليه ثانية منجذباً بما يبدو في قسماته من لطف وأنفة رائعة هي ضمان السعادة العائلية.

بغربة لم يتمكن الفيزيولوجيون من تحليلها، لم يكن يبدو على مرغريت أي شبه بأمها أو أبيها، إنما هي صورة حية عن جدّها لأمّها أحد أفراد عائلة كوينيك من بروج الذي ما يزال رسمه المحتفظ به بعناية يشهد على هذا الشبه بثّ موعد العشاء الحية في الحفلة، وإذا كانت نكبة الجيش قد حالت دون متعة الرقص، فإن معظم الحاضرين فكّر بأن يجب ألا تحرمه من طيبات المائدة. لكن المتحمسين للوطن انسحبوا بعدما بسرعة، أما اللامبالين فقد بقوا مع بعض هواة اللعب والعديد من أصدقاء كلايس، لكن ذلك المنزل الذي كان يشعّ بالأضواء والذي هرع إليه أعيان نوي أخذ يخيم عليه السكون شيئاً فشيئاً، وحوالي الساعة الواحدة صباحاً خلت القاعة الكبرى وبدأت الأنوار تخدم بين صالة وأخرى وأخيراً خيّم العتمة على البهو الداخلي الذي كان يلتمع بالأضواء ويضجّ بالحركة، وكأنها نذير ينبئ بالمستقبل القاتم الذي ينتظر تلك العائلة.

وعندما أوى الزوجان إلى مخدعهما، أطلع بلتزار زوجته على رسالة البولوني لكنها أعادتها إليه بحركة حزينة فقد كانت تتوقع المستقبل، الواقع أن بلتزار بدءاً من ذلك اليوم، لم يستطع أن يخفي الكآبة والضجر اللذين حلّا به؛ فهو في الصباح بعد أن تتناول العائلة فطورها، يداعب لفترة جان الصغير في غرفة الجلوس، ثم يتحدث مع ابنتيه المشغولتين بالخياطة أو التطريز، أو شغل المخرمات، لكن كان يبدو عليه التعب سريعاً من هذه المحادثة وتلك المداعبة، فكانهما واجب يتحتم القيام به، وعندما تنزل زوجته بعد ارتداء ثيابها، تجده يجلس دائماً على أريكة عريضة يتأمل مرغريت وفليسيا دون أن يملّ من ضجّة بكراتهما، وعندما تصل الصحيفة فإنّه يقرؤها بتمعّن كتاجر متقاعد لا يعرف كيف يمضي الوقت؛

ثم ينهض ويتأمل السماء عبر زجاج النوافذ، ويعود ليجلس أو يذكي نار المدفأة وهو سارح في حلم رجل تبعه عنه هيمنة أفكاره الشعور بحركاته. كانت السيدة كلايس في ذلك الموقف، تأسف بشدة على نقص ثقافتها وضعف ذاكرتها، إذ يصعب عليها أن تستمر لمدة طويلة في محادثة ممتعة؛ زد على أنه قد يستحيل على كائنين استنفدا الكلام أن يسعيا إلى التفتيش عن مواضيع للهو خارج حياة القلب أو الحياة الواقعة. فلحياة القلب أوقاتها وهي تتطلب المواجهة، وتفاصيل الحياة الواقعية لا يمكن أن تشغل طويلاً النفوس التي ألقت أن تقرر بسرعة والمجتمع لا تتحملة الأرواح المتحابة، فالكائنات المنعزلان المتعارفان كلياً، يجب إنذاراً أن يفتشا عن انشراحهما في أسمى مراتب الفكر إذ يستحيل أن تواجه المدى الواسع بالأشياء ألتافهة، ثم أن الرجل الذي تعود أن يعالج الأمور الكبيرة-تصعب تسليته إن لم يحتفظ في صميم قلبه بهذا الأساس من البرامة، وهذه العفوية التي تجعل الرجال العباقرة في لفهم الأطفال، لكن هذه الطفولة في القلب ظاهرة بشرية نادرة جداً لدى أولئك الذين يعتبرون أن مهمتهم أن يروا كل شيء، ويعرفوا كل شيء، ويدركوا كل شيء.

تمكنت السيدة كلايس خلال الأشهر الأولى أن تتخلص من هذا الوضع الحرج بجهود خارقة، أوحى لها بها الحب أو الضرورة؛ فقد أرادت حيناً أن تتعلم لعبة طاولة الزهر التي لم تمارسها أبداً في السابق، وتمكنت بأعجوبة أن تحقق هدفها، ودقعت حيناً آخر بلتزار إلى الاهتمام بتثقيف ابنتيه طالبة منه توجيه مطالعاتهما؛ وقد نفذت هذه الوسائل، وجاءت لحظة وجدت جوزفين نفسها أمام بلتزار كما السيدة دى منتنون أمام لويس الرابع عشر، لكن بدون أن يكون لها من أجل تسلية السيد المتخامد، لا أبهات السلطان ولا حيل البلاط الذي يعرف كيف يمثل ألف ملهاة كملهاة رسول ملك سيام^(١) أو صوفي العجم؛ فالملك

(١) ملهاة يذكر قولتير أن واضعها هو صاحب جائزة من سيفالونية (اليونان) اسمه فالك كونسنانس، في العام ١٦٨٤.

الذي تصاغر بعد أن استهلك فرنسا إلى التماس ذرائع ابن العائلة الموسرة، قد فقد الشباب والنجاح وشعر بعجز رهيب وسط هذه العظام؛ لكن المربية الملكية التي عرفت كيف تهدد الأولاد لم تكن تعرف دائماً كيف تهدد الملك الذي كان يعاني من إسرافه في استغلال الأشياء والناس والحياة، وحتى الآلهة، لكن كلايس كان يعاني من فرط الطاقة، إذ أنه وهو المعذب بفكرة تضيق عليه الخناق يحلم بأبهات العلم التي تعود على الإنسانية بالكنوز وعليه بالمجد، إنه يتألم كما يتألم الفنان الذي يصارع الشقاء، كشمشون الذي شد وثاقه إلى أعمدة الهيكل. لقد كانت النتيجة واحدة بالنسبة لهذين العاهلين، فعاهل العلم قد أزهقته قوّته وعاهل السلطان خمدّه شعوره بالضعف.

ماذا يمكن أن تفعل بيتنا وحدها أمام هذا التوق العلمي؟ فبعد أن استغلت الوسائل التي هيأتها لها الاهتمامات العائلية لجأت إلى المجتمع تطلب منه المساعدة، قدعت إلى حفلاتي تناول قهوة أسبوعياً، والقهوة في نوي تحلّ محل الشاي، وحفلاتها أمسية كاملة يتناول فيها المدعوون الخمور المعتقة والمشروبات الروحية التي تطفح بها أقبية تلك البلاد السمحة، ويأكلون الحلويات، ويشربون القهوة السادة أو الممزوجة بالحليب والمبرّدة بالثلجات بينما تترنّم النساء بالأغاني العاطفية، أو يتحدثن عن مستجدات الزينة أو يثرثرن بشائعات المدينة أنّها مناظر لوحات ميريس أو تربرع^(١)، لكن بدون الريشات الحمراء التي تزين القبعات الرمادية المقرّنة، وبدون قيثرات وملابس القرن السادس عشر البهية. لكن الجهود التي يبذلها بلتزار في تلك الحفلات ليبدو بدور سيد المنزل المضيف، وبشاشته المتكّلفة، ومظاهر تلاطفه، كلّها تعبر عن عمق الألم الذي ينكشف بما يبدو عليه من تعب في اليوم التالي.

هذه الحفلات المستمرة، وهي مسكّنات ضعيفة، تؤكّد خطورة الداء؛ والأغصان التي يتعلّق بها بلتزار وهو يتدحرج نحو الهوة، كانت تؤخّر سقوطه لكنها تجعله أكثر ثقلاً؛ وإن كان لم يتحدث أبداً عن اهتماماته السابقة، ولم

(١) من الرسّامين الهولانديين في القرن السادس عشر والسابع عشر

تصدر عنه بادرة أسف وهو يشعر باستحالة ما وضع فيه نفسه من التزام بعدم العودة إلى تجاربه، فإن في حركاته الكثيرة، وصوته الضعيف، ووهنه كأنه ناقة، البوادر المعبرة. كان مله يتفجر أحياناً حتى في الطريقة التي يأخذ بها الملاقط ليبنني دون انتباه في تار المدفأة أحد هذه الأهرامات العجيبة من قطع الفحم الحجري. كانت تظهر عليه الغبطة عند حلول المساء فالنوم يبعد عنه دون شك فكرة ملحة، لكنه ينهض في اليوم التالي أكثر كآبة إذ يقدر صعوبة النهار الذي ينبغي عليه اجتيازه حاسباً الوقت الذي سيمر متباطئاً، كمسافر أثقل عليه خواء الصحراء التي يجتازها.

لئن كانت السيّدة كلايس تعرف سبب هذا السقام فإنّها كانت تجهد للتجاهل مدى الدمار الذي يحدثه. إنّها شديدة العزم أمام آلام النفس، لكنها واهنة القوى أمام مآثر القلب. هي لاتجرؤ أن تسأل بلتزار وهو يستمع إلى ملاحظات ابنتيه أو ضحكات جان، لكن ينظر الرجل المشغول بفكار أخرى؛ إنّما ترتعش وهي تراه ينفذ عنه الكآبة ويجرب بعاطفة سمحة أن يظهر فرحاً كي لا يحزن أحداً، وكانت مداعبات الأب لابنتيه، أو ملاحظته لجان تملئ عيني جوزفين بالدموع فتخرج لتخفي الانفعالات التي تسببها بسالة تعرف النساء جيداً ثمنها ومدى ما تحدثه من انقطاع في القلب. كانت تنتاب السيد كلايس الرغبة أحياناً لتصرخ: «اقتلني وافعل ما تريد». لقد بدت عينا كلايس تفقدان تدريجياً بريقهما الحيّ وتتحولان إلى ذلك اللون المزرق الباهت المعبر عن الغم في أعين العجائز وظهر التثاقل في اهتماماته بامراته وفي كلماته، وقد ازدادت هذه الأعراض خطورة في نهاية شهر نيسان بحيث أرعبت السيدة كلايس التي أصبح هذا المشهد بالنسبة لها، لا يحتمل، ولامت نفسها ألف مرة وهي تقدّر الإخلاص القلمندي الذي التزم بموجبه زوجها بالوعد الذي تعهّد به؛ وفي يوم بدا لها فيه بلتزار منهاراً أكثر من أي وقت مضى لم تتردد في أن تضحي بكل شيء لإعادته إلى الحياة. فاجأته بالقول: «ياصديقي، إنني أحلك من وعداك»

نظر إليها بلتزار بدهشة، فتابعت «إنك تفكر بتجاربك أليس كذلك؟» أجاب

«بلى» بحركة تذمر بحيويتها، لكن السيدة كلايس التي كانت قد أمعنت التفكير بمدى اللجة التي سيفوصان فيها، هي أبعد الآن من أن توجه إليه أي عتب أو لوم، إنَّما تناولت يده وشدَّت عليها وهي تبتسم قائلة: «شكراً يا عزيزي، إنني واثقة من قدرتي، لقد ضحيت من أجلي بأكثر من حياتك؛ وقد جاء دوري الآن بالتضحيات؛ وبالرغم من أنني قد بعث بعض جواهري، فما يزال لدي، إضافة إلى ماورثته عن أخي، بعض ما أمدك به من مال يلزمك لمواصلة أبحاثك. لقد كنت أفكر أن أحفظ بهذه الحليّ لابنتي لكن مجدك سيزينهما بما هو أفخر منها، زد على أنك ستجدد لهما يوماً جواهر أكثر جمالاً.

زادت الغبطة التي نمت عنها أسارير كلايس في قنوط جوزفين، فقد أدركت بالأم أن هوى هذا الرجل أشد قوة من ذاته. لقد كان كلايس على ثقة بمشروعه بحيث يدرج دون أن يرتعش على مسار يؤدي به، في رآيها إلى الهوة. إنَّ له الإيمان واليقين ولها الشك والحمل الثقيل: ألا تتألم المرأة دائماً من أجل اثنين؟ إنَّها في هذه اللحظة تقنع بالإيمان بالنجاح، تريد أن تبرّر لنفسها تواطؤها في الهدر المحتمل لثروتهما. «إنَّ حبي لك مدى الحياة لن يكفي للعرفان بجيميل تضحيتك يا بيتا» قال كلايس وقد غمره الحنان.

ماكاد ينهي هذه الكلمات حتى دخلت مرغريت وفليسيا يوجّهان لهما التحية، وغضمت السيدة كلايس ببصرها، وبقيت اللحظة منذهلة أمام ابنتيهما اللتين استلبت ثروتهما لمصلحة وهم، بينما أخذهما والدهما على ركبتيه وأخذ يحدثهما بانشرّاح وقد أسعده أن يتمكن من التعبير عن الغبطة التي تملكته.

منذ تلك اللحظة، دخلت السيدة كلايس في حياة زوجها المضطربة، فمستقبل أولادها ومقام زوجها كانا بالنسبة لها عاملين محركين بقوة مماثلة لعاملي المجد والعلم الدافعين لكلايس، وهكذا لم تعرف تلك المرأة التسعة لحظة من الطمأنينة بعد أن بيعت جواهر البيت في باريس، بواسطة الأب دي سوليس مرشدها، وبعد أن بدأ منتجو المواد الكيماوية يشحنون إرسالياتهم. كانت تتعرض دون انقطاع للقلق الذي يثيره شيطان العلم، وهذا الاندفاع في الأبحاث

الذي يغني زوجها، إنَّها تحيا في توقُّع مستمر، وتبقى كالميتة لأيام كاملة وقد تسمرَّت في مقعدها بتأثير عنف رغباتها بالذات التي لاتجد لها متنفساً كمتنفس بلتزار في أعماله المخبرية إنَّما تعذب روحها وهي تغذي شكوكها ومخاوفها. إنَّها تلوم نفسها أحياناً على مراعاتها لهوى يبدو لها هدفه مستحيلاً كما أدانه الأب دى سوليس، وهي تنهض وتذهب إلى نافذة الفناء الداخلي، وتنظر برعب إلى مدخنة المخبر، فإن تصاعد منها الدخان تأملته بقلوب فالأفكار المتشائمة تعصر منها القلب والروح، فهي ترى في هذا الدخان ثروة أولادها تتبدد؛ لكنها بذلك تنقذ حياة والدهم: أليس واجبها الأوَّل في أن تجعله سعيداً؟. هذه الفكرة الأخيرة أعادت إليها الهدوء للحظة. كانت قد حصلت على السماح لها بالدخول إلى المخبر، والبقاء فيه لكنها تخلَّت سريعاً عن هذه الترضية المحزنة، إذ أنَّها عانت من آلام شديدة الوطأة عندما رأت بلتزار غير مهتم بها، بل وظهر لها غالباً متضايقاً من وجودها، مما عرضها لنفاد صبر لا يحتمل ولرغبة قاسية في أن تفجر البيت فهي تتعرض فيه للموت من جراء ألف علَّة خارقة.

أصبح لمولكينيه بعد ذلك بالنسبة لها مماثلاً لمقياس ضغط، فإن سمعته يصفر وهو يروح ويجيء لتقديم الغداء أوالعشاء، فهذا يعني أن تجارب زوجها ناجحة، وأنه يعقد الأمل على نتائج سارة قريبة، وإن بدا لمولكينيه عابساً مكفهر الوجه، فإنها تنظر إليه بالأم لأن بلتزار غير راض. لقد توصلت السيِّدة والخادم إلى نوع من التفاهم رغم الإذعان المتعجرف لهذا والأنفة المتعالية لتلك. إنَّها ضعيفة وعزلاء أمام إنهاكات الفكر الرهيبة، فهي ترزح تحت تناوبات من الرجاء واليأس تزيد في اضطرابات المرأة المحبَّة، وفي هموم الأم القلقة على عائلتها. لقد أصبح الصمت المكدر الذي رمى الصقيع سابقاً في قلبها، يتشارك دون أن تدري مع المظهر القاتم الذي خيم على المنزل ومع الأيام الكاملة التي تمرَّ على قاعة الجلوس دون ابتسامة وغالباً دون كلمة؛ وفي توقع أمومي متشائم عودت ابنتيها على أعمال المنزل، وجريت إكسابهما مهارة في بعض أشغال النساء لتمكنا من العيش إن أُلئت بهما الفاقة، فهذه هذا البيت كان يحضن إذأ قلقاً مخيفاً.

في نهاية الصيف كان يلتزار قد أنفق ثمن الجواهر المباعة في باريس بواسطة الأب العجوز دي سوليس، وتراكت عليه ديون لدى بروتز وشيفرفيل تقدّر بعشرين ألف فرنك في آب ١٨١٣، أي بعد عام تقريباً من المشهد الذي بدأت به هذه الرواية، كان كلايس قد قام ببعض التجارب الممتعة التي احتقرها للأسف، إذ أن جهوده بالنسبة للهدف الرئيس من أبحاثه كانت بدون نتيجة، وفي اليوم الذي أنهى به سلسلة أعماله كان الشعور بعجزه يسحقه، واليقين بأنه قد بدّد مبالغ معتبرة من المال دون طائل يقنطه، إنها كارثة مرعبة بالنسبة له.

غادر سقيفته ونزل بهدوء إلى غرفة الجلوس، وألقى بنفسه على أريكة وسط أولاده، وبقي للحظات كأنه ميت، لا يجيب على أسئلة زوجته التي تلاحقه، واغرورقت عيناه بالدموع فهرب إلى جناحه كي لا يظهر مايعانيه من الألم.

تبعته جوزفين وأحضرتة إلى غرفتها حيث ترك قنوطه يتفجر وهو وزوجته منفردان. هذه الدموع في عيني رجل، وهذه الكلمات من فنان يائس، وهذه التأسفات من ربّ عائلة، انطبعت بطابع دمر وحنان وجنون سبّب للسيد كلايس ألماً فاقت جميع آلامها الماضية، وكان على الضحية أن تواسي الجلاد. وعندما قال يلتزار بلهجة تصميم مرعبة: «إنني رجل بائس، لقد غامرت بحياة أولادي، وبحياتك، ويجب عليّ أن انتحر لأترككم سعداء»؛ أصابت هذه العبارة صميم قلبها، وخشيت وهي العارفة بطبع زوجها أن ينفذ في لحظة قنوط عزمه، وأحسّت بإحدى هذه الثورات التي تعكّر الحياة من منابعها، ومايزيد في خطورتها أن بيتنا مضطرب أن تكبت عنيف نتائجها بالتظاهر بهدوء كاذب؛ وهي تقول: «لقد استشرت ياعزيزي غير ببيركين الذي أخشى أن تكون صداقته ليست بالقدر الذي لايتمنى فيه سراً خرابنا، ومستشاري العجوز هو بالنسبة لي بطيية الأب، إنه الكاهن دي سوليس، معرّفي، وقد أجزاني نصيحة تنقذنا من الإفلاس. لقد تفحص لوداتك، وثن ما هو موجود منها في الصالة الكبرى يمكن أن يسدّد المبالغ المرتفعة عليها عقاراتنا وما يتوجب عليك لتجر بروتز وشيفرفيل، إذ لاشك أن له مبلغاً متوجب السداد».

أوماً كلايس برأسه إيجاباً فبدا رأسه وقد جلّله الشيب.

إن الأب دي سوليس يعرف آل هاپ ويدنكر في امستردام، وهم من غلاة هواة اللوحات، وعلى شوق كمحدثي نعمة ليتفاخروا بأبهة لم تتج إلا للبيوتات العريقة، لذلك فهم مستعدون لشراء لوحاتنا يكامل ماتستحقه من قيمة، وهكذا يمكننا أن نسترد دخلنا ويمكنك أن تأخذ من الثمن الذي يقارب مئة ألف دوقية قسماً تتابع فيه تجاريك. انني وابنتيك نكتفي بالقليل، ومع الزمن وبشيء من التوفير يمكننا أن نوّمن لوحات أخرى تحلّ محل المباعه، وتعيش سعيداً!

رفع بليتزار رأسه نحو امرأته وقد بدت على سيمائه غبطة ممزوجة بالخشية؛ لقد انقلبت الأدوار فالزوجة أصبحت حامية الزوج.

أحاط هذا الرجل الزائد الحنان ذو القلب الصامد نسبة إلى قلب جوزفين، زوجته بذراعيه دون أن يلحظ اختلاج قلبها الذي يخفق بشدة تبدّت في رعشة عصبية على شعرها وشفتيه

- لا أجرو أن أقول لك أنه لم يعد بيني وبين الكشف عن المطلق إلا مسافة شعرة. إذ لا ينقصني لتفويض المعادن إلا أن أجد وسيلة لاختضاعها لحرارة شديدة في وسط يكون الضغط الجوي فيه معدوماً أي فراغ مطلق.

لم تستطلع السيدة كلايس أن تتحمل ماتبدّي في هذا الجواب من أنانية لقد كانت تنتظر بوارد شكر عميق على توضيحاتها فإذا بها تلقى قضية كيميائية فتركت فجأة زوجها، ونزلت إلى غرفة الجلوس، وتهاكت على الأريكة بين ابنتيها المذعورتين، وأجهشت بالبكاء، وأخذت مرغريت وفليسيا، كل منهما بإحدى يدي أمهما، وجثتا إلى جانبها وهما تبكيان دون أن تعرفا سبب هذا الحزن وهما تسألانها بالراح: «مالك ياأمي».

«يا أولادي المساكين، إنني احتضر، انني أشعر بالموت»

دب الذعر في قواد مرغريت من هذا الجواب، وقد رأت على وجه أمها لأول مرة هذه الصفرة الباهتة التي تميّز نوي الوجوه السمرء.

صاحت فليسيا: «مرتاً، مرتاً، اسرعي إلينا، فوالدتي تحتاجك»، أسرع

المربية العجوز من المطبخ وعندما رأت البياض المخضر على وجه سيّدتها الداكن قليلاً في سممرته والملوّن بقوة عادة صاحبت بالاسبابنية «بحق المسيح إن سيّدي تموت!» وخرجت مسرعة ونادت جوزيت لتسخن ماء لتدفئة رجلي سيّدتها وعادت إلى قريها.

صاحت السيدة كلايس: «لا ترعبي سيّدك يامرتا، ولا تقولي له شيئاً». ثم التفتت إلى ابنتيها وضمتّهما بشدة إلى صدرها بحركة يائسة وقالت: «ياابنتي العزيزتين أريد أن أعيش إلى الوقت الذي أراكما فيه متزوّجتين وسعيدتين» ثم توجهت إلى مرتا وطلبت منها أن تخبر مولكيني بضرورة الذهاب إلى الأب دى سوليس ليطلب منه الحضور لتقابلتها.

كان لابدّ لهذا الأمر الجلل أن ينعكس حتى على المطبخ، فجوزيت ومرتا، وهما المخلصتان لسيدتهما وابنتيها، شعرتا بدافع هذه المحبة الوحيدة لديهما بضرية توجه لهما، وسمعت هذه الكلمات المربعة: «إن السيدة تحتضر، لقد سبّب لها السيّد الموت، عجّلي بحمام ماء ساخن مع الخردل لرجليها!» مما دفع جوزيت إلى توجيه اللوم ببعض عبارات استهجان للمولكيني الذي كان يأكل بلا مبالاة ويبرود وهو يجلس إلى زاوية المائدة أمام إحدى النوافذ التي يأتي منها نور الفناء إلى المطبخ حيث يبدو كل شيء نظيفاً كصالة استقبال صغيرة في منزل خلية شابة.

«يجب أن ينتهي الأمر عند هذا الحدّ» قالت جوزيت موجّهة النظر إلى الوصيف وهي تصعد على طبلية لتأخذ عن رفّ قدرأ نحاسياً يلتصق كالذهب، وتابعت: «مامن أم يمكن أن ترى ببرود أباً يتسلى بتبديد ثروة كما يفعل السيّد» كانت جوزيت وقد اعتمدت بغطاء رأس ذي كشاكش يشبه كسّارة بندق ألمانية، تحدج لمولكيني بحدة بدت فيها خضرة عينها الصغيرتين الحمراوين كأنها تقطر سمّاً، وهزّ الوصيف العجوز كتفيه لا مبالياً بحركة جديرة بمثل برم ليرابو، ثم حشّا فمه بشطيرة ملأى بالزبدة والمقليات، وهو يقول: «كان يجب على السيدة بدلاً من أن تزعج السيّد أن تمدّه بالمال، فسندفوق قريباً أثرياء نلعب بالذهب، فيجب ألا يضمن حتى بالفلس الذي لانجده»

- حسن، لماذا لاتمد السيد ببعض مالك، وأنت تضع بالفائدة عشرين ألف فرنك؟ إنه معلمك ويبدو أنك واثق من نتائج أعماله وتصرفاته
- «أنت لاتفهمين من هذا الأمر شيئاً يا جوزيت، إذهبي إلى تسخين مائك»
أجاب الفلمندي مقاطعاً الطباخة.

- إن فهمي يعني أن هذا المكان كان يحوي ألف مارك^(١) من الفضيّات عملتم على صهرها أنت وسيدك، وأنه إن سمح لكما بالسير على هذا المنوال، فالدينار بين أيديكما يغدو درهماً بحيث لاتبقيان على شيء.

- وتدخّلت مرتا قائلة: «والسيد سيسبّب الموت للسيدة ليتخلص من امرأة تردعه وتمنعه من أن يبتلع كل شيء، لقد ركبه الشيطان هذا واضح! إنك تجازف بروحك وأنت تساعد يامولكينييه، هذا إن كان لك روح، إذ أنني أراك كقطعة جليد بينما كل من هنا يتفطر حزناً وأسى وهاتان الأستان تكيان كالمنجدلية، هيّا أسرع لاستدعاء الأب دي سوليس.

- إن سيدي قد كلفني بترتيب بعض الأشياء في المخبر، وحيّ اسكرشن بعيد جداً عن هنا، فاذهبي إليه أنت.

- انظروا هذا المسخ! قالت مرتا، «ومن يغسل للسيدة رجليها؟ أتريد تركها تموت؟ فالدم يفور في رأسها.

كانت مرغريت قد دخلت إلى المطبخ من الغرفة المجاورة وقالت: «مولكينييه، عليك عند العودة من استدعاء الأب دي سوليس، أن تمرّ على الطبيب ببيركن ترجوه أن يحضر سريعاً إلى هنا.

- «ألا تذهب الآن؟» قالت جوزيت.

- «لقد طلب في سيدي، يا آنسة، أن أرتب له مخبره» أجاب لمولكينييه وهو يلتفت إلى الإمرأتين بنظرة متحدية

- توجهت مرغريت إلى والدها وقد رأته ينزل السلم: «ألا يمكنك ياوالدي أن تتخلّى لنا عن لمولكينييه الآن لإرساله في مهمة إلى المدينة؟.

(١) المارك: وزن قديم يعادل ٢٤٤.٧٥ غرام.

قالت مرتا وهي تسمع السيد كلايس يطلب من لولكيه الاستجابة لطلب ابنته «ستذهب الآن أيها الصيني الخبيث»

قلة وفاء الوصيف للمنزل كانت موضوعاً مستمراً للجدل بين المرأتين ولولكيه الذي كان يثير ببروده تعلّق جوزيت والمربية بسيدتهما. وقد أثر هذا الصراع على صغاره ظاهرياً على مستقبل العائلة، عندما احتاجت فيما بعد إلى المساعدة ضد نوب الدهر. كان بلتزار شاردأ بحيث لم يلاحظ الحالة المرضية لجوزفين، وقد أخذ جان على ركبتيه وجعله ينطّ بحركة آلية وهو يفكر بالمشكلة التي أصبح بمقدوره حلّها؛ وقد رأى زوجته تعالج بحمام مياه ساخنة لرجليها، ولاتستطيع أن تنهض عن الأريكة التي استلقت عليها في غرفة الجلوس، كما لاحظ ابنتيه تهتمان بأمرهما دون أن يفتش عن سبب هذه العناية المشدّدة، وعندما أراد جان أو مرغريت الكلام، طلبت منهما السيدة كلايس الصمت مشيرة إلى بلتزار. كان طبيعياً لمشهد مماثل أن يدفع مرغريت، الموجودة بين أبيها وأمها، وهي في عمر يمكّنها من الحكم على السلوك، أن تفكّر في هذا الوضع ملياً. إن الحياة الخاصة للعائلات تمرّ بفترة يصبح الأولاد فيها إرادياً أو لا إرادياً حكاماً على ذويهم؛ وقد أدركت السيدة كلايس حرجة هذا الوضع، ودفعها حبها لبلتزار إلى أن تبرّر أمام عيني مرغريت ما يبدو في ذهن فتاة في السادسة عشر من عمرها، زلّت للأب. هكذا فإن الاحترام العميق الذي أبدته السيدة كلايس في ذلك الظرف لبلتزار وهي تنزوي أمامه، كي لا تعكّر تأملاته قد وسّم بطابع من الرعب جلال الأبوة في نفوس الأولاد؛ لكن هذا التفاني، أيّاً كانت عدواه، قد زاد إعجاب مرغريت بأمّها، التي تشاركها بصورة خاصة أحداث الحياة اليومية هذا الشعور كان قائماً على نوع من التنبؤ بالآلام التي اهتمت الفتاة طبعاً، بمعرفة سببها؛ وما من قوّة بشرية تستطيع أحياناً أن تحول دون تسرّب كلمة من مرتا أو جوزيت فتكشف لمرغريت عن أصل المشكلة التي يغوص فيها البيت منذ أربع سنوات، وبالرغم من تكتم السيدة كلايس فإن ابنتها أخذت تلمّ شيئاً فشيئاً، وببطء، وخيطاً بعد خيط، بالشبكة الغامضة التي تلفّ

هذه المأساة العائلية؛ وهكذا أصبحت مرغريت، بعد فترة معينة موضع ثقة أمها، وتلك التي يُخشى أكثر ما يكون حكمها، لذلك وجّهت السيدة كلايس إليها كل عنايتها، لتجرب أن تغرز فيها معنى تضحياتها لبلتزار، فحزم وتعقل ابنتها يُدبان في نفسها القشعريرة لمجرد التفكير بإمكان قيام صراع بين مرغريت وبلتزار، عندما ستكون الابنة ربة البيت بعد موت الأم؛ فهذه المرأة البائسة وصلت إذاً إلى التخوّف من عقابيل موتها أكثر من خوفها من الموت نفسه؛ وتجلّى اهتمامها ببلتزار في قرار اتخذته يقوم على أن تحرّر أملاك زوجها من الرهن، فتؤمن له الاستقلال، وتتقي كل نزاع مستقبلي بالفصل بين مصالحه ومصالح أولاده، وبذلك تأمل أن تراه سعيداً حتى اللحظة التي يفلق الموت فيها عينيها؛ كما اعتمدت على أن تورث ابنتها رقة قلبها فتتابع من بعدها، قرب والدها، لعب دور ملاك الحب، بممارستها على العائلة سلطة وصائية ومحافظة، أليس في ذلك انعكاس حبّها من أعماق القبر على أولئك الذين تحبهم؟ غير أنّها لاتريد أن يفقد الأب الخطوة في عيني ابنته باطلاعها في وقت مبكر على ما يثيره هوس بلتزار العلمي من مخاوف لديها، إنّها تدرس روح وطبع مرغريت لتحكم عمّا إذا كانت هذه الشابة ستغدو من تلقاء نفسها أمّاً لأخويها وأختها، وعوضاً، عن الزوجة الرقيقة الحنون لوالدها؛ وهكذا كانت الأيام الأخيرة للسيدة كلايس معكّرة بهذه الحسابات والمخاوف التي لاتستطيع أن تفشي سرّها لأحد؛ وقد اندفعت بشعورها أنّ حياتها بالذات قد تآثرت بالموقف الأخير، إلى توجيه نظرها إلى المستقبل، قبلتزار من الآن فصاعداً، لايغير اهتماماً لكل ما يسمى اقتصاد أو ثروة أو عواطف عائلية، وهو منصرف لإيجاد المطلق.

لم يكن يقطع الصمت العميق الذي يسود غرفة الجلوس إلا الحركة الرتيبة لرجل كلايس التي استمرّت في اهتزازها دون أن يلاحظ أن جان قد نزل عنها؛ وكانت مرغريت الجالسة قرب أمّها ترقب وجهها الشاحب والمتشنج، تلتفت من وقت إلى آخر نحو والدها وقد أدهشها أجمود عاطفته؛ ومن ثم سُمع صرير

البوابة المطلة على الشارع وهي تفتح وتغلق، ورأت العائلة الأب دي سوليس وهو يجتاز القناء مستنداً إلى ذراع ابن أخيه.

«آه، هوذا السيد امانويل» هتفت فليسيا.

- «الشاب الطيب، تسرني رؤيته ثانية» قالت السيدة كلايس وهي ترى

إمانويل دي سوليس.

توردّ خدا مرغريت وهي تستمع للمديح الذي بدر من أمّها، فمنذ يومين أيقظ هذا الشاب في قلبها عواطف لم تكن تعرفها من قبل، وأحيا في ذهنها خواطر كانت هامة حتى الآن. لقد مرّت خلال الزيارة التي قام بها المعرف لتائبه بعض هذه الأحداث التي لاحسّ بها لكنها تلعب دورها في الحياة؛ ولنتائجها أهمية تتطلب اظهار صورة هاتين الشخصيتين الجديتين اللتين ظهرتتا في محيط العائلة. كان من مبادئ السيدة كلايس أن تتمّ سرّاً طقوس ورعها الديني في الاعتراف والتناول، وكان مرشدها الروحي غير معروف تقريباً في وسطها العائلي، فهذه هي المرة الثانية فقط التي ظهر فيها في بيتها. وقد أثار مظهر العم وابن الأخ فيها، كما في التي سبقتها، إحساساً بالعطف والإعجاب؛ فالأب دي سوليس عجوز في الثمانين من العمر، ذو شعر فضي، يظهر وجهاً مهدماً كأن الحياة غارت من عينيه، وهو يمشي بصعوبة، إذ أن إحدى ساقيه النحيلتين تنتهي بقدم مشوّهة بشكل مربع، وهي موضوعة في غلاف مخملي، وتلزمه باستعمال عكان عندما لا يستند إلى ذراع ابن أخيه. ظهره المقوّس وجسمه اليابس يظهران طبيعة متألمة وواهية، تسيطر عليها إرادة من حديد وروح دينية طاهرة حافظت عليها. هذا الكاهن الاسباني الأصل المتميّز بمعرفة عميقة وورع حقيقي، ومعلومات شديدة السعة كان على التتابع دوميستيكاً، ثم مرشداً روحياً في طليطة، فوكيلاً عاماً لبطيركية مالين، ولولا الثورة افرنسية لأوصلته حماية آل كازا - ريال، إلى أعلى المراتب الكنسية، لكن الحزن الذي خلفه موت الدوق الشاب، تلميذه جعله يسأم الحياة العامة، وينصرف بكلّيته إلى تربية ابن أخيه، الذي تيمّم في سن مبكرة. وخلال غزو

بلجيكة استقر قرب السيدة كلايس، وقد أظهر منذ شبابه حماساً للقديسة تريز قاده، مع ميل في تفكيره، إلى الناحية الروحية في المسيحية، وقد وجد في الفلاندر حيث للأنتسة بورنييون^(١) وكذلك للكتاب أصحاب الرؤيا والمتصوفين الطمانينيين^(٢) كثير من الأتباع، مجموعة من الكاثوليكين أولعت بمعتقداته واعتبرته بطريقها فعاشر بينهم مستمراً وإياهم على اتباع مذهب المتصوفين رغم التحريم الكنسي لمؤلفات السيدة غيون^(٣) وفنيلون^(٤). كان صارماً في عاداته، ومثالياً في حياته، وقد عرف عنه أنه قدمراً بحالات إشراق^(٥)؛ وبالرغم من الزهد الذي ينظر به كورع شديد التدنّ إلى أمور هذا العالم، فإن الحبّ الذي يكنّه لابن أخيه جعله يهتم بمصالحه؛ وعندما يتطلب الأمر البذل لإحسان، فإن العجز يحرض المؤمنين في كنيسة على المساهمة بسخاء قبل أن يلجأ إلى ثروته الذاتية، وكان له من سلطته الأبوية النافذة، وغاياته الخالصة النقاء، ورجاحة فكره التي لاتضلّ، ما يدفع الجميع إلى تلبية مطالبه أما التباين بين العم وابن أخيه فهو أشبه بالفرق بين شجرة السوحر العجفاء تمدّ جذورها ترتشف الحياة من ضفة النهر وطرد النسر ينمرع بالورد ويسامق بفرعه الزاهي السماء وهو يلفّ الشجرة المطحلبة يحول بينها وبين الإنهيار.

رَبَّى العم إمانويل بقسوة، واحتفظ به قربه كما تحتفظ السيّدّة المسنّة بالعذراء، فامتلات نفس الشاب بهذه الحساسية السريعة الانفعال، وهذه البراءة

(١) انطوائيت بورنيون: فتاة من ليل ولدت في العام ١٦١٦، وكانت شديدة الدمامة، اعتزلت الناس منذ صغرها وانصرفت إلى قراءة كتب التصوّف والرؤيا، تجوّلت في الفلاندر والمائة حتى موتها في العام ١٦٨٠ وألفت ما لا يقل عن اثني وعشرين كتاباً في التعبّد الداخلي والتصوّف.

(٢) الطمانينيين: اتباع مذهب يرى أن الكمال يقوم على حب الله وسكون الروح

(٣) مدام غيون (١٦٤٨ - ١٧١٧): كانت امرأة رائعة الجمال، تزلت وهي في الثامنة والعشرين، وانصرفت إلى حياة الزهد والتصوّف.

(٤) فنيلون (١٦٥١ - ١٧١٥): رجل دين وتربية، كان مربياً لبوق دي بورغوني، عارض بيانه لويس الرابع عشر، فنقم عليه انسحب إلى دير، وله مؤلفات تربوية ودينية.

(٥) الاشراق: حالة يغيب فيها المتصوّف عن الشعور وعالم الحسّ.

نصف الحالة، أزهار تمرّ على جميع الشباب لكنها ترسخ في النفوس التي تتغذى بالمبادئ الدينية. لقد حشد الكاهن الشيخ خلاصة العواطف المثيرة لدى تلميذه فأعده لتحمل آلام الحياة بمشاغل متواصلة، ونظام أشبه بنظام الأديرة. هذه التربية التي من شأنها أن يطلّ منها إيمانويل بكامل جدّته على المجتمع، فينعم بأوائل عواطف الودّ إن لقي الطيبة، أضفت عليه مظهراً ملائكياً أكسب شخصيته جاذبية تسحر الفتيات، فعيناه الخجلتان يتضاعف بريقهما بالتعبير عن نفس قوية شجاعة فيرفّ ألقهما في الروح كرنين تموجات صوت البلور في السمع، ووجهه المعبر رغم انتظامه يستلقت النظر بحسن استدارته، ودقة تقاسيمه، والهدوء العميق الذي يكسب القلب الطمأنينة. كل شيء فيه متناسق، شعره الأسود، وعيناه وحاجباه بدكنتهما السمراء تبرز بياض بشرته وتلوّنها النضر، في صوته عذوبة متوقعة عن هذا الوجه الجميل، وحركاته الأنثوية تتوافق مع موسيقى صوته، والصفاء الحنون في نظرتة؛ ويبدو أنه يجهل الجاذبية التي يثيرها التحفظ شبه الكئيب في موقفه، والاعتدال في كلامه، والعناية المغلفة بالاحترام التي يحيط بها عمّه؛ فبرؤيته يدرس المشية المتعرّجة للكاهن العجوز ليتلاءم مع انعطافاته المؤلمة بطريقة لاتعاكسه، ويتطلع إلى البعيد ليتقي مايمكن أن يسبب الأذى لقدميه، وليقوده في المنحى الصائب يسنحيل عدم الإقرار بما في نفس إيمانويل عن عواطف كريمة تجعل من الإنسان كائناً سامياً. إنه يبدو كبيراً بمحبته لعمه دون أن يحاسبه، وبإطاعته له دون مناقشة وبالاسم العذب الذي أطلقته عليه عرّابته قرأى كل انسان فيه قدراً محبباً له؛ وعندما يفرض العجوز هيمنته كدومينيكي سواء في منزله أو لدى الآخرين، فإن إيمانويل يرفع رأسه أحياناً بشهامة كأنه يحتج على قوته إن وجدت في صراع مع رجل آخر، بحيث أن أصحاب القلوب الكبيرة ينتابهم التأثر، مثلهم مثل الفنانين أمام تحفة متميّزة، فالعواطف الطيبة ترن أصدائها في الروح أمام التصرفات الحيّة كمثل رنينها أمام إنجازات الفن.

كان إيمانويل قد رافق عمه عندما حضر لدى المؤمنة بورعه ليفحص

لوحات منزل كلايس، وعندما تلقت مرغريت من مرتاً نبأ وجود الأب دي سوليس في الصالة الكبرى، تذرعت بتعلةٍ لترى هذا الرجل الشهير، ولحقت بأمها لتشبع فضولها، ودخلت بطيش تقريباً متكلفة الخفة التي تتذرع بها الفتيات لإخفاء رغباتهن، وصادفت قرب العجوز المكتسي بالسواد، والمنحني الظهر، والأورب، والشبيه بالجنّة، وجه إيمانويل النضر العذب، وتلاقت نظرات هذين الشابين المتماثلين في فتوّتهما، وبراعتهما، معبرة عن الدهشة ذاتها.

لاشك أن مرغريت وإيمانويل قد تصوّر كل منهما الآخر في أحلامه، فقد خفض كل منهما عينيه ثم رفعهما بحركة مماثلة معبراً عن شعور مماثل؛ وتناولت مرغريت ذراع أمها، وحدثتها همساً بوقار، فاحتمت إن صحّ القول تحت جناح الأمومة وهي تمدّ عنقها بحركة التّم لترى إيمانويل الذي بقي من جهته يسند عمه بذراعه؛ وبالرغم من أن النور كان موزعاً بمهارة لتظهر من خلاله قيمة كل لوحة، فإن ضعفه في الصالة كان ملائماً لهذه النظرات العابرة التي هي مصدر غبطة الأشخاص الخجولين. لاشك أنّهما لم يصلا حتى في التفكير إلى افتراض التجاوب العاطفي، لكن الاثنين كانا يشعران بهذا الاضطراب العميق الذي يهزّ القلب والذي يحتفظ الشاب بسرّه لنفسه سواء عن متعة أو عن حياءٍ إن الانطباع الأوّل الذي يحدّد فيض الحساسية الكامنة طويلاً يتبعه لدى جميع الشبان دهشة شبه رعاء تماثل تلك التي يشعر بها الأطفال عند سماع نغمات الموسيقى لأوّل مرّة؛ فبعض الأطفال يضحكون ثم يفكرون بما سمعوه، بينما بعضهم الآخر لا يضحك إلا بعدما ينتابه من تفكير، لكن أولئك الذين فطرت الروح فيهم لحياة الشعر أو الحبّ فيستمعون طويلاً، ويطلبون النغم مجدداً بنظرة تتقد فيها اللذة أو يفتقر عنها التوق إلى اللانهائي. إن كُنّا نحنُ باستمرار إلى مراحب طفولتنا، وقد فطرنا على الإحساس بجمال النغم، بحيث نتذكر الموسيقى وحتى الأداة بمزيد من اللذة، فكيف يمكننا أن نمنع أنفسنا من حبّ الكائن الذي كشف لنا لأوّل مرة عن نغمات الحياة؟ أليس القلب الأوّل الذي أوحى إلينا بالحبّ بمثابة الوطن؟. كان كل من إيمانويل ومرغريت، أحدهما

للآخر ذلك الصوت الموسيقي الذي يقظ الإحساس، وتلك اليد التي أراحت حجب الغيوم وكشفت عن الشواطئ التي تستحم بها شمس الهاجرة. فعندما توقفت السيدة كلايس مع الكاهن العجوز أمام لوحة لغيد^(١) تمثل ملاكاً، مدت مرغريت رأسها لترى انطباع إيمانويل، ويحث الشاب بعينه عن مرغريت ليقارن فكرة اللوحة الخرساء بفكرة المخلوقة الحية، أحس كل من الشابين بهذه الملاحظة اللاإرادية الفاتنة ونعما بها، وأطرى الكاهن الشيخ برزانة هذه اللوحة الجميلة، وتجاوبت معه السيدة كلايس لكن الشابين يقيا صامتين. هكذا تم اللقاء بينهما، وقد ساهمت إضاءة الصالة العامة المحاطة بالسرية، وسكون المنزل، ووجود الأهل في نقش المعالم الحساسة لهذا السراب الضبابي في القلب؛ ثم أخذت الخواطر المبهمة التي أمطرت نفس مرغريت تهدأ، وتجلت في روحها كالمدي الرائق، واصطبغت بشعاع متألق، وما أن تمتم إيمانويل ببعض عبارات يستأذن فيها السيدة كلايس بالانصراف حتى نشر هذا الصوت ذو النبرة العذبة المخملية في قلب مرغريت افتتاحاً غريباً، متمتماً التجلي المفاجيء الذي سببه إيمانويل والذي سيمرر لمصلحته إذ أن الرجل الذي يستخدمه القدر لإيقاظ الحب في قلب فتاة شابة يجهل غالباً ما قام به من عمل ويتركه غير مكتمل. انحنت مرغريت وقد تملكها الذهول وأودعت في نظرتها معالم وداع اصطبغ بالأسف لفراق هذه الرؤية الصافية الجذابة فكانت كالطفل الذي ما يزال راغباً في الاستماع إلى الموسيقى التي أطربته، ثم هذا الوداع في أسفل الدرج القديم أمام باب غرفة الجلوس وعندما رجعت إلى تلك الغرفة تابعت بنظرها العم وابن أخيه إلى أن اجتازا بوابة المنزل المطلة على الشارع وأغلقت خلفهما. كانت السيدة كلايس منشغلة بمواضيع هامة أثارها التشاور مع موجهها بحيث لم تلاحظ تغير سحنة ابنتها؛ وعندما ظهر الأب دي سوليس وابن أخيه لديها

(١) غيد (١٥٧٥ - ١٦٤٢) هو الفنان الإيطالي غيدورثي، وله لوحات عديدة تمثل فيها مشاهد دينية تظهر فيها صور ملائكة.

للمرة الثانية، كانت مشوشة بشكل شديد بحيث لم تلاحظ الحمرة التي صبغت وجه مرغريت معبرة عن اختتام الغبطة الأولى التي عمرت قلبها البكر، وتناولت الفتاة شغل أوبرتها عندما أعلن عن حضور الكاهن وابن أخيه، وبدت كثيرة الاهتمام بما في يديها بحيث وجهت إليهما التحية دون أن ترفع نظرها، كما أن السيد كلايس ردّ التحية التي وجهها إليه السيد سوليس بطريقة آلية وخرج من غرفة الجلوس كرجل منصرف إلى مشاغله.

جلس الراهب الدومينيكي العجوز قرب تائبته، وهو يوجّه إليها تلك النظرات العميقة التي يسبر فيها غور النفوس، وقد أحسّ بالكارثة لجرد رؤيته السيد كلايس وزوجته - قالت الأم «انذهبوا إلى الحديقة يا أولادي، وأنت يا مرغريت أطلعي إيمانويل على أزهار خزامى والدك».

خرجت مرغريت نصف خجلى وقد أخذت بيد فليسيا وهي تنظر إلى الشاب الذي تورّد خداه وخرج من غرفة الجلوس ممسكاً بجان تجنباً للارتباك، وعندما وصل الأربعة إلى الحديقة انفصل جان وفليسيا وبقيت مرغريت ودي سوليس الشاب شبه منفردين فقادته إلى أمام مشتل الخزامى الذي رتبته لمولكينييه وفقاً لطريقة العام السابق.

- «أتحب أزهار الخزامى؟» سألت مرغريت إيمانويل بعد فترة صمت لم يجرب الشاب أن يقطعها. إنها أزهار جميلة، يا أنسة، ولأجل محبتها يجب توقّر الذوق ومعرفة تقدير الجمال، إن هذه الأزهار تفتتني ولاشك أن اعتيادي العمل في الغرفة الصغيرة المعتمة التي أسكن بها قرب عمي جعلتني أفضل كل ماهو ناعم على النظر» تأمل مرغريت وهو ينطق بالكلمات الأخيرة، لكن دون أن تتضمن نظرته المليئة برغبات مضطربة أي تلميح إلى البياض الرائق، والهدوء، والألوان الناعمة، التي تحوّل هذا الوجه إلى زهرة.

«أنت إذاً تعمل كثيراً» تابعت مرغريت وهي تقود إيمانويل إلى مقعد من خشب ذي مسند دهن باللون الأخضر. «أنك من هنا لن ترى أزهار الخزامى عن قرب، وبذلك لن تتعب عينيك، فأنت على حق، إذ أن هذه الألوان تبهر البصر.

- أجاب الفتى بعد فترة صمت كان خلالها يسوّي بقدمه رمل الممر: «ماذا يشغلني؟ أمور كثيرة، إذ أن عمي يريد مني أن أصبح كاهناً».

- أوه! قالت مرغريت ببراعة.

- لقد قاومت إذ لا أشعر أنني مهياً لذلك، ولقد لزممتي شجاعة فائقة لمعارضة رغبات عمي فهو طيّب جداً، ويحبني كثيراً، ولقد دفع عني مؤخراً بدل الخدمة الالزامية، أنا اليتيم الفقير.

- ما هو توجّهك إذأ سألت مرغريت، التي بدرت منها حركة بدت وكأنها تريد العودة عن سؤالها. ثم أضافت «أرجو المَعذرة، ياسيدي، على ما بدر مني من فضول».

- «أوه، يا آنسة قال إيمانويل وهو ينظر إليها نظرة تحمل من الإعجاب قدر ماتحمل من الود، مامن شخص باستثناء عمي وجه إليّ حتى الآن هذا السؤال. إنني ادرس لاكون أستاذاً. ماذا تريدان أن أعمل؟ لست غنياً، فإذا أمكنني أن أصبح مدير إحدى مدارس الفلندر. فإنني أوّمن معيشة متواضعة، وسأتزوج امرأة بسيطة أخلص لها الحب. هذا ما أمله في الحياة. ربّما لهذا السبب أفضل زهرة ربيع يراها جميع الناس في سهل أورشي على هذه الخزامى المليئة باللون الذهب والأرجوان والسفير والزمرد التي تمثل حياة مترفة؛ بينما تمثل زهرة الربيع حياة هادئة وأبوية، حياة الأستاذ القانع الذي ساكونه.

- قالت «لقد أطلقت دائماً، حتى الوقت الحاضر، على أزهار الربيع، اسم المرغريت» احمر إيمانويل دي سوليس بشدّة، وفتش عن جواب، وهو يحرك الرمل تحت قدميه بعصبية، وقد حار في التعبير عن أيّ من الأفكار التي تواردت على خاطره، وقد شعر بحمقها، وأقلقه تأخره في الجواب فقال: «إنني لا أجزؤ على النطق باسمك ..» ولم ينه عبارته.

«استاذ!» تابعت القول.

- أوه، يا آنسة، سأصبح أستاذاً ليكون لي مهنة، لكنني سأجرب وضع

مؤلفات تجعلني ذا فائدة كبيرة، إنني أشعر بميل كبير للدراسات التاريخية.
- «آه!»

كانت هذه الاله مليئة بأفكار مبهمة جعلت الشاب يزداد خجلاً ومن ثم أخذ يضحك ببلاهة وهو يقول: «إنك تجعليني أتكلم عن نفسي، يا أنسة، بينما كان الواجب ألا نتحدث إلاّ عنك.

- «إن والدتي وعمك قد أنهيا على ما أعتقد محادثتهما.» قالت وهي تنظر نحو نوافذ غرفة الجلوس.

- «إنني أرى السيّدة والدتك متغيرة كثيراً.

- «إنّها تتألم، وهي لا تريد أن تبين لنا سبب آلامها، ولا يمكننا نحن إلا

أن نعانى من آلامها.»

كانت السيدة كلايس في الواقع قد أنهت استشارة حساسة تتعلق بمسألة وجدانية يعود التقرير فيها إلى رأي الأب دي سوليس، إذ أنها توقعت افلاساً كاملاً، لذلك أرادت أن تحتفظ دون علم بليتزار، الذي لايهتم كثيراً بأوضاعه المالية، بمبلغ معتبر مقتطع من ثمن اللوحات تكفل الأب دي سوليس ببيعها في هولنّدة، وستخبيء هذا المبلغ وتحتفظ به إلى الأيام الصعبة؛ وبعد مداولة متروية، وبعد أن قدرّ الراهب الدومينيكي الشيخ الظروف التي تمرّ بها تائبته أقرّ لها هذا التصرف الحكيم، وعمل على الاهتمام بعملية البيع التي وجب أن تتمّ سرّاً حتى لا تؤثر كثيراً على مقام السيد كلايس.

أرسل العجوز ابن أخيه مزوداً برسالة توصية إلى امستردام، حيث نجح الشاب وقد سرّه أن يقوم بخدمة لال كلايس، في بيع لوحات الصالة إلى المصرفيين الشهيرين هاب وبونكر بمبلغ ظاهر مقداره خمسة وثمانون ألف دوكات هولندية يضاف إليه مبلغ خمسة عشر ألف دوكات تدفع سرّاً للسيدة كلايس. وكانت اللوحات من الشهرة بحيث يكفي لإتمام الصفقة أن يجيب السيد كلايس على الرسالة التي وجهها إليه محل هاب وبونكر، وقد كلّف إيمانويل دي سوليس من قبل كلايس باستلام ثمن اللوحات التي شحنها سرّاً ليحجب نبأ هذا البيع عن مدينة نواي.

نحو نهاية شهر أيلول سدّد بِلْتِزَار ديونه، وحرّر من الرهن أملاكه، واستأنف أعماله، لكن بيت كلايس تجرّد من أجمل زينة فيه، لكن بِلْتِزَار وقد أعماه هوسه العلمي، لم تبدر عنه أية بادرة ندم، وكان يبدو على أنّ الثقة بقدرته على تعويض بيع الوفاء^(١) هذا. اللوحات المئة لم تعد تساوي شيئاً في عيني جوزفين تجاه السعادة المنزلية وغبطة زوجها، كما أنها ملأت الصالة باللوحات الموزّعة في أجنحة الاستقبال، ولتغطية الفراغ الذي بقي في القسم الأمامي من المنزل فإنها عملت على تغيير الأثاث؛ وقد بقي لبِلْتِزَار بعد أن سدّد ديونه نحو مئتي ألف فرنك يستطيع من خلالها معاودة تجاربه، أما الخمسة عشر ألف دوكات الخاصة بالسيدة كلايس فقد ائتمنت عليها الكاهن دي سوليس وابن أخيه اللذين باعاها مستغلّين ارتفاع قيمتها خلال الحرب القاريّة وخبأً حصيلة البيع البالغة مئة وستين ألف فرنك في قبو المنزل الذي يسكنه الأب دي سوليس؛ ورأت السيدة كلايس بغبطة حزينة زوجها منصرفاً كلياً إلى تجاربه خلال ثمانية أشهر تقريباً؛ غير أنها وقد أصيبت بقسوة من جراء الصدمة التي حدثت لها وقعت فريسة داء الدنّف الذي أخذ يتفاقم بينما كان بِلْتِزَار غارقاً في علمه فلا التقلبات السياسية في فرنسا، ولا هزيمة نابوليون الأول، ولا عودة آل بوربون إلى العرش أمكنها أن تصرفه عن اهتماماته، فلم يعد لا زوجاً، ولا أباً، ولا مواطناً، إنّما هو كيميائي فقط.

وصل الضنى بالسيدة كلايس نحو نهاية العام ١٨١٤، إلى درجة لا تسمح لها بمغادرة السرير؛ ولم ترد أن تستسلم للخمول في غرفتها التي عرفت فيها أياماً سعيدة، حيث ذكريات سعادتها المتلاشية توجي إليها بمقارنات لا إرادية مع الحاضر الذي ترزح تحته، ففضّلت البقاء في غرفة الجلوس، وقد استجاب الأطباء لرغبتها عندما وجدوا هذه الغرفة مهيأة جيّداً، ومفرحة، وأكثر ملائمة لوضعها من غرفتها، فنصب لها سرير بين المدفأة والنافذة المطلّة على

(١) بيع الوفاء: هو بيع أشياء ثابتة أو منقولة يتصرف بها الشاري لأجل معين يحق خلاله للبائع استردادها لقاء ثمن البيع مضافاً إليه مبلغ متفق عليه. حتى إذا انقضى هذا الأجل أصبح البيع قطعياً.

الحديقة، تقضي فيه تلك المرأة التعسة حياتها، فكانت تشغل أيامها الأخيرة بتقوى تزرع في روح ابنتيها اشعاع روحها؛ وقد أتاح الحبّ الزوجي الذي ضعف في مظاهره للحبّ الأمومي أن يتجلى. لقد زادت الأم من لطفها بقدر ما تأخّرت في التعبير عنه، وكجميع أصحاب النفوس الكريمة برهنت عن رقة في العواطف كأنّها ندامة، فباعثها أنّها حرمت أولادها من حنان متوجّب لهم، كانت تسعى إلى التكفير عن أخطائها المتوهمة، فبذلت كل عناية، وكل انتباه يغمّهم بالغبطة. لقد أرادت بطريقة ما أن تحيهم في قلبها، وتظللهم بجناحيها الضعيفين، وتعوّضهم في يوم واحد عن كلّ الحب الذي لم تمتنع به في أيام سابقة. كانت الآلام تمنح لمداعبتها وكلماتها دفئاً عذباً يفيض عن روحها تسكبه عيناها على أبنائها قبل أن تنطق به شفقتها بنبرات ملؤها النوايا الطيبة، بينما تبدو يدها وكأنّها تمسحهم ببركاتهما.

لم تفاجأ مدينة دوي، بعد أن عاد آل كلايس إلى عادات ترفهم السابقة، أن يرددوا الآن عنها، تحيط بهم العزلة، ولا يطمأ دهرهم زائر، ويستغنى بلترار عن إحياء حفل ذكرى زواجه؛ فقد بدا للمدينة أن مرض السيّد كلايس يعتبر سبباً وجيهاً لهذا التغيّر، كما أنّ تسديد الديون أوقف التقلّبات السيئة؛ أخيراً فإنّ التقلّبات السياسية التي طرأت على الفلاندر، وحرب المئة يوم، والاحتلال الأجنبي، أحاطت الكيمياء كليا بالنسيان. كانت المدينة خلال هاتين السنتين معرضة غالباً للاحتلال، يتعاقب عليها مرّة الفرنسيون، ومرّة الأعداء، وقد وفد إليها كثير من الغرباء، ولجأ إليها كثير من الريفيون، وحرمت من العديد من المصالح وطرحت على بساط البحث فيها العديد من القضايا والحركات والنكبات بحيث لم يعد أحد يفكر إلا بنفسه؛ فكان الأب دي سوليس وابن أخيه، والأخوان بيريكين الأشخاص الوحيدين الذين يأتون لزيارة السيّد كلايس، وتعرّضت خلال شتاء ١٨١٤ - ١٨١٥ لأشدّ الآلام كرياً، ونادراً ما يأتي زوجها لزيارتها فيقضي سويغات من بعد العشاء قريبا، وبما أنّها لا تمتلك من القوة ما يعينها على إجراء محادثة طويلة، فإنه لم يكن يتلفظ إلا بعبارة أو عبارتين متشابهتين

دوماً، ويجلس ويصمت ويسود في غرفة الجلوس سكون مرعب؛ ولم تكن تكسر هذه الرتابة إلا في الأيام التي يقضي فيها الأب دي سوليس وابن أخيه السهرة في منزل كلايس، وبينما يلعب الكاهن الشيخ ويلتزار بطاولة الزهر، تتسامر مرغريت وإيمانويل قرب سرير أمها التي تبسّم لغبطتهما البريئة دون أن تظهر كم هي طيّبة ومتألّة في روحها المعذّبة. كانت نسمة هذا الحب العذري الطرية تفيض موجة بعد موجة، وكلمة بعد كلمة، وكان تهدّج الصوت الذي يفتن هذين الشابين يحطم قلبها، والالتفاتة العابرة الذكية إلى المويّة السائدة بينهما، تردّها، وهي شبه ميّنة، إلى ذكريات الأوقات السعيدة الفتية التي تنعكس الآن مرارة كلها. كان إيمانويل ومرغريت من الرقة بحيث يكبحان مظاهر الحبّ العذبة، كي لا يسيئا إلى امرأة متألّة يدركان غريزياً مدى عمق جراحها.

مامن أحد لاحظ حتى الآن أن للعواطف حياة خاصة بها، وطبيعة تنبثق عن الظروف التي تتولّد فيها، فهي تحتفظ بطبيعة الأماكن التي ترعرعت فيها، وبانطباع الأفكار التي أثّرت على نموها. هناك عواطف صيغت باضطرام وتبقى مضطربة كعاطفة السيّدة كلايس نحو زوجها، وهناك عواطف خلقت في جو من الحبور فهي دائماً جدّلى كاستبشار الصباح فجئى الغبطة فيها مترافق دائماً بالضحكات والأفراح. لكن يصادف أيضاً حبّ تغلفه الكآبة دوماً أو تحيط به التعاسة، فمسرّاته شاقة، ومكلفة، ومثقلة بالمخاوف ومسمّمة بالندم، أو مليئة بالقنوط. كان الحب الكامن في قلب إيمانويل ومرغريت دون أن يدرك أحدهما أو الآخر أنّه الحبّ، هذه العاطفة التي تفتحت تحت قبة صالة كلايس العاتمة أمام كاهن عجوز قاس في لحظة صمت وهدوء، هذا الحبّ الرزين المتروى، إنّما الخصب بالتلوّنات الناعمة، وبالبهاج الصامته الشهى كعناقيد عنب اختلطت من زاوية كرسي؛ كان يتعرّض للون رمادي ومسحة قاتمة اصطبغ بهما منذ الساعات الأولى. هذان الفتیان بعدم جرأتهم على إظهار أيّ تعبير عاطفي واضح أمام هذا السرير من الألم كانا يزيدان دون أن يدريا من متعة تنطبع في قلوبهما. إنها الرعاية التي يحيطان بها المريضة وقد أحب إيمانويل أن يساهم بها وهو

سعيد بالانضمام إلى مرغريت وكأنه يعتبر نفسه مسبقاً ابناً لهذه الأم، وهي مظهر العرفان الكئيب تفتر عنه شفتا الفتاة بدلاً من لغة العشاق المعسولة. أنها آهات قلبيهما يمتلئان فرحاً بنظرة متبادلة، دون أن تتميز كثيراً عن التهنيدات التي يقتلعهما مشهد الألم الأمومي. كانت الهنيزات الطيبة لاعترافاتهما غير المباشرة، ووعودهما غير المكتملة، وبشاشاتهما المكبوتة أقرب إلى هذه الرموز التي رسمها رافاييل على أرضية سوداء. كانا كلاهما على يقين لا يفصحان عنه، إنهما يعرفان أن الشمس فوقهما، لكنهما يجهلان أية ريح ستطرد الغيوم الكبيرة القائمة المتراكمة حول رأسيهما؛ أنهما يشكان بالمستقبل ويخشيان أن تلتزمهما الآلام باستمرار؛ فهما باقيان بخجل في ظلال هذا الشفق دون أن يجروا على التساؤل: هل ستنهي سوية هذا النهار؟ غير أن الحنان الذي كانت تبديه السيدة كلايس لأبنائها كان يخفي بشهامة كل ما يتعلق بها؛ فأولادها لا يسببون لها ارتعاشاً ولا رغباً، بل هم تعزيتها لكنهم ليسوا حياتها. إنها تحيا بهم لكنها تموت لأجل بلتزار؛ فأياً كانت المشقة التي تعانيتها من وجود زوجها شاربداً خلال ساعات كاملة، يرميها من وقت إلى آخر بنظرة رتيبة، فإنها لاتنسى آلامها إلا خلال تلك اللحظات القاسية، إن لامبالاة بلتزار تجاه تلك المرأة المحتضرة يبدو إجرامياً للغريب الذي قد يشهده، لكن السيدة كلايس وابنتيها تعودتا على ذلك، فهن يعرفن قلب ذلك الرجل ويعذرنه؛ وإن تعرضت السيدة كلايس خلال النهار لأزمة خطيرة، إن تفاقمت حالتها وبدت وكأنها تكاد تنتهي، فإن كلايس وحده في البيت وفي المدينة يجهل ذلك، فلمواكنيه وصيفه يعرف، ولكن لا ابنتيه اللتين تلتزمهما والدتهما بالصمت، ولا زوجته، يعلمنه بالأخطار المحدقة بال مخلوقة التي كان يهيم بها حباً؛ ففي اللحظة التي يسمع بها وقع خطواته في الرواق في موعد العشاء، تنتشي السيدة كلايس، فهي ستراه الآن، وتجمع قواها لتستمع بتلك الفرحة؛ وفي اللحظة التي يدخل فيها يدب اللون بخرارة في تلك المرأة الشاحبة ونصف الميتة، وتستعيد مظهر الصحة، فتبدو بهيئة كاذبة أمام العالم الذي يتقدم إلى قرب سريرها، ويمسك بيدها، فهي في

حالة جيّدة بالنسبة إليه فقط؛ وعندما يسألها: «كيف أنت اليوم، يازوجتي العزيزة؟» تجيب: «إنني أحسن، ياعزيزي» بحيث تجعل هذا الرجل الشارد يظن أنها ستتنهض في اليوم التالي معافاة؛ فانشغال فكر بلتزار من الأهمية بحيث يخيّل إليه أن الداء السائر بزوجته إلى الموت ماهر إلاّ توكلّ بسيط. إنها محتضرة بالنسبة لجميع الناس، لكنها حيّة بالنسبة إليه. كانت نتيجة تلك السنة فرقةً تامة بين الزوجين، فكلّيس ينام بعيداً عن زوجته، وينهض منذ الصباح لينحبس في مخبره أو في مكتبه، فلا يعود يراها إلاّ بوجود ابنتيه أو بحضور صديقين أو ثلاثة يعودونها، وبذلك لم يعد يفكر بها. هذان الكائنان اللذان ألفا سابقاً التفكير المشترك، لم يعد لهما إلا نادراً تلك اللحظات من التواصل، والعقوبة والبوح التي هي عماد حياة القلب، وجاء حين انقطعت فيه هذه المباح على ندرتها؛ وكانت الآلام الجسمية عاملاً مساعداً لتلك المرأة المسكينة فأعانتها على تحمل فراغ وفرقةٍ كانا سيقتلانهما لو أنّها ماتزال في حيويتها. لقد كانت آلامها من الشدّة بحيث كان يسعدها أحياناً ألا يشهدها من تكنّ له الحب الدائم. كانت تتأمل بلتزار خلال فترة من السهرة وعندما تدرك أنه سعيد بوضعه، فإنها تتعلّق بهذه السعادة التي سبّبتها له. كانت تكفيها هذه المتعة العابرة، فلا تتسائل عمّا إذا كانت ماتزال محبوبة، إنما تجهد للاعتقاد بذلك، وتنزلق على تلك الطبقة من الجليد دون أن تجرؤ على الضغط عليها خشية أن تحطّمها وتغرق قلبها في عدم مريح؛ ولّا لم يطرأ أيّ حادث يعكّر هذا الهدوء وقد ساهم الداء الذي ينهش تدريجياً أسيده كلّيس في استقرار هذه الهدوء الداخلية بحافظته على المودة الزوجية في وضع راكد، كان من السهل الوصول ضمن هذه الحالة القاتمة إلى الأيام الأولى من العام ١٨١٦.

نحو نهاية شهر شباط، جاء موثّق العقود ببيركين يوجّه الضربة التي ستؤدّي إلى القبر بتلك المرأة الملائكية التي وصف الأب دي سوليس روحها بأنّها بدون خطيئة تقريباً. قال هامساً في لحظة كانت الابنتان بعيدتين بحيث لا تسمعان حديثه: «سيدتي، لقد كلّفني السيد كلّيس بأن استدين له مبلغ ثلاثمئة ألف فرنك لقاء رهن أملاكه، فخذني حذرک من أجل مستقبل أولادکم».

ضمت السيدة كلايس يداها، ورفعت عينيها إلى السقف، وشكرت موثق العقود بانحناءة متسامحة من رأسها وابتسامة حزينة تأثر منها. كانت هذه العبارة بمثابة طعنة خنجر قاتلة لببيتا. لقد انصرفت في ذلك النهار إلى أفكار حزينة زادت قلبها انتفاخاً، وجعلتها في إحدى تلك الحالات التي يفقد فيها المسافر توازنه، فيتدحرج مدفوعاً بحصاة صغيرة حتى أسفل الهوة التي بقي فترة يسير بجرأة على حافتها. عندما انصرف موثق العقود طلبت السيدة كلايس من مرغريت أن تحضر لها كل ما يلزمها للكتابة، واستجمعت قواها وانشغلت لفترة من الزمن في كتابة وصية؛ توقفت مرات عديدة تتأمل ابنتها، لقد حان وقت الاعترافات، فمرغريت بإدارتها للمنزل منذ مرض أمها حققت جيداً الرجاء الذي وضعته المحتضرة فيها بحيث أن السيدة كلايس ألقّت نظرة خالية من القنوط على مستقبل عائلتها بعد أن رأت نفسها تُبعث في هذا الملك المحب والقوي. لاشك أن هاتين المرأتين استشعرتا مسارات حزينة متبادلة بينهما. ونظرت الفتاة إلى والدتها في الوقت الذي كانت فيه الوالدة تنظر إليها وترقرق الدموع في عيون الاثنتين؛ فلعدة مرات، وفي اللحظة التي كانت تتوقف فيها السيدة كلايس عن الكتابة هتفت مرغريت: «أيا أمي؟ وكأنها تريد البوح بكلام، ثم تتوقف وقد اختفت الكلمات في حلقها، دون أن تسألها الأم المنصرفة إلى أفكارها الأخيرة، عن سبب استفهامها. أخيراً أرادت الأم أن تخطم رسالتها، وكانت مرغريت تمسك لها بشمعة، فتراجعت كي لا يدفعها القبول إلى قراءة العنوان لكن الأم قالت لها بصوت يتفطر ألماً: «يمكنك أن تقرئيه يا ابنتي» ورأت أمها تعنون الرسالة بهذه الكلمات: «إلى ابنتي مرغريت». وأضافت وهي تضعها تحت وسادتها «سنحدث بعد أن أستريح» وتهالكت على مخدتها وقد أضناها الجهد الذي بذلته، ونامت لعدة ساعات. عندما استيقظت كانت ابنتها وابناها راكعين أمام سريرها يصلون بحرارة. كان ذلك يوم خميس وقد وصل غابرييل وجان للتو من كليتهم يرافقه إيمانويل دي سوليس الذي عين استاذاً للفلسفة والتاريخ.

«يا أولادي الأعزاء، حانت لحظة الوداع، لن تتركوني الآن! أنتم، ومن ...»
ولم تنه كلامها.

هتفت مرغريت وهي ترى شحوب والدتها: «سيد إيمانويل، اذهب وخبر
والدي، أن والدتي قد ساءت حالتها..»

صعد سوايس الشاب إلى المخبر، ويعد أن أخبره لمولكيه أن يلتزار
سيأتي ليحدثه، وبعد طلب ملح من الشاب أجاب يلتزار بأنه سينزل

قالت السيدة كلايس لايمانويل عند عودته: «اذهب يا صديقي مع ولدي
واحضر لي عمك، إذ أن من الضروري أن أتناول القربان الأخير وأريده من يده»
عندما وجدت نفسها وحيدة مع ابنتيها، أشارت إلى مرغريت التي فهمت ما تريد
والدتها فصرفت فليسيا، وقالت مرغريت التي لم تكن مقدرة لسوء الحالة التي
أوصلتها إليها صدمة ببيركين: «منذ عشرة أيام لم يبق لدي مال أنفق منه على
البيت ويترتب علي أجر ستة أشهر للخدم، وقد حاولت مرتين أن أطلب دراهم من
والدي، لكنني لم أجسر. ألا تعلمين أن لوحات الرواق والقبو قد بيعت؟!

- «إنه لم يقل لي كلمة تتعلق بذلك» هتفت السيدة كلايس، «يا إلهي إنك
تستدعيني باكرأ إليك، ماذا سيحل بكم يا أولادي المساكين؟ وراحت في صلاة
حارة لوّنت عينيها بوميض التوبة، ثم قالت بعد أن تناولت الرسالة من تحت
وسادتها: «هوذا وصية لن تفتحها ولن تقرئها إلا في اللحظة التي تشعري
فيها بعد موتي أنكم في ضيق شديد، أي إذا عزّ عليكم الخبز هنا. يا عزيزتي
مرغريت، أحبّي جيّدًا والدك، واعتني بأختك وأخوك، خلال أيام وربما خلال
ساعات ستكونين على رأس هذا البيت كوني مقتصدة، وإن وجدت في موقف
يتعارض مع إرادة والدك، وهذا ما يمكن أن يحصل، إذ أنه أنفق مبالغ كبيرة من
المال سعيًا وراء سرّ يعود بالجد والثراء الواسع عليه، وسيحتاج دون شك إلى
مال، وقد يسألك شيئاً منه، استخدمني عند ذاك كل حنان الابنة واعرفي كيف
توفّقين بين المصالح التي ترعينا بمفردك وبين ما يتوجّب عليك لوالد، لرجل كبير
ضحّى بسعادته، وبحياته من أجل شهرة عائلته، لا يمكن أن يكون مخطئاً إلا في

الشكل أما غاياته فنبيلة دائماً، وهو فائق الطيبة، وقلبه مليء بالحب. سترونه دائماً طيباً ومحباً، أنتم! يجب أن أقول لكم هذه الكلمات وأنا على حافة القبر، إذا أردت أن تخففي عني سكرات موتي يا مرغريت، فعديني يا ابنتي أن تأخذي مكاني في رعاية والدك، لاتسببي له أي حزن، لا تلوميه على شيء، لاتدينيه! أخيراً كوني وسيطة لطيفة ومتسامحة إلى أن يعود بعد إنهاء مهمته، رأساً مديراً لعائلته.

- «إنني أفهمك يا والدتي العزيزة، وسأفعل ماتريدينه» قالت مرغريت وهي تقبل عيني المحتضرة الملتهيتين.

- لا تتزوجي، ياملاك، إلا بعد أن يتمكن غابرييل من أن يحلّ محلك في إدارة شؤون المنزل، فزوجهك قد لا يقاسمك شعورك ويخلق الارتباك في العائلة، ويسبب الألم لوالدك.

نظرت مرغريت إلى والدتها وقالت لها: «أليست لك أية وصية أخرى تتعلق بزواجي؟»

- أترددين يا ابنتي العزيزة؟ قالت المحتضرة بذعر.

- كلا، إنني أعد بطاعتك.

- يا ابنتي المسكينة، لم أعرف أن أضحي بنفسي من أجلكم، قالت الأم وهي تذرف الدموع الحارة، وأنا أطلب منك التضحية من أجل الذين لارشد لهم هنا. اعلمي بحيث لا يدينني اخواك أو أختك أبداً. أحبي جيداً والدك، ولاتعارضيه... كثيراً، ثم ألقِ برأسها على الوسادة ولم تضيف كلمة، فقد خارت قواها، فالمعركة الداخلية بين الزوجة والأم كانت عنيفة جداً.

بعد لحظات حضر كهنة المدينة يتقدمهم الأب دي سوليس، وامتلأت غرفة الجلوس بأفراد المنزل، وعندما بدأت مراسم القداس تطلّعت السيدة كلايس، وقد أيقظها معرفها، في وجوه الأشخاص حولها، ولما لم تر بلتزار سألت «أين السيد؟».

هذه الكلمة كانت تختصر حياتها وموتها، وقد لفظت بلهجة مثيرة للشفقة بحيث أحدثت قشعريرة مروّعة في الجمع.
انطلقت مرتاً، رغم تقدّمها في السنّ، كالشهم وصعدت الأدراج وقرعت بعنف على باب المخبر وهي تصرخ بعنف ساخطة: «إن سيدتي تحتضر أيها السيد، والكل يانتظارك لإقامة المراسم الدينية».
«إنني نازل» أجاب بلبازار.

حضر لمولكيّنيه بعد فترة، وهو يقول أن سيّده يتبعه، ولم تفتأ السيدة كلايس تنتظر إلى باب الغرفة، لكن زوجها لم يظهر إلا بعد أن كادت المراسم تنتهي.

كان الأب دي سوليس والأولاد يحيطون بسرير المحتضرة، وقد احمرّت جوزفين وهي ترى زوجها داخلاً وانهمرت بعض دمعات على خديها، وقالت له بعنوبة ملاك دبّت القشعريرة في الحاضرين «كنت دون شك، على وشك تفكيك الأزوت!» هتف بصوت مرح: «لقد تمّ ذلك، فالأزوت يحوي الاوكسجين ومادة ذات طبيعة غير وازنة يحتمل أنها مبدأ....»

ارتفعت همهمات استنكار تقاطعه وتعيد إليه حضور بديته فتساءل:
«ماذا يقال لي؟ أنت في حالة سيئة؟ ماذا حدث؟»

«إن ماحدث، أيها السيد، أن زوجتك تموت، وأنت قد قتلتها» همس الأب دي سوليس ذلك في أذنه ساخطاً واستند إلى ذراع إيمانويل دون أن ينتظر جواباً وخرج وقد تبعه الأولاد مودعين حتى الفناء. وبقي بلبازار كالمصعوق وهو ينظر إلى امرأته، وقد اغرورقت عيناه بالدموع.

«تموتين، وأنا قد قتلتك! ماذا يقول؟» هتف صائحاً.

- ياعزيزي، لم أكن أحيأ إلا بحبك، وقد سلبت مني الحياة دون شعور منك.

- «اتركونا» قال كلايس، ~~والتي في اللحظة التي دخلوا فيها~~، هل انقطعت لحظة واحدة عن حبك؟ قال وهو يجلس قرب سرير زوجته ويأخذ يديها مقبلاً.

- لاألومك على شيء يا صديقي، لقد جعلتني سعيدة، سعيدة جداً، لا يمكنني أن أحمل مقارنة الأيام الأولى لزواجنا التي كانت مترعة وهذه الأيام الأخيرة التي لم تكن فيها أنت ذاتك، وكانت خاوية، إن حياة القلب كحياة الجسد لها فعاليتها، ومنذ ست سنوات وأنت ميت بالنسبة للحب، والعائلة، وكل ما يسبب سعادتنا، لن أحدثك عن المباهج التي كانت وفقاً على مرحلة الشباب، إذ أنها تتوقف في خريف الحياة لكنها تترك ثماراً تتغذى منها الأرواح، وثقة لا حدود لها، وعادات لطيفة رقيقة، والواقع أنك حرمتنا من كنوز عمرنا هذه. إنني راحلة في الموعد المحدد: لم تكن نحياً سوى بآية طريقة، لقد أخفيت عني أفكارك وتصرفاتك، كيف يمكن إذاً أن تخشاني؟ هل وجهت لك يوماً كلمة، أو نظرة أو حركة مشوبة باللوم؟ لقد بعث آخر لوحاتك، لقد بعث حتى خمور قبوك، لقد استندت من جديد على أملاكك، بون أن تقول لي كلمة.

أه! إنني! إنني أخرج إذاً من الحياة، كارهة الحياة؛ فإن ارتكبت أخطاء، وإن ضللت وأنت تتابع المستحيل، ألم أظهر لك أنني أكن من الحب ما يكفي لأجد حلوة في مقاسمك أخطائك، وأن أسير دائماً إلى جانبك، حتى لو سرت بي على طرققات الجريمة! لقد أفرطت في حبي: هذا هو اعتزازي، وهذا هو ألمي. لقد استمر مرضي مدة طويلة يابلتزار! إذ بدأ من هذا المكان الذي ساقضي فيه، في اليوم الذي برهنت لي فيه أنك تنتمي إلى العلم أكثر من انتمائك للعائلة. هوذا امرأتك ميتة، وثروتك الخاصة مستهلكة. إن ثروتك وزوجتك يخصانك وبمكنتك التصرف بهما، ولكن في اليوم الذي أغيب فيه، فإن ثروتي ستؤول إلى أولادك، ولايمكنت أن تأخذ منها شيئاً فماذا سيؤول إليه أمرك؟ إنني الآن مدينة لك بالحقيقة، فالحتضرون يرون بعيداً! أين هو من الآن فصاعداً الثقل الموازن الذي سيعدل ذاك الهوى الملعون الذي جعلت منه حياتك؟ إن كنت قد ضحيت بي من أجله، فإن أولادك سيهونون عليك كثيراً، إذ يجب أن أتذكر بالتقدير بأنك كنت تفضلني على الجميع. لقد رميت في هذه الدوامة مليونين من الفرنكات وست سنوات من عمل متواصل، ولم تصل إلى شيء....»

عند هذه الكلمات، وضع كلايس رأسه المبيّض بين يديه وخبّاً وجهه.
«لن تجد شيئاً إلا الخزي لنفسك، والشقاء لأولادك، إنَّهم الآن يلقبوك
بسخرية كلايس - السيميائي، وفيما بعد قد تصبح كلايس المجنون!
أما أنا، فإنني مؤمنة بك، أعرفك كبيراً وعالمًا، ملوك العبقرية، ولكن
العبقرية بالنسبة للعوام تشبه الجنون؛ والمجد هو شمس الموتى، أمّا في حياتك
فستكون تعيشاً ككلّ من أصبح كبيراً، وستدمّر مستقبل أولادك. إنني أرحل دون
أن استمتع بشهرتك التي كانت ستعزيني عمّا فقدته من سعادة. الواقع ياعزيزي
يلتزار لأجل أن يكون موتي أقل مرارة، يجب أن أكون على يقين بأن أولادنا لن
يفتقدوا قطعة الخبز، لكن لاشيء حتى ولا أنت يمكن أن يهدىء هواجسي.
أقسم، قال كلايس، أن

- لا تقسم يا صديقي، حتى لا تحنث بقسمك. قالت مقاطعة له. لقد وجبت
لنا عليك الرعاية، وقد حرمتنا منها منذ ما يقرب من سبع سنوات، إن العلم
حياتك؛ والرجل الكبير يجب ألا يكون له زوجة أو أولاد. اذهبوا وحدكم في
طريقكم إلى الشقاء.

إن فضائلكم ليست فضائل الناس العاديين. إنكم ملك العالم، فلا تعرفون
أن تختصوا بامرأة أو بعائلة. إنكم تمتصون الأرض التي تحيط بكم كما تفعل
الأشجار الضخمة! أما أنا النبتة المسكينة فلا يمكنني الارتفاع عالياً فأنا أنتهي
عند نصف حياتك.

لقد انتظرت هذا اليوم الأخير لأعبر لك عن هذه الأفكار الرهيبة التي لم
اكتشفها إلا على بريق الألم والقنوط. جنب ذلك أولادي! فلترن هذه الكلمة في
قلبك! سأقولها لك حتى نفسي الأخير. لقد ماتت الزوجة، ألا ترى ذلك؟ لقد
جرّبتها ببطء وتدرجياً من عواطفها ومسرّاتها، للأسف لولا هذه العناية
الشديدة التي اتخذتها لا إرادياً هل أمكنتني العيش طيلة هذه المدّة؟ لكن هؤلاء
الأولاد المساكين لم يهجروني، لقد كبروا قرب آلامي؛ هكذا صمدت الأم. حافظ،
حافظ على أولادي».

«لؤلؤكينييه!» صرخ بلبزار بصوت مدوّ، وظهر الخادم القديم أمامه فجأة. «أذهب واتلف كل شيء في الأعلى، الماكينات والأجهزة، افعل ذلك بخذر ولكن حطّم كل شيء». «لقد تخلّيت عن العلم»، قال موجّهاً الكلام لزوجته «لقد فات الوقت» قالت وهي تنظر إلى لؤلؤكينييه. ثم هتفت وهي تشعر بدنو الأجل «مرغريت!» وبدت مرغريت على عتبة الباب، وأطلقت صرخة ثاقبة وهي ترى عيني أمّها تصفرّآن، وردّدت المحتضرة «مرغريت!». حوت هذه الصيحة الأخيرة نداءً ملحاً لابنتها، أنّها تقلّدها سلطة كبيرة، فهي بمثابة وصية.

هرعت العائلة مذعورة، ورأت السيدة كلايس تتلاشى بعد أن استنفدت القوى الأخيرة من حياتها في حديثها مع زوجها، وجمد بلبزار ومرغريت في مكانهما هي قرب رأس السرير وهو عند نهايته. والاثنتان لا يمكنهما التصديق بموت تلك المرأة التي لا يعرف أحد مثلها كامل فضائلها وحذنها الذي لا ينقذ؛ وتبادل الأب والابنة نظرة مثقلة بالافكار: الفتاة قد أدانت أباهما، والأب يرتعش إذ يرى في ابنته أداة انتقام، وبالرغم من أن ذكريات الحب التي ملأت بها زوجته حياته قد عادت بكثرة لتستقرّ في ذاكرته، وتمنح للكلمات الأخيرة للمتوفاة سلطة مقدسة يجب الإنصات دائماً إلى صوتها، فإن بلبزار كان يشك في قلبه الضعيف أمام عبقريته، ومن ثم فهو يسمع هدير هوى يرفض فيه قوة ندمه، ويجعله يخاف من نفسه.

عندما غابت تلك المرأة؛ أدرك كل واحد أن لبّيت كلايس روحاً، وأن هذه الروح لم تعد موجودة. هكذا كان الأكم على أشدّه في العائلة، بحيث أن غرفة الجلوس التي تخيّم عليها روح جوزفين بقيت مقفلة، فما من إنسان يجرؤ على دخولها. إن المجتمع لا يمارس أيّاً من الفضائل التي يطلبها من الأشخاص؛ وهو يرتكب الجرائم في كل ساعة، لكنه يرتكبها بالكلام، وهو يهيء للتصرفات السيئة بالسخرية كما يحطّ من قدر الجمال بالهزؤ. إنّه يسخر من الأبناء الذين يكون كثيراً آباعهم، ويلعن أولئك الذين لا يكونهم كفاية، ومن ثم فهو يتسلى؛ إنّه

يتسلى بروز جثمان الموتى قبل أن تبرد، في مساء اليوم الذي قضت فيه السيدة كلايس؛ نشر أصدقاء تلك المرأة بعض الأزهار على قبرها بين جلستي لعب هويست، وقرطوا محاسنها وهم يبحثون في ورق اللعب على «الكبّ والبستوني»؛ ثم بعد عدّة عبارات تثير الدمع التي هي ألقباء الحزن الجماعي والتي تقال بالتبرات نفسها، دون أن تتأثر العاطفة زيادة أو نقصاناً، في جميع مدن فرنسة، وفي كل ساعة، فإنّ كل فرد أخذ يحسب قيمة ذلك الميراث. كان بييركين أوّل من أبدى للمتحدثين عن هذا الحدث أن موت تلك المرأة الممتازة هو أفضل لها، فقد أشقاها زوجها كثيراً، لكنه أفضل بكثير لأبنائها أيضاً، فهي لاتمكن من ردع زوجها الذي تعبده عن تبذير ثروتها، أما اليوم فإن كلايس لايمكن من التصرف بمالها. راح كل واحد يقدرّ تركة السيدة كلايس المسكينة ويخمن مدخراتها (هل ادخرت؟ أوم تدخر؟) ويحصي مجوهراتها، ويستعرض ملبوساتها، ويحسب ماتحويه أدراجها، بينما ماتزال العائلة المحزونة تبكي وتصلي قرب سرير المتوفاة؛ وب نظرة الخبير الوزن للثروات، اعتبر بييركين أن أملاك السيدة كلايس التي يمكن أن تحصر الآن يمكن أن تبلغ قيمتها نحو مليون ونصف فرنك وهي تتملّ بغابة وينيي التي ارتفعت قيمة أخشابها في الاثنتي عشر سنة الأخيرة ارتفاعاً كبيراً، وحسب الضخمة منها والمنتقة، والقديمة والحديثة؛ كما حسب أملاك بلتزار التي ماتزال ذات مردود بالنسبة لأولاده، إذا لم تمتد لاقتطاعها ديون التصفية، فالآنسة كلايس هي إذا، وفقاً لمنطق بييركين دائماً، الفتاة ذات الأربعمئة ألف فرنك. لكنه أضاف: «أما إذا لم تتزوّج سريعاً، وذلك ما يؤمن لها الاستقلال بأموالها، وإزالة شيوخ غابة وينيي، وتصفية حصص القصر من الأولاد واستعمالها بطريقة لايمكن الأب من التصرف بها، فإن كلايس رجل سيبدّد هذه الثروة وهي نصيب أبنائه».

أخذ كل واحد يتساعل عن شباب المنطقة المؤهلين لطلب يد الآنسة كلايس ولكن مامن أحد تلاطف مع مورتق العقود وافترضه من المرشحين لذلك؛ ووجد المورتق بدوره الحجج لرفض الفرقاء المقترحين واعتبار كلا منهم غير جدير

بمرغريت، وكان المتحدثون يتغامزون باسمين وقد سرهم إطالة هذه المسامرة الاقليمية الماكرة. لقد رأى بييركين في موت السيدة كلايس حدثاً ملائماً لطمعه وأخذ يقطع في تلك الجثة لمصلحته.

قال وهو يتوي إلى منزله «كانت هذه المرأة طيبة لكنها مزهّوة كالطاووس، ولاشك أنها لم تكن ترضى بي صهرأ لها. هيه! هيه! لماذا لا أناور الآن لأتزوج هذه الابنة؟ إن الأب كلايس رجل أسكره الكربون، وهو غير مهتم بأولاده، فإذا طلبت منه يد ابنته، بعد اقناع مرغريت بضرورة زواجها بسرعة لانقاذ ثروة أخويها وأختها، فإن الأب سيكون مسروراً لتخلصه من ابنة تريكه.

نام وهو يحلم بالمحاسن الزوجية في هذا العقد، ويتأمل جميع المغامرات التي ستؤمنها له هذه الصفقة، والضمانات المؤمنة لسعادته التي توفرها هذه الانسانة التي سيكون زوجاً لها. إن من الصعب أن يجد في الاقليم شابة بمثل رقة جمال وحسن تهذيب مرغريت، هي في حلاوتها وتواضعها كتلك الزهرة الجميلة التي لم يجرؤ ايمانويل على تسميتها أمامها، وقد خشي أن يكشف بذلك عن أمنيات قلبه الكامنة. إنها أبنية في عواطفها، ومتديئة في مبادئها، وستكون زوجة عفيفة مخلصه، وهي لن تشبع الطموح الذي يخالج نفس كل رجل تقريباً عند اختيار امرأة، إنما ترضى أيضاً كبرياء موثق العقود للمقام الكبير الذي تحظى به عائلتها في الفلاندر، وهي النبيلة الأبوين، وسيقاسمها زوجها هذه الحظوة.

في صباح اليوم التالي سحب بييركين من صندوقه بعض أوراق النقد ذات الألف فرنك وذهب يقدمها بمودة لبلتزار ليجنبه المتاعب المالية وهو الغارق الآن في ظروف مؤلمة حزينة، وقد توقع أن يتأثر بلتزار من هذه الالتفاتة الكريمة فيمتدحه مشيداً بشخصه وطيبة قلبه أمام ابنته، لكن ذلك لم يحدث؛ فقد وجد كلايس وابنته في ذلك الفعل بادرة بسيطة، وكانت ألامها من الحصر بحيث لا يخطر بييركين في بالهما؛ والواقع أن قنوط بلتزار كان من الشدة بحيث أن الأشخاص المتتهيين للومه على سلوكه الماضي غفروا له، ليس باسم العلم الذي يبرر أفعاله، إنما لما أظهره من أسف لايعوّض مافات.

إن الناس يكتفون بالكثير، وهم يستدُون مما يعطون، دون أن يتحققوا من العيار. فالآلم الحقيقي بالنسبة لهم مشهد، نوع من المتعة تهيوهم لغفران كل شيء؛ حتى المجرم، في نهمه للانفعالات، يقي دون تمييز ذلك الذي يضحكه، وذلك الذي يبكيه، دون أن يسألهم حساباً عن الوسائل.

كانت مرغريت قد أنهت عامها التاسع عشر، عندما عهد إليها والدها بإدارة المنزل، وقد دان أخوها وأختها بورع لسلطتها خاصة وأن أهمهم في اللحظات الأخيرة من حياتهم قد أوصتهم باطاعة اختهم المبكر. بدت في ثوب الحداد وقد برز بياضها المتألق، كما أظهر الحزن رقبتها وصبرها؛ ومنذ الأيام الأولى أعطت برهاناً جلياً عن هذه الشجاعة الانثوية، وهذه الرصانة الثابتة التي يتصف بها الملائكة المكفون بنشر السلام، وهم يلمسون بسعفهم الخضراء القلوب المتألمة. لكن إن تعوّدت، بإدراكها المبكر لواجباتها، أن تخفي آلامها، فإن هذه الآلام ماقتئت تزداد شدة، والهدوء الخارجي الذي يبدو عليها لايتوافق مع عمق أحاسيسها، وقد قدر لها أن تتعرض في سن مبكرة لهذه التفجرات الرهيبة في العاطفة التي لايمكن القلب دائماً أن يحتويها. كان والدها يجعلها دائماً منحصرة بين السخاء الطبيعي للأرواح الشابة وصوت الضرورة الملحة، فالحسابات التي طوّقتها غداة وفاة والدتها جعلتها في نزاع مع مصالح الحياة، في لحظة لا تتطلع فيها الفتيات إلا للمسرات. أنّها تربية الآلم تتعرض لها دائماً الطبائع الملائكية!

إن الحب الهادف إلى المال والتفاخر يشكل أكثر الأهواء عناداً، وهو ما دفع بيركين إلى عدم التأخر في خداع الوراثة؛ فبعد عدة أيام من ملازمة الحداد بحث عن مناسبة ليحدث مرغريت، وبدأ عملياته بمهارته يمكن أن تخويها. لكن الحب أكسب روحه بُعداً نظر منعه من الاعتماد على مظاهر هي أكثر ملائمة للغش العاطفي، وجعله يظهر الطيبة، وهي طبع فيه، إنّها طيبة موثق العقود يخال نفسه عاشقاً عندما يفوز بالمال؛ واعتمد على قرابته المشبوهة، وعلى عادته المألوفة في تسيير أمور تلك العائلة والاطلاع على أسرارها، وعلى ثقته بتقدير

الأب وصداقته له، وتقديره أنه وهو في لامبالاته كعالم لم يخطط لأي مشروع مستقبلية لابنته، كما افترض أن مرغريت ليس لديها أي اصطفااء عاطفي، فهيّا لتقديرها مسعى لا دور فيه للهوى إلا معتمداً على حسابات لم يستطع حججها وهي الأكثر كرهاً لدي النفوس الشابة؛ وتبيّن بذلك أنه هو الساذج، بينما عرفت هي كيف تستخدم الموارد، ذلك أنه اعتقد أن من السهل التأثير على فتاة عزلاء ولم يقدر مزايا الضعف.

قال لمرغريت وهو يتمشى معها في ممرات الحديقة الصغيرة: «يا ابنة العم العزيزة، إنك تعرفين رقة قلبي، وتعرفين كم أنا مستعد لاحترام العواطف التي تخالجك في هذه الفترة. إن روعي الحساسّة تؤلني في مهنتي كموثق عقود، فأنا انسان ذو قلب يضطر إلى الاهتمام باستمرار بمصالح الآخرين، بينما يجب أن انساق مع العواطف العذبة التي تسكب السعادة في الحياة، وهكذا فإنني أتألم كثيراً لاضطراري لمكالمك في مشاريع تتعارض مع حالتك النفسية؛ إنما يجب ذلك. لقد فكرت بكم كثيراً في الأيام الأخيرة، ولا بدّ أن أعترف بأن نكبة شاذة تجعل ثروة أخويك وأختك، وثروتك بالذات في خطر. ألا تريدين أن تنقذي عائلتك من دمار كامل؟»

- ماذا يجب أن أفعل؟ وهي شبه مذعورة من هذه الكلمات.

- تتزوجين، أجاب ببيركين

- لن أتزوج مطلقاً، هتفت.

- ستتزوجين عندما تفكرين بوعي في الوضع المرح الذي أنتم فيه

- وكيف يمكن لزواجي أن ينقذ...

- هذا ما انتظره منك، يا ابنة العم، إن الزواج يمنحك حقّ التصرف. قال

مقاطعاً

- ولماذا أسعى إلى هذا الحق؟ سيألت مرغريت.

- ليمكنك التملك، يالبنة العم الصغيرة، قال موثق العقود بلهجة المنتصر،
وتابع «وفي هذه الحالة يحق لك بيع غابة وينيني لإزالة الشيوخ وبالتالي فجميع
بنيم الميراث تحول إلى رأس مال نقدي وسيضطر والدك كوصي أن يضع أنصبة
أخويك وأختك بحيث لا تتمكن الكيمياء أن تتال منها.

- وماذا سيحدث في حال العكس؟ سألت.

- عند ذلك يدبر والدك أملاككم، وإذا عاد إلى التفكير بصنع الذهب،
فيمكن أن يبيع غابة وينيني ويترككم عراة كصغار سان جان. إن غابة وينيني
تساوي في هذا الوقت نحو مليون وأربعمئة ألف فرنك، ولكن ما بين ليلة وضحاها
قد يقطع والدك أخشابها فلا تعد الألف وثلاثمئة أربنت من الأرض العارية
تساوي أكثر من ثلاثمئة ألف فرنك. أليس من الأحسن تجنّب هذا الخطر المؤكد
تقريباً، بأن تعجلي باستحقاق القسمة بحقك في التصرف؟ إنك تنقذين بذلك
الغابة من القلع الذي سيؤجله والدك لأنه يلحق الضرر بك في تلك الفترة التي
تروح الكيمياء فيها في سُبَات، سيضطر والدك قطعاً لوضع أموال التصفية في
التسليف لأمد طويل، والقيمة الاسمية حالياً هي تسعة وخمسون وهكذا
سيحصل هؤلاء الأولاد الأعزاء على ريع خمسة آلاف ليرة لكل خمسين ألف
فرنك، وبما أنه لا يمكن التصرف في رأس مال القصر فإن أخويك وأختك
سيجدون عند بلوغهم سن الرشد أموالهم وقد تضاعفت. وبينما في الحالة
الغايرة فواقع الأمر... كما رأيت في السابق، فإن أباك قد أنقص أملاك والدتك،
وستعرف مقدار النقص بالجرد فإن ظهر عجز يمكنكم أن تضعوا إشارة الرهن
على أملاكه، وبذلك تنقذون شيئاً ما.

- «أف، إن في هذا تحقيراً لأبي، والكلمات الأخيرة لامي لم يعفُ عليها
الزمن بحيث لا أُنذكرها الآن. إن أبي لا يمكن أن يسلب أولاده، إنك تتنكر له يا
سيد بيريكين». قالت وقد تفرقت بعض دموع الألم في عينيها.

- لكن، يا ابنة العم العزيزة، إن عاد والدك إلى الكيمياء ف...

- سيحلُّ بنا الدمار أليس هذا ما تريد قواه؟.

- أوه، الدمار الكلّي، صدقيتي، يا مرغريت، قال وهو يأخذ يدها ويضعها

على قلبه، «إنني أشعر أنني مقصر في واجبي إذا لم أصر على ذلك، ومصالحتك

وحدها...» قالت مرغريت بمظهر بارد وهي تسحب يدها: «أيها السيد، إن

مصلحة عائلتي بالطبع تتطلّب ألا أتزوِّج، لقد حكمت أُمي بذلك.».

- ابنة العم! صاح بيقين رجل المال الذي يشهد ثروة تضيع من يديه: «إنك

تنتحرين أنك ترمين في البحر إرث إمك. الواقع ساقى وفيّاً للصدّاقة الخالصة

التي أكنّتها لك! إنك لا تعلمين كم أحبّك، إنني أعبدك منذ اليوم الذي رأيتك فيه

خلال حفلة الرقص الأخيرة التي أقامها والدتك! لقد كنت رائعة؛ ويمكنك أن

تفخري بصوت القلب عندما يتحدث عن المصلحة يا عزيزتي مرغريت؛ وبعد أن

توقف لحظة قال: «نعم سندعو إلى مجلس عائلة، وسنعمل على منحك حق

التصرّف دون استشارتك.».

- لكن ما معنى حق التصرف؟

- إنّه حقّ حيازة أموالك وإدارتها.

- إذا كان بالإمكان منحي هذا الحقّ نون زواج، فلماذا تريدني إذاً أن

أتزوِّج؟ ومع من؟

جرب بييركين أن تحمل نظرتّه إلى ابنة عمّه مسحة من التدلّة لكن هذا

التعبير يتناقض مع تحجّر عينيه اللتين تعوّدتا حسن التجاوب مع المال، بحيث

أن مرغريت لم تجد في هذا الودّ غير المتوقّع إلا سعيّاً إلى مصلحة.

- ستتزوجين الشخص الذي سيعجبك في هذه المدينة... إن الزوج

ضروري لك، على الأقلّ من وجهة نظر المصلحة؛ فأنت ستواجهين والدك، فهل

ستتمكنين من الصمود منفردة؟

- «نعم، أيّها السيد، سأعرف كيف أدا فع عن أخوي وأختي عندما يقتضي

الأمر ذلك.».

«يا للمدعية المزعجة! قال ببيركين في نفسه قبل أن ينطق بصوت عال:
«كلا لن تتمكني من الصمود أمامه.»

- فلننه هذا الموضوع» قالت بحزم.

- وداعاً، يا ابنة العم، سأسعى إلى خدمتك بالرغم منك، وسأبرهن لك
عن حبي بحمايتي لك ضد نكبة يتوقعها جميع الناس في المدينة.

- إنني أشكرك على ما أبديته لي من اهتمام لكنني أرجوك ألا تقترح أو
تعتمد إلى أي إجراء يسبب أية مضايقة لوالدي.».

بقيت مرغريت مستغرقة في التفكير وهي ترى ببيركين يبتعد، وقارنت بين
صوته الذي يرنّ مصلحة، وطرائقه المشابهة للنوابض في مرونتها، ونظراته
المصبوغة بالتدلل أكثر منها بالرقّة وبين عواطف إيما نويل التي تتسربل بشجو
يتغنى بغزل مكتوم صامت. مهما حدث ومهما قيل يوجد نوع من مغناطيسية
مدهشة لا تخفي نتائجها أبداً؛ ورنّة الصوت والنظرة، وحركات الرجل المحبّ
المشبوّه العاطفة يمكن تقليدها، ويمكن لمثل بارع أن يخدع إحدى الفتيات،
لكن لأجل أن ينجح ألا يجب أن يكون وحيداً؟ إذا كان إلى جانب تلك الفتاة روح
تهتز متوافقة مع عواطفها، ألا تتعرّف سريعاً على تعابير الحبّ الحقيقي؟ إن
ايمانويل في تلك الفترة، كمرغريت، واقع تحت غيوم شكّت منذ لقائهما، قضاءً
وقدراً، جواً قاتماً فوق رأسيهما يحجب عنهما منظر سماء الحبّ الزرقاء، فتدلهه
نحو صفّيته يزيده ضعف الأمل حلاوة وغموضاً في مظاهره الورعة، فالفرق في
المستوى الاجتماعي شاسع بينه وبين الأنسة كلايس. وليس له وهو الفقير، إلا
اسم جميل يقدّمه لها، وهو لا يرى أية بارقة حظّ في قبوله زوجاً لها. لقد انتظر
دائماً بعض تشجيع أبت مرغريت أن تمنحه له تحت أنظار المحتضرة الخائرة.
والاثنتان بطهرهما المتكافئ لم يتبادلا حتى الآن أية كلمة حب؛ وغبطتهما هي
تلك الغبطة الأنانية التي يضطر التعساء إلى القناعة بها منفردين. لقد ارتعشا
منفصلين بالرغم من أنّهما قد تأثرا بقبس ينطلق من رجاء واحد، ويبدوا أنّهما
يخافان من نفسيهما، بإحساس كل منهما جيداً بشعور الآخر، فإيمانويل يرتعد

عندما يلمس يد مليكته التي جعل قلبه صومعة لها، وأي تماس بينهما مهما كان شأنه يبعث في نفسه أحاسيس كثيرة الإثارة بحيث لا يتمكن من السيطرة على أهوائه الجامحة. لكن بالرغم من أنه لم تبدر منهما أية دلالة عابرة أو مستفيضة، بريئة أو جادة، مما يجيز بها لأنفسهم حتى العشاق الأكثر حياءً، فإن كلا منهما يتربّع في قلب الآخر، وكلا منهما يعرف أنه مستعد لبذل أكبر التضحيات بالنسبة للآخر، وفي ذلك السرّات الوحيدة التي يمكن أن يتنوّقاها. منذ وفاة السيدة كلايس، اختنق جبهما الخفي تحت ألبسة الحداد، وتحولّ الجو الذي يعيشان فيه من اللون الرمادي إلى اللون الأسود، وانطفأت النضارة المشرقة بالدموع، وتبدّل تحفظ مرغريت إلى شبه برود إذ أنها حرصت على الوفاء بقسمها لأمّها، وبالرغم من أنّها أصبحت أكثر حرية من ذي قبل فإنّها غدت أكثر تصلّباً؛ وقد التزم إيمانويل بحداد حبيبته مدرّكاً أن أية أمنية حب وأبسط مطلب يعتبر خيانة لشرائع القلب، وهكذا غدا هذا الحب الكبير خفياً أكثر من ذي قبل، وهاتان الروحان الناعمتان يصدر عنهما النغم ذاته ولكن تباعد بينهما الألام، كما باعدت من قبل مظاهر حياء مطلع الشباب ثم احترام معاناة المحتضرة؛ لقد اقتصرنا على لغة العيون الساحرة، والفصاحة الخرساء للتصرفات الوقّية، وقرابط ملتزم، وتألفات شباب سامية هي خطوات أولى لحبّ في طفولته. كان إيمانويل يأتي كل صباح ليستفقد كلايس ومرغريت، لكنه لا يدخل إلى غرفة الطعام إلا عندما يحمل رسالة من غابرييل أو عندما يلح عليه كلايس للدخول، وتخلق النظرة العابرة الأولى نحو الفتاة في نفسه ألف فكرة مليئة بالودّ، ويعاني مما تتطلبه المناسبة من احتشام لا يتخلّى عنه، فيقاسم البيت حزنه، وينثر أخيراً ندى دموعه في قلب صديقته بنظرة لا يخالجهما أي قصد خفي.

هذا الشاب الطيّب ارتضى العيش في الحاضر متعلقاً بسعادة يظن أنها عابرة حتى أن مرغريت تلوم نفسها أحياناً لأنها لم تمدّ إليه يدها بسماحة قائلة له: «لنكن أصدقاء».

استمر بييركين في هواجسه بذلك العناد المماثل للصبر الفطري لدى الحمقى. إنّه يحكم على مرغريت وفق القواعد العادية التي ينظر بها الجمهور إلى النساء، لقد اعتقد أن كلمات الزواج، والحرية، والثروة التي همس بها في أذن الفتاة ستنتش في روحها وستزهر عن رغبة سيستفيد منه، وتصور أن برودها تستر ومواربة؛ لكنه بالرغم من إحاطتها بعناية واهتمام رقيقين. لم يتمكن من حجب طرائقه الطاغية التي ألفها كرجل تعود أن يبت في المشاكل الكبرى المتعلقة بحياة العائلات، كان يتحدث لمواساتها بتلك الأقوال المبتذلة المألوفة لدى أبناء مهنته، ويلتف كالحزون حول الآلام تاركاً عليها مسحة من عبارات جافة تزيل عنها قداستها؛ فرقته تملق وهو يترك كاتبته المختلفة على الباب، عندما يستعيد حذاءه المضاعف أو مظلتّه، ويستخدم لهجة تتيجها له دالته الطويلة كأداة ليثبت مكانة في قلب العائلة وليقنع مرغريت بزواج أشهر سلفاً في كلّ المدينة.

كان الحبّ الحقيقي، والمخلص، والمبجل يشكل تناقضاً واضحاً مع حبّ أناني محسوب، ما من شيء متجانس لدى كلا الرجلين. أحدهما يخلق هوى ويتسلح من مزاياه القليلة ليتمكن من الزواج من مرغريت؛ والآخر يخفي حبه ويجزع إذا انكشف وفاقه؛ وقد أمكن لمرغريت بعد فترة من الوقت من وفاة والدتها، وفي اليوم ذاته، المقارنة بين رجلين فقط وحتى أن تحكم عليهما، فالعزلة التي حكمت على نفسها بها حتى الآن لم تسمح لها بالاختلاط بالمجتمع، والوضع الذي وجدت فيه لا يسمح بأي منفذ للأشخاص الذين يمكن أن يفكروا بطلب الزواج منها بإجراء ذلك. ففي عصر أحد الأيام الجميلة من شهر نيسان، حضر إيمانويل بعد الغداء، في اللحظة التي خرج فيها السيد كلايس الذي تضايق من مسحة الحزن المخيمة على بيته وأراد التنزه لفترة من الوقت حول الأسوار؛ وتردد إيمانويل في اللحاق ببلتزار، مستمداً بعض قواه الذاتية، ونظر إلى مرغريت وبقي جالساً؛ وخمنت مرغريت أن الأستاذ يريد محادثتها واقترحت عليه المجيء إلى الحديقة، وأرسلت أختها فليسيا لتساعد مرتا التي تعمل في

البهو الواقع في الطابق الأول؛ وذهبت لتجلس مع الشاب على مقعد على مرأى من أختها والمربية العجوز. قال الشاب وهو يرى بلتزار يمشي متمهلاً في الفناء: «إنَّ السيد كلايس يبدو غارقاً في الحزن كما كان غارقاً في أبحاثه العلمية. إنَّ جميع الناس يرنثون له في المدينة، إنَّه شارد كرجل أضاع أفكاره، فهو يتوقَّف دون سبب، ويتطلَّع دون أن يرى».

إنَّ لكل ألم تعبيره الخاص، قالت مرغريت وهي تحبس دموعها، ثم استأنفت بعد فترة توقَّف، ماذا كنت تريد أن تقول لي؟.

أجاب إيمانويل بصوت غلب عليه التأثر: هل لي الحق يا آنسة، أن أخاطبك كما فعلت الآن، أرجو أن تتيقَّني بأن رغبتني هي في أن أكون مفيداً لكم، ودعيني اعتقد بأن يمكن للاستاذ أن يهتمَّ بمصير تلاميذه إلى درجة القلق على مستقبلهم إنَّ أخاك غابرييل قد أتمَّ الخامسة عشر من عمره، وهو في الصف الثاني، وبالتأكيد يجب توجيه دراسته وفق ما يتطلع إليه من عمل في حياته، ووالدك هو من يجب أن يقرِّر هذا الأمر، لكن إن غاب ذلك عن ذهنه، ألا يعود هذا بالضرر على غابرييل؟ ألا يعتبر أيضاً معذباً للسيد والدك إن أبديت له ملاحظة عدم اهتمامه بولده؟ وفي هذه الظروف ألا يمكن أن تستشيرني أخاك حول ميوله، وأن تجعله يختار السبيل الذي عليه أن يسلكه بحيث إن أراد والده في المستقبل أن يجعل منه قاضياً أو إدارياً أو ضابطاً وجد لديه المعارف الخاصة لذلك.

إنني اعتقد أنكم لا ترضون لا أنت ولا السيد كلايس ببقاء غابرييل عاطلاً...

- أواه! أبدأ، إنني أشكرك يا سيد إيمانويل، فأنت على حق، فوالدتي عندما جعلتنا نشغل بالمخرَّمات، وعلمتنا بمزيد من العناية كيف نرسم، ونخيِّط، ونطرِّز، ونعزف على البيانو، كانت تقول غالباً إنها لا تعرف ماذا يمكن أن يحدث في الحياة، وعلى غابرييل أن يكون له اعتباره الشخصي وثقافته الكاملة، لكن أيَّ المهن الأكثر تلاؤماً للرجل؟

- قال إيمانويل وقد ارتعش سعادة: «إن غابرييل، يا آنسة، هو في صفه، الأكثر ميلاً للرياضيات، فإن أراد أن ينتسب إلى معهد البوليتكنيك، فإنني أعتقد أنه سيكتسب معارف مفيدة في جميع المهن؛ وسيكون عند تخرجه قادراً على اختيار المهنة التي يميل إليها؛ ودون إعطاء حكم مسبق عن مستقبله تكونون قد كسبتم الوقت، فخرجو ذلك المعهد بامتيان يستقبلون في كل مكان بالترحاب^(١)؛ لقد خرّج إداريين، ودبلوماسيين، وعلماء، ومهندسين، وقادة، وقباطنة، وقضاة، وصناعيين وأصحاب مصارف، فليس من المستغرب إذاً أن يتطلع شاب غني أو من أسرة نبيلة في دراسته إلى قبوله في ذلك المعهد، فإذا قرّر غابرييل ذلك، فإنني أطلب منك، أن تعهدي به إليّ! قولي أجل!»

- ماذا تعني بذلك؟

- «أريد أن أكون مشرفاً على دروسه» قال وهو يرتعش.

نظرت مرغريت ملياً إلى السيد دي سوليس، وأخذت يده وقالت له «نعم» ثم أضافت بعد لحظة توقّف، كم أقدر لك هذا الشعور الذي جعلك تختار بدقّة ما يمكن أن أقبله منك. إن في ما قلته لي دليلاً على مدى تفكيرك بنا إنني أشكرك» بالرغم من أن هذه العبارات قد قيلت ببساطة، فقد حوّل إيمانويل رأسه جانباً لكي لا تلاحظ الدموع التي ترقرت في عينيه لفبطته عن فعلته السارّة بالنسبة لمرغريت.

«سأتي إليك غداً بأخويك فهو يوم عطلة» قال بعد أن استعاد بعض هدوئه؛ ونهض وحيّاً مرغريت التي تبعته، وعندما أصبح في فناء الدار لاحظ أنها ما تزال في غرفة الطعام حيث أشارت إليه إشارة ودّ.

بعد العشاء حضر موثّق العقود لزيارة كلايس، جلس في الحديقة بين ابن عمه ومرغريت وعلى المقعد الذي كان يجلس عليه إيمانويل؛ وقال مخاطباً كلايس: «لقد جئتك يا ابن العم هذا المساء في موضوع عمل، لقد انقضى ثلاثة وأربعون يوماً على وفاة زوجتك».

(١) هذه النظرة المتفاخلة حول خريجي ذلك المعهد تناقض مع ما جاء في رواية «كاهن القرية» على لسان غريغوا رجيار من أن هذا المعهد وغيره من المعاهد الكبرى هي مصانع لتخريج موظفين عاجزين.

- «إنّني لم أحصها»، قال بلتزار وهو يمسح دمعة انتزعتها كلمة «وفاة» .
المقالة شرعاً.

- «أوه، أيها السيّد كيف يمكن أن تشير...» قالت مرغريت وهي ترمق
الموثّق بنظرة..

- لكننا، يا ابنة العم، ملزمون، نحن الآخرين، بأن نحصى المهل المحدّدة
بموجب القوانين، وهذا ما يتعلّق بك وبشركائك الوارثين. إن أولاد السيد كلايس
جميعهم قُصّر، وعليه أن يقوم بجرد خلال الخمسة وأربعين يوماً التي تلي وفاة
زوجته، بهدف تحديد قيمّ التركة المشتركة، ألا يجب معرفة وضعها، وهل هي
جيّدة أو رديئة لقبولها أو تركها كحقوق اسمية فقط للقاصرين».

نهضت مرغريت عند ذلك لكن بييركين قال: «ابقي يا ابنة العم فهذا
الموضوع يتعلّق بك وبوالدك، إنكم تعرفون مدى مشاركتي لكم في حزنكم، ولكن
يجب الاهتمام في هذا اليوم بهذه التفاصيل التي إن تأجّلت سببت لكم جمعياً
الضرر. إنني في هذا الوقت أقوم بمهمتي كموثّق عقود للعائلة.
- «إنّه على حق» قال كلايس.

- ستنتهي المهلة خلال يومين، وعليّ إذاً أن أبدأ منذ نهار الغد بفتح
محضر للجرد حتى ولو لم يكن الأمر متعلّقاً إلا بتأخير ضريبة التركة التي
ستطالبكم بها مصلحة الضرائب. إن هذه المصلحة لا قلب لها ولا تهمّها
العواطف، وهي تنهشنا بأنيابها في أيّ وقت. إذاً سأتي كل يوم، من الساعة
العاشرة وحتى الرابعة، سأتي مع كاتبتي والمحضر المثمن السيّد رابارليه،
وعندما فنهي من المدينة سنذهب إلى الريف. أما ما يتعلّق بغابة وينيي
فستحدث عنها فيما بعد. بعد توضيح هذا الامر لننتقل إلى نقطة أخرى، علينا
أن نستدعي مجلس عائلة لتسمية مشرف على الوصي. إنّ السيّد كوينكس من
برُوج هو أقرب أقاربكم، لكنه قد غداً بلجيكيّاً ويجب يا ابن العم أن تكتب إليه
حول الموضوع لتعرف إن كان هذا النبيل سيستقر في فرنسا حيث أن له ملكية
جميلة، ويمكنك أن تقنعه بالمجيء مع ابنته للسكن في الفلاندر الفرنسية، فإن
رفض فإنّ عليّ أن أؤلف المجلس وفق درجات القرابة.

- «ما هو الغرض من الجرد؟» سألت مرغريت.

- لتسجيل الحقوق، والقيم، وما لكم وما عليكم، وعند ترتيب كل شيء يتخذ مجلس العائلة مراعاة لحقوق القاصرين الإجراءات التي يراها...

- قال كلايس وهو ينهض عن المقعد: «ببيركين، قم بالإجراءات التي تراها ضرورية لحفظ حقوق الأولاد، لكن جئنا الأسى الذي سيعترينا إن رأينا ما يعود إلى عزيزتنا مطروحاً للبيع.. ولم يته كلامه، إنما قال كلماته بمظهر فيه من النبل والتأثير بحيث أن مرغريت تناولت يد والدها وقبلتها.

- «تعالوا إلى الغداء». قال بلتزان ثم بدا وكأنه يستعيد ذكرياته وهتف: «ولكن وفق عقد زواجي الذي أجريته وفق تقاليد مقاطعة هينو^(١) لأعفي زوجتي في حال وفاتي مما يسببه الجرد من آلام، لا نحتاج بدورنا على الأرجح في حالتنا هذه إلى الجرد...»

- «آه! يا للسعادة، هذا الجرد يسبب لنا مزيداً من الألم!» قالت مرغريت.

- حسن، سنفحص عقدكم غداً، قال الموثق مرتبكاً.

- «ألا تعرفه إذاً» سألته مرغريت.

قطعت هذه الملاحظة المداولة ووجد موثق العقود نفسه مشوشاً بعد ملاحظة ابنة العم بحيث لا يمكنه الاستمرار، وقال في نفسه بعد أن غادر وأصبح في فناء الدار: «إن الشيطان يتدخل، فهذا الرجل، على شروده يستعيد صفاء ذاكرته في اللحظة التي ستتخذ فيها إجراءات ضده، إن أولاده سيجرّون من كل مالهم.

إن هذا مؤكداً كالقول أن أربعة هي حصيلة اثنين زائد اثنين، ماذا يجدي حديث المصلحة مع فتيات في عمر التاسعة عشر لا يفهمن إلا بالعواطف. لقد أفرغت كل ما في جعبتي لأنقذ أملاك هؤلاء الأولاد باتخاذ وسائل نظامية وبالتفاهم مع الرجل النبيل كوينكس، والنتيجة! لقد صغرت في رأي مرغريت

(١) هينو: مقاطعة بلجيكية مركزها هامونس.

التي ستسأل والدها عن السبب الذي يدفعني إلى المطالبة بجرّد تعتقد أن لا حاجة له؛ وسيجيبها السيد كلايس أن موثقي العقود لديهم هوس الإجراءات، وأنهم موثّقون قبل أن يكونوا أقباء، أو أولاد عم، أو أصدقاء، أخيراً سيعتبرني من الحمقى...» أغلق الباب بعنف، وهو يرغي ضد الزبائن الذين يدمرون أنفسهم برقّة حساسيتهم.

كان يلتزار على حقّ؛ فلا حاجة لإجراء جرّد. ولم يتحدّد شيء في وضع الأب تجاه أبنائه؛ ومرت عدّة أشهر دون أن يتبدّل الوضع في بيت كلايس؛ فغابرييل يسير بجدّ في دروسه موجّهاً من قبل السيد دي سوليس، وهو يعمل بانتظام، ويتعلّم اللغات الأجنبية، ويتهيأ لإجراء الامتحان الضروري لدخول معهد البوليتكنيك؛ وقليسيا ومرغريت تعيشان في عزلة مطلقة، باستثناء زهابهن خلال فصل الصيف إلى منزل والدهما الريفي اقتصاداً للنفقات؛ وقد اهتم السيد كلايس بأعماله وقام بوفاء ديونه مقترضاً مبلغاً كبيراً على رهن أملاكه، دون أن يتعرض لغابة وينبي إلا بالزيارة؛ وفي منتصف العام ١٨١٧، خفّت أحزانه تدريجياً وتركته وحيداً أعزل أمام رتابة الحياة التي تثقل عليه بفراغها، لقد قاوم أولاً بشجاعة العلم الذي أخذ يستيقظ في نفسه شيئاً فشيئاً، ومنع نفسه من التفكير بالكيمياء، ثم عاوده التفكير بها لكنه لم يرد الانشغال بذلك بفاعلية، واهتم فقط بالدراسات النظرية، لكن هذه الدراسات المستمرة أيقظت هواه المجادل. لقد تسال عما إذا كان قد تعهد بعدم مواصلة أبحاثه، وتذكّر أن زوجته لم ترد منه أن يقسم على ذلك؛ وبالرغم من أنّه قطع على نفسه وعداً ألا يتابع حلّ مسألته، ألا يمكن أن يبدّل قراره في اللحظة التي يتوقع فيها نجاحاً. إنّهُ الآن في التاسعة والخمسين، وفي هذا العمر فإنّ الفكرة التي تسيطر عليه، أكسبته ثباتاً عنيفاً يبداً عنده الهوس الأحادي، وقد ساعدت الظروف أيضاً على مخالفة تلك الأمانة المتأرجحة، فالسلام الذي نعمت فيه أوروبية قد أتاح سريان الاكتشافات والأفكار العلمية المكتسبة خلال الحرب وتبادلها بين العلماء في البلدان المختلفة التي لم تقم بينها علاقات منذ أكثر من عشرين عاماً؛ فالعلم إذًا

قد أخذ طريقه، وقد رأى كلايس أن تقدم الكيمياء قد توجه، بون علم الكيميائيين. نحو الهدف الذي وضعه لأبحاثه؛ والأشخاص العاكفون على العلوم المتعمقة يفكرون، كتفكيره، بأن الضوء، والحرارة، والكهرباء، والغلافية، والمغناطيسية ما هي إلا نتائج مختلفة لسبب واحد، وأن الفروق التي توجد بين الأجسام التي اشتهر عنها أنها بسيطة ناتجة عن اختلاف المقدار الذي تحويه من خلاصة مجهولة. زاد الخوف من أن يشاهد غيره يكتشف اختزال المعادن والمبدأ المشكل للكهربائية، وهما اكتشافان يقودان إلى حل المطلق الكيميائي، في ما سماه أهل نوي جنوناً، وحمل رغباته إلى ذروة لا يعرفها إلا الأشخاص الذين استهوتهم العلوم أو الذين عرفوا استعباد الأفكار؛ وهكذا فقد تملك بلتزار هوى اشتد عنقه بمقدار طيلة زمن رقادته، وكانت مرغريت ترقب الحالات الروحية التي يمر بها والدها، ففتحت عند ذلك غرفة الجلوس، وأيقظت بيقانها فيها الذكريات الاليمة التي سببها موت أمها، ونجحت، في الواقع، بإيقاظها تأسفات والدها، في تأخير سقوطه في الهوة التي كان لا بدّ مع ذلك أن يسقط فيها. لقد أرادت أن تنطلق في المجتمع وألزمت بلتزار على أن يبحث عن وسائل للتسلية، وقد تقدّم إليها عدة طالبين زواج معتبرين شغلوا كلايس، بالرغم من أن مرغريت قد صرّحت أنها لن تتزوج قبل بلوغها سن الخامسة والعشرين.

رغم جهود ابنته، ورغم الصراعات العنيفة في بدء الشتاء عاد بلتزار سرّاً لزواله أبحاثه؛ ولما كان من الصعب إخفاء مثل هذه المشاغل عن النسوة الفضوليات، فإن مرتا قالت يوماً لمرغريت وهي تساعد في ارتداء ثيابها «لقد ضعننا يا آنسة، فهذا الغول مولكيني، الذي أحسبه شيطاناً مقنعاً، إذ أنني لم أراه يوماً يرسم إشارة الصليب، قد صعد من جديد إلى السقيفة، والسيد والدك قد استقل السفينة التي تبخر إلى الجحيم، أتضرّع إلى السماء ألا يقتلك كما قتل سيدتي العزيزة المسكينة.

- «هذا غير ممكن»، قالت مرغريت.

- تعالي لتشاهدي البرهان على عمله غير المشروع.

أسرعت الأنسة كلايس إلى النافذة، ولاحظت فعلاً دخاناً خفيفاً ينطلق من مدخنة المخبر.

فكرت مرغريت في نفسها: «سأكون في الحادية والعشرين من العمر بعد عدة أشهر وسأعرف كيف أحول دون تبديد ثروتنا».

بانقياد بلتزار لهواه، أصبح بالضرورة أقل احتراماً لمصالح أولاده عما كان بالنسبة لمصلحة زوجته، فالحواجز هنا أقل ارتفاعاً، وضميره أكثر تساهلاً، وهواه أكثر عنفاً. وهكذا فقد مشى على طريق المجد، والعمل، والرجاء، والشقاء، باندفاع رجل ملؤه اليقين؛ وقد أخذ بالعمل، وهو متأكد من النتائج، ليلاً ونهاراً، باندفاع رمى الذعر في قلب ابنتيه اللتين تجهلان قلة ما يحدثه الجهد المتواصل من أذى، إن كان الإنسان راغباً في عمله.

ما أن عاد الأب إلى تجاربه، حتى استغنت مرغريت عن كل ما هو غير ضروري على المائدة، والتزمت بتقتير البخلاء، وقد ساعدتها على ذلك بشكل باهر مرتا وجوزيت؛ ولم يلاحظ كلايس هذا التغير الذي يجعل الحياة مقتصرة على الضروريات فقط، فهو أولاً لا يتغدى، ثم إنّه لا يغادر مخبره إلا في موعد العشاء، ومن ثم يذهب إلى النوم بعد بضع ساعات يقضيها بين ابنتيه في غرفة الجلوس دون أن يوجه إليهما كلمة؛ وعندما ينسحب، يتقدم منهما بشكل ألي لتقبلاه على خديه متمنيتين له ليلة سعيدة. إن مثل هذا السلوك كان سيسبب أكبر البلايا المنزلية لو لم تتهياً مرغريت لممارسة سلطة الأم، وتتقي مساوئ هذا التصرف غير المسؤول بهوى خفي.

كان بييركين قيد انقطع عن زيارة ابنتي عمه مستنتجاً إحاقه الدمار الكامل بهما؛ فملكيات بلتزار الريفية التي كانت تؤمن دخلاً سنوياً مقداره ستة عشر ألف فرنك وتساوي نحو مئتي ألف إكو، غدت مرهونة على ثلاثمئة ألف فرنك. كان كلايس قد استدان مبالغ معتبرة قبل أن يرتد إلى الكيمياء، وكفى دخله يكاد يكفي تسديد الفوائد فقط. لكن مع عدم التبصر لدى الأشخاص المنصرفين كلياً إلى فكرة، فإنّه قد تخلص عن إيجار الأرض لمرغريت تأميناً

لنفقات البيت، وفي حساب موثق العقود أن ثلاث سنوات ستكفي لحرق مداخيلهم وأن رجال العدالة سيأتون على ما أبقاه بلتزار. لقد قاد برود مرغريت ببيركين إلى حالة من اللامبالاة شبه عدوانية، ومن أجل أن يعطي لنفسه حق رفض يد ابنة عمه إن ألمّ بها الفقر، كان يقول عن آل كلايس وبمسحة من الشفقة: «إن هؤلاء الأشخاص المساكين قد أفلسوا، وقد فعلت كل ما أستطيع لانقاذهم، ولكن ما العمل؟ إن الأنسة كلايس قد رفضت جميع الترتيبات القانونية التي تقيهم من الشقاء».

أمّا إيمانويل الذي سمي مديراً لثانوية دوي بفضل توسط عمه وبمقدرته الفائقة التي أهلته لهذا المنصب، فكان يأتي كل يوم مساءً لزيارة الفتاتين اللتين تستدعيان المربية العجوز للبقاء معهما عندما يذهب والدهما إلى النوم. كانت قرعة الباب الهادئة المميزة للشاب دي سوليس لا تتأخر أبداً، وقد اكتسب ثقته بنفسه منذ ثلاثة أشهر، بعد أن لقي العرفان الرقيق الصامت الذي استقبلت به مرغريت رعايته، فشعّ إشراق روحه النقية كالماسة دون شائبة، وأمكن لمرغريت أن تقدر مدى ما تتمتع به من قوة واستمرارية ترد من نبع لا ينضب، وراق لها أن ترى أزهارها تتفتح واحدة بعد الأخرى بعد أن استنشقت مسبقاً عطرها. في كل يوم، كان إيمانويل يحقق أملاً من آمال مرغريت، ويسكب في المناطق المتهللة للحبّ أشعة جديدة تطرد الغيوم، وتعيد إلى سمائهما صحوها، وتلونّ المواهب الممرعة الدفينة حتى الآن في الظلّ. لقد أمكنه، وقد لاقى التشجيع أن يفصح عما في قلبه من مغريات كانت حتى الآن خبيثة برصانة: هذه البهجة المفتحة في زهوة الشباب، وهذه البساطة التي تمنحها حياة مليئة بالدراسة، وكنوز ذهن مرهف لم يفسده المجتمع، ودعابات بريئة تتلاءم مع شباب مغرم. كانت روحه وروح مرغريت تزدادان تفاهماً، فهما يغوصان سوياً إلى أعماق قلبيهما فيجدان فيهما الأفكار ذاتها: لآلى ذات بريق واحد، إيقاعات حلوة ونضرة مماثلة لتلك التي تزخر بها أعماق البحار، والتي يقال أنها تفتن الغواصين. لقد ازداد كل منهما معرفة بالآخر بهذه الملاحظات المتبادلة، وهذا

الفضول المتناوب الذي يأخذ لدى كليهما أشكال العاطفة الأكثر عنوية. كل شيء يتم بدون خجل مزيف ولكن ليس بدون ملاحظات متبادلة. لقد جعلت الساعتان اللتان يقضيهما إيمانويل، كل أمسية، بين هاتين الشابتين ومرتا، مرغريت ترتضي حياة المرارة والاعتزال التي التزمت بها، فهذا الحب المتدرج ببراءة كان سنداً لها. كانت بينات المودة تقترن لدى إيمانويل بتلك الرقة الطبيعية التي تفتن، وذلك الذهن الدقيق الصافي الذي ينوع انتظام العاطفة كما تزيل الوجيها رتابة الجوهرة الثمينة وتجعل كل وهجها بتألق. إنها طرق مدهشة لا تعرف سرها إلا القلوب العاشقة وتجعل النساء طيبة أمام اليد الصنّاع التي تجدّد فيهن دائماً الشكل، ومصغية إلى الصوت الذي لا يكرّر جملة واحدة دون أن يطرحها بترنّات جديدة. إنّ الحب ليس فقط عاطفة، إنّما هو فنّ أيضاً. كلمة بسيطة، احتراس، ثقافة تكشف للمرأة الفنان الكبير السلمي الذي يمكن أن يلامس قلبها دون أن ينويه؛ ذلك كان إيمانويل كلّما استرسل، كلّما زادت تعابير حبه جاذبية.

قال لها ذات مساء: لقد سبقت بييركين، فهو أت لينقل إليك نبأ سيئاً. ففضّلت أن أعلمك به بنفسي. لقد باع والدك غابتكم إلى مضاربين جزّوها وباعوها مجدداً، وقد قطعت أشجارها، ورفعت روافدها؛ وتلقى كلايس ثلاثمئة ألف فرنك نقداً دفعها تسديداً لديونه في باريس بل واضطر إلى استلاف مئة ألف فرنك لاتمام السداد كلياً، على المئة ألف إكو التي تتوجب له على المشترين مستقبلاً، دخل بييركين وهو يقول: «إيه، يا ابنة العم العزيزة، ها قد أفلستم لقد توقعت لك ذلك، لكنكم رفضتم الإصغاء لي. إن شهية والدك مفتوحة، وقد ابتلع غابتكم من اللقمة الأولى. إن المشرف على وصيتكم السيد كوينيكس في امستردام، حيث يقوم بتصفية ثروته وقد استغل كلايس الفرصة ليقوم بضريته، والأمر غير جيّد وقد كتبت عن ذلك للرجل الطيب كوينيكس، ولكن عندما يصل يكون كلّ شيء قد استهلك، وستكونون ملزمين بملاحقة والدكم قضائياً؛ وإن تطول الدعوى إنّما ستكون شائنة، فالسيد كوينيكس لن يستطيع اعفاء نفسه من

إقامتها لأن القانون يلزمه بذلك. هذه هي ثمرة عنادك، اتعترفين الآن بمدى حرصي وإخلاصي لمصالحكم.

- قال دي سوليس الشاب بصوت عذب: «إنني أحمل إليك نبأ طيباً يا آنسة، فغابرييل قد قبل في معهد البوليتكنيك، وقد ذلت العقبات التي تعترض ذلك».

- شكرت مرغريت صديقها بابتسامة وقالت: «لقد أصبح لدخراتي مقصداً! إننا سنهتّم يا مرتا، منذ نهار غد، بجهاز غابرييل، وأنت يا عزيزتي فليسيا ينتظرك عمل كثير لمعاونتي. قالت وهي تقبل أختها على جبينها.

- سيقضي اعتباراً من نهار غد عشرة أيام بينكم، إذ يجب أن يكون في باريس في ١٥ تشرين الثاني.

قال موثّق العقود وهو يرمق مدير الثانوية شذراً: «لقد اتخذ ابن العم غابرييل قراراً جيداً وسيكون بحاجة إلى تكوين ثروة. لكن يا ابنة ابعم العزيزة، إن الأمر يتعلّق بانقضاء شرف العائلة. أتريدين هذه المرّة الاستماع لي؟
- كلاً، إن كان الأمر ما يزال متعلقاً بالزواج.

- لكن، ماذا تفعلين؟

- أنا، يا ابن العم؟ لا شيء.

- مع أنّك قد بلغت سن الرشد.

خلال بضعة أيام، هل لديك اقتراح تعرضه عليّ يمكن أن يوفّق بين مصالحنا وما يتوجّب علينا نحو والدنا، ونحو شرف العائلة؟

- يا ابنة العم، إنّنا لن نتّمكن من أي تصرّف بدون خالك. أما والأمر هكذا فساتيكم عند عودته.

- وداعاً، يا سيّدي. قالت مرغريت.

«كلّما ازدادت فقراً، ازدادت تزمّناً، قال موثّق العقود في نفسه ثم هتف

بصوت عالٍ «وداعاً يا آنسة، وأنت يا سيدي المدير لك تحيتي الخالصة، وغادر المكان دون أن ينتبه إلى فليسيا أو مرتا.

«منذ يومين، وأنا أدرس ما يتعلق بهذه القضية قانونياً، وقد استشرت محامياً عريقاً هو صديق لعمي، وإذا أذنت لي فسأسافر إلى امستردام غداً، أصغي إليّ يا عزيزتي مرغريت...» نطق بكلمة «عزيزتي» للمرة الأولى، وشكرته مرغريت بنظرة مغرورة بالدمع، وابتسامة وإحناء رأس. لكنه توقف واتجه بنظرة إلى فليسيا ومرتا.

قالت مرغريت: «تكلم بصراحة أمام أختي، فهي ليست بحاجة إلى المجادلة لتقتنع بما في حياتنا من حرمان وجهد. إنها غاية في الشجاعة واللفظ، لكن يجب أن تعرف كم تلزمتنا الشجاعة الآن.

شدت كلّ أخت بحرارة على يد أختها، ثم تعانقا وكأنهما يثبتان عهداً جديداً على موقفهما الموحد أمام النكبات.

«اتركينا، يامرتا».

استأنف ايمانويل وقد أتاح لتغير نبرة صوته أن يعبر عن السعادة التي غمرته بفوزه بأدنى حقوق المودة: يا عزيزتي مرغريت، لقد حصلت على أسماء وعناوين الشارين المتوجبّ عليهم مبلغ مئتي ألف فرنك متبقية من ثمن الأشجار المقطوعة. فإذا طلبت من أحد المحامين أن يتصرّف باسم السيد كوتينكس الذي لن يتنصل من ذلك، ويبلغ المحامي الشارين معترضاً على التسديد، خلال ستة أيام، يكون خال والدتك قد عاد، فيدعو مجلس عائلة ويطلب لغابرييل البالغ من العمر ثمانية عشر عاماً حق التصرف، وينيلك مع أخيك هذا الحقّ تطلبان نصيبكما من ثمن أشجار الغابة، ولن يتمكن السيد كلايس من رفض تسليمكما المئتي ألف فرنك التي جمدها الاعتراض. أما المئة ألف فرنك الأخرى المستحقة لكما فيمكنكما أن تضعها رهنا على البيت الذي تسكنونه تأمينا لها. كما أن السيد كوتينكس سيطلب ضمانات لقاء مبلغ ثلاثمئة ألف فرنك الذي هو نصيب

فليسيسيا وجان. في هذه الحالة سيكون والدك ملزماً بالسماح برهن أملاكه في سهل أورشي المثلث سابقاً بدين مئة ألف إكو، لكن القانون يعطي أفضلية ذات مفعول رجعي للإجراءات المتخذة لمصلحة القاصرين كل شيء سينقذ بذلك، وسيكون السيد كلايس مقيّد اليدين، فأراضيكُم غير قابلة للتصرف، وإن يتمكن من الاستدانة على أملاكه المثقلة بديون أكبر من قيمتها، كما تتم جميع هذه الإجراءات عائلياً، دون فضائح أو قضايا، وسيضطر والدك للتروي في أبحاثه، هذا إذا لم يتوقف عنها نهائياً.

- نعم، لكن أين المداخليل، إن المئة ألف فرنك المسجلة لقاء رهن هذا البيت لن تدرّ علينا لأننا ساكنون فيه، وما تغلّه أملاك والدي في سهل أورشي يسدّد فوائد ثلاثمئة ألف فرنك المتوجّبة للغرباء، فمن أين تنفق على معيشتنا.

- أولاً بوضع مبلغ خمسين ألف فرنك الباقية من حصة غابرييل في الاستثمار العام وسيكون لكم بمعدل الفائدة الحالية دخلاً يقدر بنحو أربعة آلاف ليرة تكفي لمعيشة غابرييل ومصاريفه في باريس، وهو لن يتمكن من التصرف بالمبلغ المترتب على رهن منزل والدك، إلا من المبلغ الموضوع في الاستثمار، وبذلك لن تخشوا أن يبدّد دانقاً عدا عن تأمينكم لنفقاته؛ ومن ثم ألا يتبقى لكم مئة وخمسون ألف فرنك؟!

- «سيطلبها والدي وإن استطيع أن أرفض له طلبه». قالت بذعر.

- حسن يا عزيزتي مرغريت، يمكنك إنقاذها أيضاً بتجرّدك منها، ضعيتها في الاستثمار الطويل الأجل باسم أخيك، وسيعطيكُم هذا المبلغ فائدة اثنتي عشرة أو ثلاث عشرة ألف ليرة سنوياً تؤمّن نفقات عيشكم؛ والقاصرون المفوّض بإدارة أملاكهم لا يمكن التنازل عن شيء منها دون العودة إلى مجلس العائلة، وهكذا فستربحون ثلاث سنوات من الطمأنينة، قد يجد خلالها والدك ما يبحث عنه أو سيتخلّى عنه على الأرجح ويمكن لغابرييل الراشد أن يسترد المبالغ الموضوعة في الاستثمار لتتقاسموها فيما بينكم أنتم الأربعة.

استفهمت مرغريت من جديد عن إجراءات قانونية أُغلق عليها فهمها سريعاً، وكان مشهداً جديداً رؤية الحبيبين منكبين على دراسة المرجع القانوني الذي أحضره إيمانويل لشرح الأسس الناعمة لإدارة أملاك القاصرين، وقد أدركت سريعاً مضمونها بفضل ما قطرت عليه النساء من فطنة يزيد الحب من نهايتها.

في اليوم التالي عاد غابرييل إلى البيت الأبوي وقد رافقه السيد دي سوليس معلناً لوالده قبوله في معهد البوليتكنيك، فأجاب الوالد شاكرًا المدير بإشارة من يده وهو يقول: إنني جدّ مرتاح لهذا التبا، سيصبح غابرييل عالماً إذاً.

- «آه! يا أخي، قالت مرغريت وهي تشاهد والدها يصعد إلى مخبره. «اعمل جيداً، لا تبثّر في الانفاق! قم بواجباتك، وكن مقتصداً، في الأيام التي تخرج بها إلى باريس، اذهب إلى أصدقائنا أو أقربائنا كي لا تتعرّض إلى الإغراءات التي تفسد الشباب. ستصل مخصصاتك إلى نحو ألف إكو، سيتبقى لك منها نحو ألف فرنك لقضايا لهوك، ويجب أن تكفيك.

«إنني أضمنه» قال إيمانويل دي سوليس، وهو يرتب على كتف تلميذه.

بعد شهر، تمكّن السيد كونيكنس، بالاتفاق مع مرغريت، أن يحصل من السيد كلايس على الضمانات المرغوبة. وتمّت الموافقة على جميع الترتيبات التي هيأها. بحكمة إيمانويل دي سوليس ووضعت موضع التنفيذ، فبموجب القانون، وأمام استقامة قريبه الخالصة التي لا تتساهل أبداً في قضايا الشرف، كان يلتزّار خجلاً من البيع الذي وافق عليه في فترة ضايقه فيها دائنوه فاضطر إلى الإذعان إلى جميع مطالبهم. كان مغتبطاً لأن بالإمكان استدراك الخطأ الذي سببه بشكل لا إرادي تقريباً لابنائه، فوقع على جميع الصكوك بانشغال العالم، لقد أصبح عديم التبصر تماماً، على طريقة ذلك العبد الذي يبيع امرأته صباحاً في سبيل كأس من خمر، ثم يبيكها مساءً، لم يكن يلتفت حتى لمستقبله الأكثر قرباً، ولا يفكر بموارده التالية وهو ينفق آخر إكو معه. لقد تابع أبحاثه، واستمر

في مشترياته، دون أن يدرك بأنه لم يعد إلا المالك ظاهرياً لمنزله ولأمواله، وأن ضوابط القوانين القاسية تجعل من المستحيل عليه أن يحصل على فلس واحد من الأملاك التي هو حارسها القضائي.

- انقضت سنة ١٨١٨ دون أي حادث مكرّر، إذ تمكنت الفتاتان من تسديد نفقات دراسة جان وتأمين مصاريف المنزل من ريع المبلغ الذي وضع في الاستثمار باسم جان، وقد بلغ هذا الريع ثمانية عشر ألف فرنك سنوياً يرسل نصفها كل ستة أشهر بانتظام من قبل الأخ.

توفي الكاهن عم دي سوليس في شهر كانون أول من ذلك العام؛ وفي ذات صباح، أنبأت مرتا مرغريت أن والدها قد باع مجموعته من أزهار الخزامى الفريدة، وأثاث المنزل الأمامي، وجميع الفضيّات؛ فاضطرت أن تشتري أطباقاً وأدوات مائدة ووسمتها بأحرف اسمها الأولى.

لقد التزمت حتى الآن بالصمت، تجاه جميع التبديدات التي قام بها والدها، لكنها في ذلك المساء، وبعد العشاء، طلبت من فليسيا أن تتركها منفردة معه، وعندما جلس وفق عادته في زاوية قريبة من مدفأة غرفة الجلوس، قالت له مرغريت: «يا والدي العزيز، أنت حرّ في أن تبيع كلّ شيء هنا، حتى أولادك، ونحن هنا سنطيعك دون تذمر، ولكنني ملزمة بأن ألقت نظرك إلى أننا بدون أي مبلغ من المال، وما لدينا لا يكفي لاستمرار معيشتنا هذه السنة، وبسبب أننا وفليسيا للعمل ليلاً ونهاراً في ثوب من الدانتيل لنتمكن بواسطة ثمنه من تسديد أقساط المدرسة الداخلية لجان. إنني أتوسّل إليك، يا أبي الطيب، أن توقف تجاريك.

- إنك على حقّ يا ابنتي، خلال ستة أسابيع سينتهي كلّ شيء، فإمّا أن أجد المطلق، وإمّا أن يكون هذا المطلق غير قابل للوجود. ستصبحون كلّكم أغنياء، من أصحاب الملايين.

- «أترك لنا الآن قطعة الخبز فقط» أجابت مرغريت.

- «ألا يوجد خبز هنا، قال كلايس مذعوراً»، ألا يوجد خبز في منزل آل كلايس، أين أملاكنا وريعها؟

لقد قطعت أشجار غابة وينبي من الجذور، وماتزال الأرض مشغولة بهذه الأعمال، وبالتالي لا يمكن الاستفادة منها بشيء، أما أجور أراضيكم في أورشي فهي لا تكفي لدفع فواتير المبالغ التي تدينونها.

- «مم نعيش إذا؟» سأل.

أشارت مرغريت إلى أبرتها وأضافت: «من هذه مع مساعدة ربيع المبلغ الموضوع باسم غابرييل، لكنها غير كافية ويمكنني بشقّ النَّفس أن أضم طرفي السنة بواسطتها لو لم تثقل علينا بهذه الفواتير غير المتوقعة. إنك لا تقول لي شيئاً عن مشترياتك من المدينة؛ وعندما أعتقد أن لدي ما يكفيني للفصل الواحد واتخذ ترتيباتي على هذا الأساس، تردني أشعار عن مشتريات صودا وبيوتاس وزنك، وكبريت، وغيرها مما لا أعرفه!

- يا ابنتي العزيزة، اصبري ستة اسابيع فقط، وبعدها سأتصرف بكل تعقل، وستشاهدين العجائب، يا صغيرتي مرغريت.

- لقد حان الوقت لتفكر بوضعك. لقد بعث كل شيء: اللوحات، والخزاني، والفضيات، ولم يبق لدينا شيء، على الأقل لا تركب علينا ديوناً جديدة.

- «سأنتوقف عن ذلك» قال الرجل الكهل.

- ستتوقف! هذا يعني أنك استندنت من جديد؟ صاحبت الفتاة.

- «لا شيء يثير المخاوف» أجاب وقد خفض بصره واحمرّ وجهه.

وجدت مرغريت نفسها لأول مرة مهانة بذل والدها، وبلغ بها الالم حداً لم تجرؤه عنده على سؤاله عن الدين الجديد؛ وبعد شهر من هذه الواقعة، تلقى مصرفي من المدينة كمبيالة موقّعة من كلايس بمبلغ عشرة آلاف فرنك، رجت

مرغريت المصرفي أن ينتظر خلال ذلك اليوم معبرة عن أسفها لأنها لم تعلم بهذه الدفعة، فنبهها المصرفي بأن محل بروتز وشيفرفيل له تسع كمبيالات أخرى كل منها بالقيمة نفسها وهي تستحق شهراً بعد شهر.

«لم يعد السكوت ممكناً، ولا بدّ من مجابهة هذا الواقع» صاحت مرغريت بحرقة، وأرسلت تستدعي والدها وهي تزرع غرفة الجلوس جيئة وذهاباً بخطوات سريعة وهي تحدث نفسها «يجب إيجاد مئة ألف فرنك، أو أن السجن ينتظر والدنا! ما العمل؟ لم ينزل بلتزار، وحلّت مرغريت من الانتظار فصعدت إلى المخبر، حيث وجدت عند دخولها أباهما وسط قاعة فسيحة، شديدة الإضاءة، مليئة بالماكينات والزجاجيات المغبرة، وقد تناثرت هنا وهناك الكتب، والمناضد المليئة بمنتجات موسومة ومرقمة، في كلّ مكان تشهد الفوضى على انشغال العالم الذي تخلّى عما تميّزت به العادات الفلمنية من اهتمام بالترتيب. كانت هذه المجموعات من المطّرات، والمعوّجات، والمعادن والمتبلورات الملوّنة بشكل عجيب، والعيّات المعلقة على الجدران. أو المحشوّة في الأفران تبدو وكأن صورة بلتزار كلايس تهيمن على كلّ واحدة منها وهو في وسطها وقد تجرد من معظم ثيابه، وبدت ذراعه العاريتان كذراعي أحد العمال وصدره المكشوف وقد غطاه الشعر الأبيض كشعر رأسه. عيناه تحدّقان بشكل ثابت رهيب في ماكينة لتفريغ الهواء وقد تغطى حوضها بعدسة تتألف من قطعتي بلور محدبتين وهي تلمّ أشعة الشمس الداخلة عندئذ من إحدى حجيرات نجميّة السقيفة، كان الحوض المعزول الصفيحة متصلاً بواسطة أسلاك مع بيل فولطا ضخّم، وقد انشغل لمواكبيته بتحريك صفيحة تلك الماكينة القائمة على محور متحرك بحيث تبقى عدستها في اتجاه عمودي على أشعة الشمس، وصاح الوصيف، الذي بدا وجهه أسود مغبراً: «آه! لا تقتربي يا آنسة!».

رأت والدها شبه راكم أمام ماكنته وقد تسلّطت عليه أشعة الشمس عمودية وانتثر شعر رأسه فيدا كأسلاك من فضة، وقد تحدّب قحف رأسه وتفضّض وجهه بتأثير انتظار رهيب، وتفرّد الأشياء التي تحيط به، والظلال التي

تحتجب خلفها أقسام السقيفة الواسعة التي تبرز منها مآكثات غريبة قد ساهمت جميعاً في التأثير على مرغريت التي قالت في نفسها برعب «لقد جُنُّ والدي» واقتربت منه وهمست في أذنه: «اصرف لمولكيه».

- كلا، كلا، يا ابنتي، إنني بحاجة إليه، إنني انتظر نتائج تجربة فريدة لم يفكر بها الآخرون. لقد مرّت ثلاثة أيام ونحن نترقّب أشعة الشمس، بعد أن توصلت إلى وسائل أخضع فيها المعادن إلى فراغ تام بتأثير الحرارة الشمسية المركّزة والتيّارات الكهربائية، سترين خلال لحظات تأثير أكبر قدرة استطاع أن يتحكّم بها كيميائي، وأنا وحدي....

- إيه! يا والدي، بدلاً من أن تبخّر المعادن كان يجب أن تحتفظ بها لتسديد كمياتك...

- انتظري، انتظري!

- لقد حضر السيد مرسكتس وهو يطالب بعشرة آلاف فرنك في الساعة الرابعة.

- نعم، نعم، حالاً. لقد وقّعت هذه الأشياء الصغيرة المستحقة هذا الشهر، هذا صحيح، كنت أعتقد أنني سأصل إلى الكشف عن المطلق. يا إلهي! لو كان لدي أشعة شمس شهر تموز لتمّت تجربتي بنجاح! شدّ بلبزار شعره بيديه، وجلس على مقعد قديم مخلوع من القصب، وتدحرجت بضع عبارات من عينيه.

«إن سيدي على حقّ، فكلّ ما أصابنا نتيجة شحّ هذه الشمس الضعيفة جداً، يا لخسّتها وكسلها.

لم يبد على المعلم والخادم أنهما يعيران انتباهاً لمرغريت، فقالت: «اتركنا يا مولكنيه».

- «أه! إنني أجري تجربة جديدة»، هتف كلايس.

قالت مرغريت بعد أن أصبحت ووالدها منفردين: «انس تجارك، يا

والدي» انّ عليك تسديد مئة ألف فرنك، ونحن لا نملك فلساً منها. اترك مخبرك فالأمر الآن متعلّق بكرامتك، ما مصيرك عندما تغدو في السجن؟ أتلطخ شيبتك واسم آل كلايس بعار تفليسة؟ إنني أعارض ذلك، وسيكون لدي القوة لمصارمة جنونك، إنه لأمر مرعب أن أراك جائعاً في أيامك الأخيرة. افتح عينيك وتطلع إلى وضعنا، ألا تتمالك رشداً أخيراً؟

- جنون! صاح بلتزار وقد هبّ واقفاً، ووجّه نظرات ملتهبة إلى ابنته، وصالب يديه على صدره، وردّد كلمة «جنون» بمهاية دبّت الرعشة في نفس مرغريت، ثم قال: «أه! إن أمك لم تتفوّه بهذه الكلمة، ولم تكن تجهل أهمية أبحاثي، لقد انكبّيت على دراسة العلم لتفهمني، وكانت تعرف أنني أعمل من أجل الانسانية وأنني منزّه عن كل أنانية أو عيب. إن عاطفة المرأة المحبّة، كما أرى، هي فوق مودّة الأبناء. نعم إن الحب أجمل العواطف! «أملك رشدي؟» تابع وهو يديق على صدره، «هل ينقصني الرشداً؟ أليست أنا ذاتي؟ إننا فقراء، يا ابنتي، الواقع إنني أريد ذلك، إنني والدك ولي عليك جق الطاعة. سأجعلكم أغنياء عندما يروق لي ذلك. إن ثروتكم لم تك إلا شيئاً زهيداً، وعندما أتمكن من إيجاد مذهب للكربون فسأملأ غرفة جلوسكم الماساً، وهذه ترهّة بالمقارنة مع ما أبحث عنه. يمكنكم أن تنتظروا إفناء ذاتي في هذه الجهود الجبّارة.

- يا أباي، ليس من حقي أن أساءك عن أربعة ملايين بدّتها في هذه السقيفة بدون نتيجة، لن أحدثك عن أمي التي قتلتها، لو أن لي زوجاً لأحبته دون شك بمقدار ما أحببت أمي، وسأكون مستعدة لأن أضحيّ له بكل شيء كما ضحّت أمي لك بكل شيء. إنني أتبع تعليماتها بانصرافي إليكم كليّة، وقد برهنت لك عن ذلك بعزوفي عن الزواج حتى لا ألزمك بأن تعيد لي ما أفقدتنيهِ وصايتك. لفترك الماضي ولنفكر بالحاضر، لقد أتيت إلى هنا أعرض ضرورة ملحة خلقتها بنفسك. يلزم مال لتسديد كمبيالاتك، أستمعني؟ وليس هنا ما يمكن وضع اليد عليه إلا صورة جدّ عائلتنا فون كلايس. إنني هنا إذاً باسم أمي التي وصلت إلى حالة من الضعف لم تستطع فيها أن تحمي أولادها من تهوّر والدهم

وطلبت مني أن أصمد أمامك، إنني هنا باسم أخوي وأختي، إنني هنا، يا والدي، باسم جميع آل كلايس أطلب منك أن تتخلى عن تجارك وأن تلتفت إلى البلاء الذي أنت فيه قبل متابعتها، وإن كنت تتسلح بحق أبوتك التي لا نحس إلا أنها سائرة بنا إلى الموت فإن إلى جانبي جميع أسلافك والشرف الذين تعلق أصواتهم على صوت الكيمياء. إن الالتزام بالعائلات له الأفضلية على العلم. إنني في هذا ابنة أبي.

- «وتريدون أن تكوني جلادي» قال بصوت ضعيف.

انسحبت مرغيت عند ذلك كي لا تتراجع عن الموقف الذي اتخذته وخيل إليها أنها تسمع صوت أمها عندما كانت تقول لها: «لا تخالفي والدك كثيراً، وأحببيه جيداً»

«إن الأنسة تقوم في الأعلى بنشاط متميز»! قال لمولكيثيه وهو ينزل إلى المطبخ لتناول قطوره». سنضع يدنا على السر، ولن يلزمنا إلا قليل من شمس تموز، لأن السيد، أه! يا للرجل! إنه تقريباً على خطأ خالق الكون، لن يلزمه إلا بقدر هذا الأمر التافه لتتوصل إلى مبدأ كل شيء، قال هذا لجوزيت وهو يطق ظفر إبهامه على السن المسمى شعبياً المضرب. «لكن باتاترا! لقد أتت الأنسة وهي تصبح من أجل هذه الكمبيالات التافهة».

- «حسن، لم لا تدفعها من أجورك إذا؟» قالت مرتا.

- «ألا يوجد قليل من الزبدة لوضعها على شطيرتي من الخبز؟» طلب

لمولكيثيه من جوزيت.

- وأين الدراهم لشرائها؟ أجابت الطباخة بحدّة، إذا كنتم أيتها الغول العجوز تصنعان الذهب في مطبخكما الشيطاني، فلماذا لا تصنعان قليلاً من الزبدة؟ لن يكون الأمر صعباً جداً وستبيعان في السوق ما يتحرك في القدر. إننا نتناول الخبز الجاف نحن الذين هنا، وهاتان الأتستان تكتفیان بالخبز والجوز، إذاً ستكون عندك وجبتك أفضل من وجبات سيدتي المنزل! إن الأنسة لا تريد أن تنفق أكثر من مئة فرنك شهرياً على المنزل بكامله، ونحن لا نحضر إلا

وجبة العشاء، فإذا أردتما الطيبات، فليكما أفرانكما في الأعلى حيث تقلون اللآلىء التي هي حديث الناس في السوق، يمكنكما إذاً أن تحمرا الدجاج». تنوال لمولكيه قطعته من الخبز وخرج فعقبت مرتا على ذلك بالقول: «سيشتري شيئاً ما من ماله الخاص، هذا أفضل، فهذا يوفر على المنزل، كم هو بخيل! هذا الصيني! قالت جوزيت:» يجب تجويعه لتطويعه، لقد مرت ثمانية أيام لم يجلُ فيها شيئاً، وأنا أقوم بهذا العمل عنه، فهو دائماً في الأعلى. كان بإمكانه أن يعوضني عن ذلك بإمتاعنا ببعض رنكات يحملها إلينا، لقد كنت أتقبل منه ذلك بسرور.

- قالت مرتا: «أه! إنني أسمع صوت نجيب مرغريت. إن أباه المشعوذ العتيق سيبتلع المنزل دون كلمة لله، ياللساحر الخبيث. لو أنه في بلادي لأحرق حياً، لكن الناس هنا أقل إيماناً من مور أفريقية.

لم تستطع الأنسة كلايس أن تخلق عبراتها وهي تجتاز الرواق لتصل إلى غرفتها حيث فضت رسالة والدتها الأخيرة وقرأت فيها ما يلي: «يا ابنتي، ستكون روحي بمشيئة الله معك وأنت تقرئين هذه الأسطر، وهي الأخيرة التي أخطأها! إنها مليئة بحب صغاري الأعزاء الذين تركتهم بين يدي شيطان لم أعرف كيف أقاومه، لقد امتص إذاً خبركم كما قضى على حياتي وحتى على حبي.

تعلمين، يا حبيبتي، انني إن كنت قد أحببت والدكم، فقد عملت على الآ يتلاشى العاشق من نفسي كلياً. لذلك اتخذت حياله احتياطات لم أجروء أن أصرح بها في حياتي، نعم لقد احتفظت في قرارة جدثي على مورد أخير أدخرته ليوم تصلون فيه إلى منتهى التعاسة، فإن أودى بكم إلى الفاقة، أو وجب أن تنقنوا شرفكم، فإلك ستجدين يا ابنتي، لدى الأب دي سوليس إن كان لا يزال حياً، وإلا لدى ابن أخيه إيمانويلنا الطيب، مبلغ مئة وسبعين ألف فرنك، يعينكم على الحياة. إن تعذر ما يكبح جموحه، وإن لم يشكل أولاده حاجزاً أقوى لديه مما كانت سعادتي، وإن لم يتوقف عن سيره الإجرامي، فاتركوا والدكم،

واحيوا على الأقل! إنني لم أتمكن من تركه لأنني ملتزمة به. وأنت يا مرغريت، أنقذي العائلة! إنني أغفر لك كل ما تفعلينه للدفاع عن غابرييل وجان وفليسيا. امتلكي الشجاعة، وكوني ملاكاً حارساً لآل كلايس، كوني حازمة ولا أجروء أن أقول بنون شفقة؛ لكن لإمكان رأب الصدع الحاصل يجب الاحتفاظ بقدر من المال ويجب أن تحسبي نفسك أنك في غداة يوم المصيبة وما من شيء يكبح ثوران الهوى الذي سلبني كل شيء، وهكذا يا ابنتي ستكون كل الطيبة في أن تنسي طيبة قلبك، وسيكون كتمانك، إن احتجت لإخفاء أمر عن والدك ممجداً، وأفعالك، مهما بدت ملومة، ستكون سامية ما دام هدفها حماية العائلة. هكذا أفتى لي الأب الفاضل دي سوليس، وما من ضمير في صفائه وبعد نظره مثل ضميره.

لم أملك الجرأة على قول هذه الكلمات لك حتى وأنا على سرير الموت، ومع ذلك أبقى دائماً موقرةً وطيبةً في هذا الصراع الرهيب! قاومي مع محافظتك على الحب، وارفضي مع المحافظة على الرقة. ستبقى إذاً لدي دموع مجهولة، وآلام لن تتفجر إلا بعد موتي.

قبلني عني أولادي الأعزاء في اللحظة التي ستصبحين فيها ملاذاً لهم.

ليكن الله وجميع القديسين معك.

جوزفين .

اقرنت هذه الرسالة بتصريح من الأب دي سوليس وابن أخيه يتعهدان فيه بتسليم ما أودعته السيدة كلايس ليهما إلى من يقدم لهما هذا التصريح من أبنائهما .

نادت مرغريت العجوز التي صعدت بسرعة إليها: «مرتا، اذهبي إلى السيد ايمانويل واطلبي منه أن يأتي لزيارتي»؛ وعادت إلى نفسها مفكرة قائلة: «يا للانسان النبيل الكتوم، إنه لم يقل لي شيئاً، لي أنا التي أصبحت همومي ومتاعبي جزءاً من متاعبه مهمومه».

وصل ايمانويل سريعاً بعد أن سبق مرتا في طريق العودة، فقالت له وقد عرضت عليه التصريح «لقد كان لديك شيئاً سرياً يتعلق بي».

أحنى إيمانويل رأسه وهو يقول: «إذاً لقد وصلت إلى منتهى التعاسة، يا مرغريت» وترقرقت الدموع في عينيه.

- «أواه! نعم، فكن سَندي أنت الذي أطلقت عليك أُمِّي اسم إيمانويلنا الطيّب». قالت ذلك وهي تريه الرسالة دون أن تستطيع إخفاء حركة تعبر عن فرحها لأن اختيارها قد حاز على قبول والدتها.

- «إن دمي وحياتي أصبحا ملكاً لك غداً اليوم الذي لقيتك فيه في الصلاة» قال وهو يبكي فرحاً وأناً. «لكنني لم أكن أعلم، ولا أجروء على أن أمل قبولك لِدَمِي في يوم ما. إذا كنت قد فهمتني تماماً، تدركين أن كلمتي مقدّسة. اغفري لي هذا الالتزام المطلق لإرادة أمك، فليس لي أن أحكم على نواياها.»

- «لقد أنقذتنا» قالت مقاطعة له، وقد أخذت بذراعه لتنزل إلى غرفة الجلوس. بعد أن عرفت أصل المبلغ الذي يحتفظ به إيمانويل، وأسرت له بالضائقة المؤسفة التي ألمت بالمنزل.

- «يجب السعي لدفع الكمبيالات» قال إيمانويل «وإذا كانت جميعها لدى مرسكتوس، فستربحين القوائد. سأسلّمك مبلغ السبعين ألف فرنك المتبقية بعد ذلك؛ ولقد ترك لي عمي المسكين مبلغاً مماثلاً بالدوقيات من السهل نقله خفية.»

- «نعم، أحمله ليلاً، عندما يكون، الذي نائماً، وسنخفيه نحن سوياً، فقد يستخدم معي العنف، إن عرف أن لدي مالا. أوه، يا إيمانويل، بالصعوبة أن يحترس المرء من والدها» قالت ذلك وقد انهمرت دموعها وأسندت جبينها إلى صدر الشاب.

هذه الحركة الرقيقة الحزينة التي سعت فيها مرغريت لتلقي الحماية كانت أوّل تعبير عن هذا الحبّ المغلف دائماً بالكآبة والمحاط دائماً بجوّ من الألم لكن هذا القلب المتزعزع يجب أن يفيض، وكان ذلك تحت تأثير البلية.

ماذا يفعل؟ وماذا سيَلِم به؟ إنه لا يرى شيئاً، ولا يهتم لا بنفسه ولا بنا ولا أعلم كيف يتمكّن من العيش في هذه السقيفة حيث الجوّ خانق.

- ماذا تنتظرين من رجل يصرخ في كل لحظة كريشار الثالث: «أقدم

مملكتي لقاء حصان!^(١)». سيكون دائماً قاسي القلب، ويجب أن تكوني مثله. ادفعي كمبيالاته، اعطه إن شئت نصيبك من المال، أما نصيب أختك ونصيب أخوك فهي ليست لك وليست له.

«أعطه نصيبي؟» قالت وهي تشدّ على يد إيمانويل وترميه بنظرة من نار: «أنتصحتني بذلك أنت، بينما خلق لي ببيركين ألف كذبة للمحافظة عليه.

- للأسف! ربّما كنت أنانياً على طريقتي، فأنا أحياناً أريدك بدون ثروة، إذ يبدو لي عندئذ أنك أكثر قرباً مني، وأحياناً أريدك غنيّة وسعيدة وأعتقد أن من الصغُر أن نعتقد بأن الوجاهات التافهة للثروة ستفرّق بيننا.
- يا عزيزي لا تتحدّث عنا...

- «عنا» ردّد بنشوة، ثم أضاف بعد توقف: «إن البلية كبيرة ولكن ليس من المتعذر إصلاحها.

- إنها ستصلح من قبلنا وحدنا؛ فعائلة كلايس قد خسرت سيدها الذي لم يعد أباً أو رجلاً، وفقد كلّ مفهوم عن العدل والظلم؛ إذ أنه على كبره وشهامته واستقامته، قد بدّد رغم القانون أملاك أولاد كان يجب أن يصونها؛ فإلى أية هوة قد وصل؟ يا إلهي! عمّ يفتش إذا؟!

- للأسف يا عزيزتي مرغريت، إن كان على خطأ كربّ عائلة، فهو على صواب علمياً، وفي أوروبية نحو عشرين رجلاً يتطلعون إليه باعجاب بسبب الأعمال ذاتها التي يرميه عنها جميع الآخرين بالجنون. لكن يمكنك دون أي تردّد أن تحولي بينه وبين رزق أولاده، وللاكتشافات دائماً صدقتها السعيدة، فإذا قدر لوالدك أن يحظى بحلّ لمعضلته فسيهتدي إليه دون كلّ هذه النفقات، وربّما في اللحظة التي سيفقد بها الأمل بذلك!

- إنّ والدتي قد نعمت بالسعادة، إذ أنّها قضت مع مواجهتها الأولى للعلم ولو أنها صمدت لعانت آلام الموت ألف مرّة قبل أن تموت حقيقة. لكن أليس لهذا الصراع نهاية؟.

(١) كلمة تاريخية مأخوذة من مسرحية «ريشار الثالث» لشكسبير.

- إنَّ له نهاية، ونهايته عندما تفقدون كل شيء، ولا يجد السيد كلايس أي اعتماد فيضطر للتوقف.

- «فليتوقَّف إذناً منذ اليوم، فقد أصبحنا بدون أي مورد»، هتفت مرغريت ذهب السيد دي سوليس فسدَّ قيمة الكمبيالات واستردها وأتى بها إلى مرغريت؛ ونزل بـلتزار خلافاً لعادته قبل العشاء بفترة من الوقت؛ ولأوّل مرّة، منذ سنتين تلاحظ ابنته على ملامحه علائم حزن رهيب: لقد عاد أباً، فالرشد قد أزاح العلم، تطلّع إلى الغناء، وإلى الحديقة، وعندما تأكّد أنّه وحيد مع ابنته، أقبل إليها بحركة تملؤها الكآبة والطيبة، فتناول يدها وشدّ عليها بحنان فائق قائلاً: «يا ابنتي، اغفري لوالدك الكهل؛ نعم يا مرغريت، لقد كنت على خطأ، وأنت وحدك على حق، وما دمت لم أكتشف ما سعيت إليه، فأنا انسان بائس. سأنذهب من هنا؛ لا أريد أن أرى قون كلايس يباع، قال هذا وهو يشير إلى صورة الشهيد، وتابع: «لقد مات من أجل الحرية، وأنا سأموت من أجل العلم، إنّه مبدّل وأنا محتقر».

إيه! ما دهاك يا أبي؟ كلا، قالت ذلك وارتمت على صدره، «إننا نعبدك جميعاً، أليس كذلك يا فليسيا؟ منادية أختها التي دخلت في تلك اللحظة.

- مابك يا أبي العزيز؟ قالت الابنة الصغرى.

- لقد سببت خرابكم.

- «ايه! إنَّ أخوتي سيجمعون ثروة لنا فجان هو الأوّل دائماً في صفّه»

قالت فليسيا.

قادت مرغريت والدها بحركة مليئة بالرقّة والملاطفة البنيوية إلى قرب المدفأة حيث تناولت عن حافتها بعض أوراق كانت تحت الساعة الجدارية وقالت: «خذ، هوذا كمبيالاتك، لكن لا تسجّل غيرها، فلم يبق لدينا ما نسدّد به...

- «هذا يعني أنّك تمتلكين مالاً» همس بـلتزار في أذن مرغريت بعد أن

تغلّب على دهشته.

خنقت الغصة المرأة من هذه الكلمة حلّق الابنة الشجاعة، سيّما وقد

لاحظت الحبور والأمل وشيئاً من الهذيان على وجه والدها الذي أخذ يتلفت حوله، كأنه يحاول اكتشاف الذهب.

«يا أبي، إن ما معي هو لي» قالت بلهجة تخالطها المرارة.
- «أعطني إياه، وسأرده لك مئة ضعف» قال وقد أفلتت منه حركة جشعة.
- «نعم، سأعطيك إياه» أجابت مرغريت وهي تتأمل بلتزار الذي لم يدرك المعنى المبطن في كلمة ابنته.

- آه! يا ابنتي العزيزة، إنك تنقذين حياتي! لقد تصوّرت التجربة الأخيرة، التي يغدو بعدها أي شيء غير ممكن؛ فإن لم أجد المطلق هذه المرة، فيجب العدول عن البحث عنه نهائياً؛ فساعديني يا ابنتي العزيزة وخذي بيدي، إنني أريد أن أجعل منك أسعد امرأة على وجه الأرض، إنك تعيدنين لي السعادة، والمجد، إنك تؤمنين لي القدرة لأغمرك بالكنوز، سأملا دنياك مجوهرات وثروات.»
هرع إلى ابنته يقبل جبينها، ويشدّ على يديها، ويعبر لها عن غبطته بملاحظات بدت لمرغريت أشبه بالمدّة، ولم يحوّل عنها عينيه خلال العشاء، كان يتطلع إليها بمبادرة واهتمام وحيوية العاشق الذي يعبر لحبيبه عن عاطفته؛ فإن بدرت منها حركة، هبّ ليعرف مدلولها ويدرك رغبتها ويسرع لخدمتها بحيث أحسّت بالخجل يغمرها، لقد تبدّت في عنايته روح الشباب التي تتناقض مع شيخوخته المبكّرة. لكن مرغريت كانت تناقض هذه التملّقات مع لوحة الضيق السائد حالياً، سواء بكلمة تشكيك، أو بنظرة تلقيها على واجهات الخزائن الفارغة في غرفة الطعام.

قال الأب: «هيا، خلال ستة أشهر سنملأ كل هذا بالذهب وبالعجائب، ستكونين كملكة، ياه! إن الطبيعة بكاملها ستكون تحت تصرّفنا، وسنكون فوق الجميع... وبفضلك انت... يا مرغيتي، يا مرغيتا! قال وهو يبتسم «إن اسمك هو نبوءة، فمرغيتا تعني لؤلؤة. لقد ذكر سترن^(١) ذلك في مكان ما، هل قرأت سترن؟ هل تريدان أحد كتبه؟ إنه يسرّك.

(١) سترن (١٧١٣ - ١٧٦٨) كاتب إنكليزي هو مؤلف «تريسترام شاندي» و«رحلة عاطفية» ويلزك من المعجبين به ويذكره مراراً في مؤلفاته. لكن اسم مرغريت المذكّر بالزهرة الشبيهة باللؤلؤة هو من أصل فلمندي.

إنَّ اللؤلؤة، على ما يقال، هي ثمرة عُلَّة مرضية في الصدفة، ونحن قد عانينا كثيراً من الآلام.

- لا تحزني ستحققين السعادة لكل من تحبين، ستصبحين قادرة جداً، وثريّة جداً.

- «إنَّ للأنسة قلباً طيباً» قال لمولكينييه وهو يكشّر بوجهه المجدر يصعوبة عن ابتسامة باهتة.

بسط بلتزار خلال تتمة السهرة على ابتتيه كل ما تميّز به طبعه من ظرف ومن سحر في الحديث. كان مُضالاً كحيّة تسعى، ينساب من كلماته ونظراته وميض سيّالة مغناطيسية، وقد استغل كلَّ الاستغلال هذه القدرة المبدعة لديه، وهذه الروح العذبة التي فتنت سابقاً جوزفين. لقد وضع، إن صحَّ القول، ابتتيه في قلبه. وعندما حضر إيمانويل دي سوليس، وجد لأول مرة، ومنذ مدّة طويلة، الأب وابنتيه مجتمعين؛ وقد استسلم مدير الكلية الشاب، رغم تحفظه، لفتنة هذا المشهد فحديث بلتزار وأساليبه كانت ذات جاذبية أخّاذة لا تقاوم.

إن رجال العلم بالرغم من أنهم غارقون دائماً في لجج الفكر وينشغلون دون انقطاع في ملاحظة العالم المعنوي، فهم مع ذلك يلاحظون أدقّ تفاصيل المحيط الذي يعيشون فيه، إنهم في غير زمنهم أكثر منهم شاربون، وهم ليسوا أبداً في انسجام مع ما يحيط بهم، يعرفون وينسون كل شيء؛ يحكمون مسبقاً على المستقبل، يتنبّؤون من أجل أنفسهم فقط، يعيشون الحدث قبل وقوعه لكن دون أن يتحدثوا عنه بشيء؛ وإن استخدموا، في صمت التأمّلات، قدرتهم للتعرف على ما يدور حولهم فإنهم يكتفون بالتيقن من تخمينهم له. يستغرقون في العمل ويطبقون بشكل خاطيء تقريباً، وفي معظم الأحيان، المعارف التي اكتسبوها من شؤون الحياة. أحياناً، عندما يستيقظون من لامبالاتهم الاجتماعية، أو عندما يهبطون من أبراجهم المعاجية إلى عالم الواقع، فإنهم يعودون إليه بذاكرة غنيّة دون أن يفوتهم شيء.

هكذا كان بلتزار، الذي يجمع نفاذ الفكر الذهني إلى دقّة الملاحظة العاطفية،

يعرف كل ماضي ابنته، فهو قد ادرك أو خمن أدق أحداث هذا الحب الخفي الذي يربط بينها وبين إيمانويل؛ ودلّ على ذلك بمهارة موافقاً على رابطتهم العاطفية بإشعارهم بمباركته لها، فكان ذلك أعذب إطراء يمكن لأب القيام به، وقد تلقاه العاشقان دون ممانعة، فعمّ الحبور تلك السهرة بالتضاد الذي شكّته مع الكآبات التي كانت ترهق حياة هؤلاء الأولاد التعساء؛ وأخيراً انسحب بلتزار، بعد أن سكب عليهم أنواره وأفعمهم بحنانه، إن صحّ القول؛ فأسرع إيمانويل دي سوليس، الذي كان يبدو متضيقاً، إلى التخلّص من ثلاثة آلاف دوقية من الذهب موزعة في جيوبه وقد خشي أن يلحظ الأب وجودها، ووضعها على طاولة شغل مرغريت التي غطتها بقطعة قماش كانت ترقوها بينما ذهب إيمانويل ليأتي ببقيّة المبلغ، عندما عاد كانت فليسيا قد ذهبت للنوم، ومرتا مشغولة معها ساهرة تنتظر لتساعد سيّدتها في خلع ملابسها.

دقّت الساعة الحادية عشر، وتساوت مرغريت «أين نخبيء هذا المبلغ؟» دون أن تستطيع مقاومة غبطة اللعب بتحريك بعض الدوقيات في عبث فقدته زمناً.

- قال إيمانويل: «سأزيع هذا العمود من الممر ذي القاعدة المفرغة حيث تضعين هذه الصرر ولن يهتدي حتى الشيطان إليها هنا».

في اللحظة التي كانت مرغريت تقوم بنقلها ما قبل الأخيرة بين منضدة الشغل وعمود الممر، أطلقت صرخة ثاقبة وتركت الصرر تسقط منها فتثقب القطع الذهبية الورق وتتناثر على أرضية الغرفة: فقد كان أبوها واقفاً على باب غرفة الجلوس ويطلّ برأسه وعلى ملامح وجهه تعبير جشع أروعها.

«ماذا تفعلان إذا هنا؟» قال وهو ينقل نظرة بين ابنته التي سمّرها الفزع في مكانها والشاب الذي انتصب فجأة، لكن وقفته إلى جانب العمود كانت معبرة تقريباً. كانت قرعة الذهب على أرضية الغرفة رهيبية، وبدا تناثره تنبؤياً، وقال بلتزار بعد أن دخل وجلس: «لم أكن منخدعاً، لقد سمعت رنين الذهب»، لم يكن أقلّ تأثراً من الشابين اللذين كان قلباهما يخفقان متجاوبين حتى أن

وجيبيهما كان يسمع كضربات نواس وسط الصمت العميق الذي ران فجأة على غرفة الجلوس.

«إنني أكرر شكري لك يا سيد دي سوليس» قالت مرغريت لأيمانويل وهي ترميه بنظرة، وكأنها تقول: «أعني لانتقاذ هذا المبلغ».

«ماذا، هذا الذهب...» قال بلتزار وهو ينظر بجلاء مرعب إلى ابنته وإلى ايمانويل.

- «هذا الذهب للسيد الذي تكرم بإعارته لي لتسديد ديوننا» أجابت.

- احمرّ السيد دي سوليس خجلاً وأراد الخروج؛ فأمسك بلتزار بذراعه قائلاً: «لا تتهرّب أيّها السيد من إبداء شكري لك».

- «سيدي، أنت لست مديناً لي بشيء. إنّ هذا المال للآنسة مرغريت التي استدانته مني برهن أملكها» قال وهو ينظر إلى حبيبته التي شكرته برفقة جفنين غير ملحوظة.

- «لن أشكو من ذلك» قال كلايس وتناول قلماً وورقة عن الطاولة التي تكتب عليها فليسيا والتفت إلى الشابين اللذين عرتهما الدهشة قائلاً: «ما هو المبلغ؟» لقد جعل الهوى بلتزار أكثر مكرماً من أمهر أمتاء الصناديق في الخبث؛ إنّ هذا المبلغ سيكون له. وتردّد سوليس ومرغريت فقال كلايس: «لنعدّ» وأجاب دي سوليس: «هنا ستة آلاف دوقة».

- «سبعون ألف فرنك» تابع كلايس.

شجعت النظرة التي وجهتها مرغريت حبيبها فقال وهو يرتجف: «سيدي، إنّ تعهدك دون قيمة، اغفر لي هذا التعبير التقني الخالص، لقد أقرضت الآنسة هذا الصباح مئة ألف فرنك لتسترد الكمبيالات التي لم تكن قادراً على تسديدها، فلا يمكنك إذا أن تقدّم لي أية ضمانات. إنّ هذه المئة وسبعين ألف فرنك هي للآنسة ابنتك التي يمكن أن تتصرّف بها كما يحلو لها، لكنني لم أقرضها إياها إلا بعد وعد منها بتنظيم عقد برهن حصتها في أرض وينيي الجرداء ضماناً لمالي.

أزاحت مرغريت رأسها كي لا تُلحَظ الدموع التي ترقرت في عينيها
إنَّها تعرف نقاء قلب إيمانويل الذي أنشأه عمه متقيداً بأشدَّ الفضائل الدينية
قسوة؛ فهذا الشاب يروعه بصورة خاصة اللجوء إلى الكذب، وهكذا فيبعد أن
قدم حياته وقلبه لمرغريت، ها هو الآن يضحي براحة ضميره.
قال بلتزار: «وداعاً أيُّها السيد، لقد ظننت أنك أكثر ثقة برجل كان
يعتبرك بمثابة ابن له».

خرج إيمانويل بعد أن تبادل مع مرغريت نظرة ملؤها الأسف، ورافقتهم
مرتا حتى الباب الخارجي وأغلقت بعد خروجه.
ما أن أصبح الأب والابنة منفردين، حتى التفت كلايس إلى ابنته قائلاً:
«أتحبينني أليس كذلك؟» .
- «لا تلجأ إلى المواربة، يا أبي، إنَّك تريد هذا المبلغ، ولن تحصل عليه
أبداً».

أخذت تجمع الدوقيات، ووالدها يساعدها بصمت وهو يتحقق من المبلغ
المتجمّع، ومرغريت تتركه يفعل دون أن تخالجه أيّة رغبة. وبعد جمع الستة آلاف
دوقية وإفها في صدرها، قال بلتزار بلهجة القانط: «مرغريت، إنني بحاجة إلى
هذا الذهب».

- «ستكون سرقة إن أخذته» أجابت ببرود، ثم تابعت: «اسمع يا أبي، من
الأفضل أن تقتلنا جميعاً دفعة واحدة، بدلاً من أن تذيبنا الموت كل يوم ألف
مرّة. فانظر من منا الذي يجب أن يستسلم.
- إذن ستقتلن والدك.

- «سيكون في ذلك انتقام لأمي»، قالت وهي تشير إلى المكان الذي توفيت
عليه السيدة كلايس.

- يا ابنتي، لو تعرفين ما الأمر، لما رميتني بهذه الكلمات. اسمعي،
سأشرح لك المسألة... لكنك لن تفهمينني؟ صاح بياس. أخيراً، هات! ثقي بأبيك
مرّة. نعم إنني أعلم أنني أسأت إلى أمك، وإنني بددت ثروتي كما يقول

الجاهلون، وأنني اختلست أموالكم، وإنكم تعملون جميعاً من أجل تجنبني ما تسمونه جنوناً؛ ولكن يا ملاكي، يا حبيبتي، يا حبي، يا مرغيتي. ألا تستمعين إليّ؟ إذا لم أنجح، سأضحى بنفسي من أجلك، سأطيعك كما يجب أن تطيعيني أنت، سأمتثل لإرادتك، سأترك لك حرية التصرف بثروتني، سأتخلّى عن وصاية أولادي، سأتنازل عن كل سلطة لي، أقسم بذكري والدتك» قال ذلك وهو يذرف الدموع. فأنزاحت مرغيت رأسها كي لا ترى هذا الوجه الباكي. وألقى كلايس بنفسه على ركبتي ابنته معتقداً بأنها قد امتثلت لرغبته.

- مرغيت، مرغيت! أعطني، أعطني! ما قيمة ستين ألف فرنك تتجنبين معها تبكيت ضمير أجلي؟ أترين، ساموت، رفضك يقتلني، ألا تسمعينني؟ ستكون كلمتي مقدسة، إن فشلت، سأتخلّى عن تجاربي، سأترك الفلاندر بل فرنسة بكاملها إن طلبت ذلك، وأذهب لأعمل عاملاً يدوياً وأجمع الفلس بعد الفلس لأحمل يوماً إلى أولادي ما أخذ العلم منهم».

أرادت مرغيت أن تنهض أباه، لكنه أصرّ على البقاء جاثياً عند ركبتيها، وأضاف وهو يبكي: «ألا تكونين لآخر مرة رحيمة ومضحية؟ إذا لم أنجح، فإنني أعطيك أنا بالذات الحق في قسوتك. ناديني عجوزاً مجنوناً! سميني أباً سيئاً؛ أخيراً قولي إنني انسان جاهل! وأنا عندما أسمع كلماتك فإنني أقبل يدك، يمكنك ضربني إذا شئت، وعندما تضربين سأباركك كأحسن البنات متذكراً أنك قد أعطيتني دمك».

- «لو أن الأمر يتعلّق بدمي فقط لأعطيته لك، لكن هل يمكنني أن أترك أخي وأختي يذبحان بالعلم؟ كلا، توقّف، توقّف» قالت وهي تمسح دموعها وتدفع عنها يدي والدها المداعبتين.

- قال وهو ينهض غاضباً: «ستون ألف فرنك وشهران، هذا ما يلزمي، لكن ابنتي تقف حائلاً بيني وبين المجد والغنى. عليك اللعنة، فلست ابنة، ولا امرأة، وليس لك قلب، ولن تكوني أمّاً أو زوجة».

ارتد بعد ذلك قائلاً: «ألا تتركيني أخذاً؟ قل لي يا صغيرتي العزيزة، يا ابنتي العزيزة، سأعبدك» أضاف وهو يمدّ يده إلى الذهب بحركة قوية شرسة.
- إنني عزلاء ضد القوة، لكن الله وكلايس الكبير يريانا! قالت مرغريت وهي تشير بيدها إلى صورة الجد.

- «حسن، جرّبي أن تعيشي مضرّجة بدم أبيك» صاح بلفتاز وهو يرميها بنظرة مرعبة؛ ثم نهض وتأمّل غرفة الجلوس وخرج بهدوء؛ وعند وصوله إلى الباب؛ التفت كما يفعل الشحاذ مادّاً يده بحركة استجداء، ردّت عليها مرغريت بإشارة نفي من رأسها فقال بعذوبة: «وداعاً يا ابنتي، جرّبي أن تعيشي سعيدة».

عندما ابتعد، بقيت مرغريت في خدر أحست فيه انها انعزلت عن الأرض، فهي لم تعد في غرفة الجلوس، ولم تعد تشعر بجسمها، فكأن لها أجنحة تحلّق بها في أجواء عالم الروح حيث كلّ شيء واسع وحيث الفكر يقرب المسافات والأزمان، وحيث توجد يد إلهية ترفع الحجب التي تغطي المستقبل. لقد بدا لها أن أياماً كاملة تنقضي بين كل خطوة وأخرى يجريها والدها وهو يصعد السلم، وأحّت بشعريرة مرعبة في اللحظة التي سمعته فيها يدخل إلى غرفته. قادها حدس سكب في روحها جلاء البرق الحاد، فهرعت تجتاز السلالم، دون نور، ودون ضجة، وبسرعة السهم إلى حيث وجدت أباها يسدّد إلى صدغه مسدساً، فصاحت وهي ترتمي عليه «خذ كلّ شيء»، ثم تهالكت على مقعد.

نظر إليها بلفتاز وهي شاحبة فأخذ يبكي كما يبكي الشيوخ، لقد عاد كطفل، وقبّل جبينها، وقال لها عبارات لا انسجام بينها، لقد كان مستعداً لأن يقفز طرياً، ويدا وكأنه يريد أن يداعب ابنته كما يداعب العاشق حبيبته بعد أن ملأت نفسه سعادة.

«كفى، كفى، يا والدي، فكّر بوعدك، وبوجوب اطاعتي عندما يخيب

مسعاك»

- نعم،

- «آه! يا أمي، كنت ستعطين كل شيء أليس كذلك؟» قالت وهي تلتفت نحو غرفة أمها.

- «نامي بسلام، إنك ابنة طيبة» قال يلتزار.

- «أنا، لقد فقدت ليالي الشباب، لقد أهرمتني يا والدي، كما أذبلت ببطء قلب أمي.

- يا ابنتي المسكينة، أريد أن أطمئنك بأن أشرح لك نتائج التجربة الفريدة التي تصوّرتها، أتدركين.

«إنني لا أدرك إلا خرابنا» قالت وهي تغادر الغرفة.

في صباح اليوم التالي، كان يوم عطلة أحضر إيمانويل دي سوايس جان معه.

«ماذا حدث؟ قال بحزن وهو يلقي مرغريت.

«لقد استسلمت» أجابت.

قال بحركة ممزوجة بغبطة كئيبة: «يا حياتي العزيزة، لو أنك قاومت لأعجبت بك. أما وأنت ضعفت فأنا أعبدك.»

- مسكين، مسكين يا إيمانويل، ماذا سيبقى لنا؟.

- «أتركيني اتصرف، يكفي أننا متحابان، وسيتم كل شيء على ما يرام» هتف الشاب وعلى سيمائه ملامح الإشراق..

مرّت بضعة أشهر في هدوء تام، وأفهم دي سوايس مرغريت أن توفيراتها الشحيحة لن تشكل أبداً ثروة، ونصحها بأن تعيش في يسر فتأخذ من أجل رفاه المنزل بعض ما تبقى من المبلغ الذي أوّمن عليه.

خلال تلك الفترة استسلمت مرغريت للقلق ذاته الذي أثر على والدتها في ظرف مماثل، فأياً كانت درجة جحودها، لا بد من أن يعترها شيء من الأمل المعقود على عبقرية والدها. هذا الأمل الذي يخامر كثيراً من الناس دون أن تعتمر نفوسهم بالآيمان، وتلك ظاهرة لا تفسّر، فالأمل هو زهرة الرغبة المتفتحة، أما الإيمان فهو ثمرة اليقين. كانت مرغريت تقول في نفسها: «إن نجح

أبي سنعيش، سعاد، وكلايس ولولاكينيه وحدهما يقولان سننجح، للأسف يوماً بعد يوم، أخذ وجه هذا الرجل يكتئب، وعندما يحضر للعشاء، لا يجروء أحياناً أن ينظر إلى ابنته، وأحياناً يتطلع إليها أيضاً بنظرات الظفر. كانت مرغريت تقضي أمسياتها مستفهمة من دي سوليس الشاب عن بعض الصعوبات القانونية. وكانت ترهق والدها بالأسئلة عن صلاتهم العائلية. أخيراً فإنها أنهت ثقافتها الرجولية^(١). كانت تحضر دون شك لتنفيذ خطة فكرت بها في حال فشل والدها مرة أخرى في صراعه مع المجهول «س».

في مطلع شهر تموز^(٢) قضى بِلْتزَار نهاراً كاملاً وهو جالس على مقعد في حديقته في تأمل كئيب. نظر عدة مرات إلى تلة الخزامى العارية، وإلى نوافذ غرفة زوجته، كان يرتعش دون شك وهو يفكر إلى كل ما بذله في هذا الصراع: وكانت حركاته تنم عن أفكار لا علاقة لها بالعلم. جاءت مرغريت وجلست قربه تطرّز بغض الوقت قبل موعد العشاء.

«حسن، يا أبي، يبدو أن النجاح لم يحالفك».

- كلا يا ابنتي.

- آه، قالت مرغريت بصوت ناعم، لن أوجه إليك أدنى لوم، فنحن جميعاً مدانون. لكنني أطلب فقط تنفيذ كلمتك التي يجب أن تكون مقدّسه، فأنت سليل كلايس وأولادك يغمرونك حباً واحتراماً، لكنك منذ الآن تعود لي وتتوجب عليك طاعتي. لا تقلق، فملكيتي لن تكون جائرة وسأعمل على إنهاء عهدنا بسرعة. سأترككم لمدة شهر تقريباً وسترافقني مرتاً، ولأمر يتعلّق بك إذ أنك ولدي المحبّب؛ قالت ذلك وقبّلت جبينه. غداً ستدير فليسيا المنزل والفتاة المسكينة ما تزال في ربيعها السابع عشر ولت تعرف التصدي لك، فكن شهماً، ولا تطلب منها فلساً لأن ليس لديها إلا ما يكفي لتأمين نفقات المنزل. تجرّأ وتخلّ لمدة سنتين أو ثلاث سنوات عن تجاريك وأفكارك، وستنضج الفكرة خلالها، وأكون قد أمّنت لك المال اللازم لحلها وستهطلها. حسن، أليست ملكتك متسامحه.

(١) المقصود بذلك الثقافة التي تتطلبها إدارة المنزل وشؤون العائلة بعد أن أصبحت مرغريت هي المدبّرة لها عوضاً عن والدها.

(٢) يبدو هذا مستغرباً بعد أن عبر بِلْتزَار سابقاً عن أمله بحرارة شهر تموز لنجاح تجاربه.

- «لم يضع إذا كل شيء» قال العجوز.

- كلا إذا كنت أميناً على وعدك.

- «سأطيعك يا ابنتي» أجاب كلايس بانفعال عميق.

في اليوم التالي حضر السيد كونيئكس دي كامبري ليقبّل قرييته الصغيرة، وكان في عربة سفر، ولم يُرد أن يبقى لدى قرييه إلا الوقت اللازم لمرغريت وميرتا لتهيئة متاعهما. استقبل السيد كلايس ابن عمه ببشاشة وكان الحزن والذلّ ظاهراً عليه. خَمَن كونيئكس العجوز ما يدور في خاطر بلتزار من أفكار، فقال له على مائدة الغداء بصراحة متناهية: «إنّ لدي بعض لوحاتك يا ابن العم، فأتنا من هواة اللوحات الجميلة، إنه هوى مدمر، ولكن هذا الجنون يملكنا جميعاً.

- أيّها الخال العزيز! قالت مرغريت.

- إنّك تعتبر نفسك مفلساً، يا ابن العم، لكن سليل آل كلايس يملك دائماً كنوزاً هنا، وأشار إلى جيبينه، وهنا، أليس كذلك؟ وأشار إلى قلبه، وهكذا فأتنا أعتد عليك! لقد وجدت في كيس نقودي بعض إكو أضعها تحت تصرفك.
- أه! هتف بلتزار سارداً لك كنوزاً.

- «إنّ الكنوز الوحيدة التي نمتلكها في الفلاندر، يا ابن العم، هي الصبر والعمل، أجاب كونيئكس بقسوة. فسلقنا الكبير نقشت على جبينه هاتين الكلمتين» قال ذلك وأشار إلى صورة الرئيس فون كلايس.

قبّلت مرغريت والدها مودعة، وأعطت تعليماتها لجوزيت وافيليسيا واستقلّت العربة إلى باريس. كان العم الكبير أرملاً، وليس له إلا ابنة في الثانية عشر، ويمتلك ثروة واسعة، لذلك لم يكن مستحيلاً تفكيره بالزواج، وهكذا ظنّ سكان دوي أن الأنسة كلايس ستتزوج قرييها العجوز، وقد أحدثت شائعة هذا الزواج الغني ضجة دفعت ببييركين موثق العقود إلى المجيء إلى منزل آل كلايس، بعد أن طرأت على أفكار هذا الحساب המתان تغييرات كبيرة؛ فمئذ سنتين انقسم مجتمع المدينة إلى معسكرين متعادين يتألف الأول من النبلاء

والثاني من البورجوازيين المعادين بشدة للفريق الأول. هذا الفصل المفاجيء الذي حدث في كلّ فرنسا فقسمها إلى أمتين متعاديتين تصاعدت حساسيات التحاسد بينهما متزايدة فكانت إحدى أهم الأسباب التي دفعت إلى تبني ثورة تموز ١٨٣٠ في الأقاليم. بين هذين المجتمعين المتطرفين أحدهما في ملكيته والآخر في مطالبته بالحرّيات توزّع الموظفون وفق درجة أهميتهم، في هذا المجتمع أو ذاك. أمّا في حال سقوط السلطة الشرعية فإنهم يقفون على الحياد. في بدء الصراع بين النبلاء والبورجوازيين عرفت المقاهي الملكية فخامة خارقة، وتنافست بامتياز مع مقاهي الأحرار، حتى أن هذه التظاهرات الذواقة قد أودت، على ما يقال، بحياة عدة أشخاص بدوا مماثلين للملاط سيء السبك فلم يستطيعوا الصمود أمام هذه التجارب؛ وبالطبع فإن المجتمعين تصفيا بانحصارهما.

استبعد بييركين، بالرغم من غناه الفاحش كرجل إقليم، من حلقات الارستقراطيين ودفع إلى تلك العائدة للبورجوازيين، وقد أحسّ بطعنة في كبريائه من الإخفاقات المتتالية التي تلقاها وهو يرى نفسه يستبعد تدريجياً من قبل أشخاص كانوا يرحبون بمعاشرته منذ عهد قريب. لقد بلغ الأربعين من العمر، وهي المرحلة الأخيرة من الحياة التي يبقى فيها للرجال المرشحين للزواج الأمل بقبول إحدى الشابات الاقتتران بأحدهم؛ والمرشحات اللواتي يمكن أن يرتضين به ينتمن إلى البورجوازية، بينما يمتد به الطمّوح إلى البقاء بين عليّة القوم حيث يمكن لمصاهرة نبيلة أن تدخله وتثبته.

كانت العزلة التي تعيش فيها عائلة كلايس قد جعلتها غريبة عن هذه الحركة الاجتماعية، وبالرغم من أن كلايس ينتمي إلى الارستقراطية العريقة في المقاطعة يبدو أن مشاغله قد حالت بينه وبين الامتثال إلى هذه التافرات التي خلقها التصنيف الجديد للأشخاص؛ ومهما بلغ الفقر بقتاة من آل كلايس فإنها تحمل إلى زوجها هذه الثروة من الزهو التي يتمناها جميع محدثي النعمة. عاد بييركين إذا إلى آل كلايس وقد أضمر رغبة خفية بالقيام بكلّ التضحيات

الضرورية للتوصل إلى عقد زواج يحقق جميع طموحاته، فلازم بلتزار وفليسيا خلال غياب مرغريت، لكنه أحسّ متأخراً بوجود منافس خطر له في شخص إيمانويل دي سوليس، إذ بدت تركة عمّه المتوفي معتبرة، وفي عيني رجل يقيم كل أمور الحياة بسذاجة من خلال الأرقام، بدا له الوريث الشاب أكثر قدرة بماله منه بإغواءات القلب التي لم تكن تقلق أبداً ببيركين. هذه الثروة ردت إلى اسم دي سوليس كل قيمته. فالذهب والنبل هما كثريتين تستضيء إحداهما بالأخرى فيتضاعف بريقها. كان الودّ الصادق الذي يبديه مدير الكلية الشاب لفليسيا ومعاملته لها كأخت يثير روح المنافسة لدى موثق العقود. فيجرب أن يكشف ألق إيمانويل بمزجه اللغة الدارجة مع الموضة وتعايير الملاحظة السطحية ذات المظاهر الحالمة المراثي القلقة التي تتماشى جيداً مع شكله. كان يعبر عن خيبة أمله من كلّ شيء من العالم ويتوجّه بعينيه إلى فليسيا بطريقة يريد فيها أن يجعلها تعتقد أنها الوحيدة القادرة على مصالحته مع الحياة؛ وكانت فليسيا التي يوجّه إليها رجل لأول مرة الإطار، تستمع إلى هذه التعاليل الحلوة دائماً حتى عندما تكون كاذبة، وقد اعتبرت الخواء عمقاً، وهي في إحساسها بالحاجة التي تدفعها إلى تحديد العواطف المبهمة التي يزخر بها قلبها، اهتمت بأين العم ربما عن غيره، دون أن تدري، سببها الاهتمامات المتدلّية التي كان يبديها إيمانويل لأختها. لقد أرادت دون شك أن ترى نفسها، كأختها، هدفاً للنظرات والأفكار والاهتمامات التي يوجهها إليها رجل.

أحسّ ببيركين بسهولة بالتفضيل الذي منحته إياه فليسيا على إيمانويل، واعتبره سبباً لمواصلة جهوده بحيث أنه ارتبط أكثر مما أراد؛ وكان إيمانويل يرقب بدايات هذا الهوى الكاذب على الأرجح، لدى موثق العقود، والبريء لدى فليسيا رغم أن الأمر يتعلّق بمستقبلها. قامت بين أبناء العم بعض محادثات لطيفة، وبعض كلمات يهمس بها بعيداً عن سمع إيمانويل، أخيراً، هذه الخدع الصغيرة التي تعطي للنظرة والكلمة تعبيراً قد تسبّب حلّوته الماكرة أخطاءً ساذجة. جرب بواسطة العلاقة التي ينشئها ببيركين مع فليسيا أن يصل سرّاً

الرحلة التي تقوم بها مرغريت ليعرف إن كان الأمر يتعلق بزواج، وإن كان يجب أن يتخلّى عن أماله، لكن بالرغم من نياحته الكبيرة لم يتمكن بلتزار أو فليسيا من إعطائه أي قبس عن هذا الأمر، لأنهما لا يعلمان شيئاً عن مشاريع مرغريت التي بدا أنها منذ تسلّمت السلطة تتبّع حكمة التكتّم على هذه المشاريع. كانت الأمسيات تمرّ ثقيلة عبر حزن بلتزار القاتم وشعوره بالاحباط بالرغم من أن ايمانويل قد نجح في جذبه إلى اللعب بطاولة الزهر لكن الكيميائي كان شاردأً معظم الوقت حتى يكاد، وهو الرجل الفائق الذكاء، يبدو بليداً. إنّه الخائب في أماله، المذلول لتبديده ثلاث ثروات، المقامر بدون مال، ينحني تحت ثقل ما حلّ به من خراب، وتحت وطأة أماله المخدوعة أكثر منها متبددة؛ هذا الرجل، وقد كمّمه العوز وشعر بفداحة الذنب كان يمثل صورة مأساوية تؤثر على أشد الرجال صلابة؛ فحتى بييركين لم يكن ينظر إلا بعاطفة الاحترام إلى هذا الأسد الحبيس، بعينه وقد كبحت قدرتهما فبدتا هادئتين تحت وطأة الحزن، قاتمتين وقد أتعبهما الضوء، في نظراتهما استجداء لا يجسر اللسان على النطق به. تمرّ أحياناً على هذا الوجه اليباس بارقة تصوّر تجربة جديدة فتدبّ فيه الحياة، ثم إن استقرت عينا بلتزار، بتأمل غرفة الجلوس، على المكان الذي قضت فيه زوجته، ترقّرت دمعات خفاف كحبّات الرمل المتوهجة في صحراء هاتين الحدقتين اللتين جعلهما الفكر أكثر اتساعاً، الرأس الرأس متثاقلاً على الصدر. لقد العالم كتيّتان، لكن العالم ارتد إلى صدره أكثر ثقلأً. هذا الألم العملاق، المتحمّل برجولة كان يوتر على بييركين وإيمانويل حتى ليكاد يدفعهما أحياناً إلى أن يعرضاً على هذا الرجل تقديم بعض المال الذي يعينه على القيام ببعض تجاربه؛ فتحت سريان قناعات العبقرية اليقينية، أدرك الاثنان كيف أمكن للسيد كلايس ومرغريت أن ترميا الملايين في هذه الهوة، لكن التعقّل أوقف بسرعة نوازع القلب. وتجلّت انفعالاتهما بعظامر مواساة زادت من متاعب هذا التيتان المنهار.

كان كلايس لا يتطرّق أبداً إلى ذكر ابنته البكر، ولم يبد أي قلق لغيابها أو للازمتها الصمت وعدم مكاتبته له أو لفليسيا، وعندما يسأل دي سوليس أو بييركين عن أخبارها تظهر عليه علائم الانزعاج؛ فهو الشعور بأن مرغريت

تتصرف معاكسة له؟ أم هو الخزي لتنازله عن حقوق الأبوة الموقرة لابنته؟ هل خف حبه لها لأنها تكاد تصبح هي الأب وهو الولد؟ ربما وجدت كثير من هذه الأسباب، وكثير من هذه العواطف المبهمة العابرة كالغيوم في سماء الروح لتتسج زوال الحظوة الصامت الذي يرتق على مرغريت.

مهما بلغ كبر الرجال العظام المعروفين أو غير المعروفين، المحظوظين أو التعتساء في مساعيهم، فإن لهم بعض التفاهات التي هي من مظاهر الضعف الإنساني، وهم في بلادهم المضاعف، لا يتألمون من مزاياهم بأقل مما يتألمون من عيوبهم. ربما كان على بلتزار أن ياتلف مع آلام كبريائه الجريحة، فالحياة التي يمارسها، والأمسيات التي يجتمع فيها هؤلاء الأشخاص الأربعة في غياب مرغريت، كانت حياة وأمسيات يخيم عليها الحزن، وتملؤها تخوفات مبهمة. إنها أيام جدياء كأرض بور جافة لا تفتقر تربتها إلا عن بعض زهيرات تندبر مواساتها؛ فالجو يبدو لهم عاتماً بغياب الابنة البكر التي غدت روح ورجاء وقوة هذه العائلة.

مرّ شهران هكذا، كان خلالهما بلتزار ينتظر بآناه ابنته التي عادت بعدها إلى دوي يرافقها خال العائلة، وقد بقي في المنزل بدلاً من أن يعود إلى كامبري، ليدعم دون شك بسلطته انقلاباً أعدته قرييته الصغرى؛ وكانت عودة مرغريت بمثابة عيد صغير احتفلت به العائلة، فدعت فليسيا وبلتزار موثق العقود والسيد دي سوليس إلى العشاء، وعندما وصلت عربة الرحلة وتوقفت أمام باب المنزل هرع الأشخاص الأربعة يستقبلون القادمين بمظاهر غبطة كبيرة، ويدت مرغريت سعيدة لرؤيتها البيت العائلي مجدداً، واغرورقت عيناها بالدموع وهي تعبر الفناء لتصل إلى غرفة الجلوس، ويدت في ملاحظات كمشاة وهي تقبل أباه لا تخلو من قصد خفي، فقد احمرت كزوجة مذنبة لا تعرف الاختلاق؛ لكن نظراتها عادت إلى صفاتها عندما رأت السيد دي سوليس، فكأنها تستمد منه القوة لتنتهي المشروع الذي أعدته خفية؛ وخلال العشاء، ورغم الحبور الذي ساد الملامح والأحاديث، كان الأب والابنة يعاين كل منهما الآخر باحتراس وفضول. لم يوجه بلتزار إلى مرغريت أي سؤال حول إقامتها في باريس، حفاظاً على الوفاق الأبوي على الأرجح، وسار إيمانويل دي سوليس على منواله في هذا

التحفظ؛ لكن ببيركين الذي تعود أن يتدخل في شؤون العائلة وأسرارها
سأل مرغريت مغطياً بمسحة طيبة زائفة: «حسن يا ابنة العم العزيزة، ماذا
أعجبك في باريس، العروض المسرحية...»
أجابت مقاطعة: «لم أر شيئاً في باريس، فأننا لم أذهب للتسليه، وقد مرت
الأيام فيها حزينة بالنسبة لي، وكنت أنتظر بفارغ الصبر العودة إلى دوي.
- «لو لم أظهر تكديري، لما أتت معنا إلى الأوبرا، حيث بدا عليها رغم ذلك
الضيق» قال كوينكس.

كانت السهرة مملّة، فكلّ واحد متضايق، يتكلّف الابتسام أو يجهد نفسه
للتعبير عن غبطة مفترضة بها قلق حقيقي. كانت مرغريت وبلتزار فريسة
تخوفات قاسية ومبهمة تتفاعل في نفسيهما؛ كلّما طالت السهرة كلّما بدا الأب
والابنة يفقدان رباطة جأشهما. كانت مرغريت تجرّب أن تبتسم أحياناً، لكن
حركاتها ونظراتها ورنّة صوتها ملؤها القلق الظاهر؛ وبدا أن كوينكس ودي
سوليس يعرفان سبب هذه الانفعالات الغامضة المؤثرة في نفس تلك الفتاة
النبيلة، وبدا أنهما يشجعانها بنظرات معبّرة. أما بلتزار، وقد ألمه الاحساس بأنه
وضع في معزل عن ترتيب وإجراءات تمت بشأنه، فقد انفصل تدريجياً عن
ابنتيه وأصدقائه بالتزامه الصمت. إن مرغريت ستكشف له دون شك ماذا قرّرت
من أجله؛ إنه وضع لا يحتمل بالنسبة لرجل كبير ولأب، وصل إلى عمر لا يكتّم
فيه شيء وسط أولاده حيث سعة الأفكار تمنح القوّة للعواطف، ولاحظ اقتراب
موعد إدانته باعتزال يماثل الموت الاجتماعي فازداد رصانة وتفكيراً وكأبة.
انطوت تلك السهرة على إحدى أزمات الحياة العائلية التي لا يمكن أن تتوضح
إلا بالصور، فالسحب القاتمة، ودلائل الصاعقة تتراكم في السماء، بينما
الطبيعة باسمّة، لكن كل واحد أحسّ بالحرّ وتوقّع العاصفة، فرفع رأسه وتابع
طريقه. كان السيّد كوينكس أوّل المنصرفين إلى النوم، وقد أوصله بلتزار إلى
الغرفة المخصصة له، وفي أثناء ذلك انصرف ببيركين ودي سوليس؛ وودّعت
مرغريت موثق العقود بملء المودّة؛ ولم تقل شيئاً لايمانويل، لكنها ضفطت على

يده وهي ترمقه بنظرة مخضلة بالدمع؛ ثم صرفت فليسيا؛ وعندما عاد كلايس إلى غرفة الجلوس وجد ابنته وحيدة فيها.

قالت مرغريت بصوت مرتعش: أبي الطيب، لقد أوجبت الظروف الخطيرة التي نحن فيها أن أغادر المنزل، ولكن بعد فترات قلق عديدة، وبعد التغلب على صعوبات خارقة، أعود إلى المنزل مع بعض حظوظ بالانتقاذ لنا جميعاً؛ فبفضل شهرة اسمك، ونفوذ خال العائلة، وحماية السيد دي سوليس، تمكنا من الحصول لك على وظيفة محصل مالية في مقاطعة بريتانى، وراتبها، على ما يتوقع، من ثمانية عشر ألف إلى عشرين ألف فرنك سنوياً، وقد قام خالنا بتقديم الكفالة. - وهو ذا قرار تعيينك. - قالت ذلك وأخرجت من حقيبتها يدها ورقة مخطوطة. إن إقامتك هنا خلال سنوات الحرمان والتضحيات لن تتحمل؛ فوالدنا يجب أن يبقى في وضع مماثل على الأقل للوضع الذي عاش فيه دائماً، إن أطلب شيئاً من ذلك، ويمكنك أن تتصرف به كما يحلو لك، إنما أرجوك أن تفكر فقط بأن ليس لدينا أي دخل، وأنا نعيش جميعاً مما يرسله إلينا غوستاف^(١) من دخل ماله المودع. إن تعرف المدينة شيئاً عن حياتنا المتقشفة كأننا في دير، فإذا بقيت هنا فستكون عائقاً فيما ستستخدمه من وسائل أنا وأختي لنستعيد الوضع الطبيعي السابق. هل أسأت استعمال السلطة التي منحتني إياها، عندما أمنت لك وضعا لتستعيد أنت بالذات تكوين ثروتك؟ فخلال عدة سنوات، إن أردت، يمكنك أن تصل إلى رتبة مدير جباية عام.

- «أهكذا، يا مرغريت، تطردينني من المنزل؟» قال بلقزار بهدوء.

- أجاوب الفتاة وهي تحصر ما يجيش في صدرها من انفعالات عاصفة: «إنني لا استحق مثل هذه الملامة العنيفة، فستعود إلينا عندما يمكنك أن تسكن مدينة مسقط رأسك بالمظهر اللائق بك. عدا عن ذلك، يا أبي ألم تعدني وعداً قاطعاً؟ ثم تابعت ببرود: «يجب أن تطيعني، فخالنا قد بقي هنا ليرافقك إلى بريتانى كي لا تقوم بهذه الرحلة منفرداً.

(١) سها عن بال المؤلف أن اسم الأخ غابرييل وليس غوستاف؛ فردد الاسم الأخير مرتين في موضعين مختلفين.

صاح بلتزار وهو ينهض: «لن أذهب، ولست بحاجة لأيّ كان لتجديد ثروتي. ودفع ما يترتّب عليّ لأبنائي».

«سيكون من الأفضل ذلك؛ لكن أرجو أن تفكّر بوضعنا المتبادل الذي سأشرحه لك بكلمات قليلة. إذا بقيت في هذا المنزل فإن أولادك سيخرجون منه لتبقى فيه السيّد المدبّر» قالت مرغريت دون أي انفعال،
«مرغريت!» هتف بلتزار.

تابعت دون أن يبدو عليها الانتباه إلى انفعال والدها: «ثم يجب إعلام الوزير، عن رفضك، إذا كنت لا تقبل هذا المنصب المريح والمشرّف الذي لم تتمكن من الحصول عليه - رغم مساعينا ووسائطنا - إلا بعد أن وضع الخال بمهارة عدة أوراق مالية من ذات الألف قرنك في قفاز إحدى السيدات...
- أتتركيني؟

- إما أن تتركنا، أو أن نهرب، لو كنت ابنتك الوحيدة، لسرت على منوال أمي دون أن أتذمّر من الوضع الذي توصلني إليه. لكن أختي وأخوي لن يهلكا جوعاً أو خيبة رجاء إلى جانبك، فقد قطعت وعداً لتلك التي ماتت هناك - وأشارت إلى موقع سرير أمّها - لقد أخفينا عنك آلامنا، وتعدّبتنا بصمت؛ أما الآن فقد استنفذت قوانا، إننا لسنا على حافة الهاوية، إنّما نحن في قعرها يا والدي! وسحبنا منها لا يتطلب فقط الشجاعة وإنما بذل جهود يجب ألا تتعرّض للاحباط دون انقطاع بتأثير نزوات هوى جامع...

- صاح بلتزار وهو يمسك بيد ابنته «يا أولادي الأمراء، سأعينكم، سأشتغل»...

- «هو ذا الوسيلة» أجابت وهي تمدّ له الرسالة الوزارية.

- لكن، يا ملاكي، هذه الوسيلة التي تقدمينها لي لإعادة تكوين ثروتي، بطيئة جداً وتجعليني أضيّع ثمرة عشر سنوات من التجارب، والمبالغ الهائلة التي يمثّلها مخبري، هناك في الأعلى - وأشار إلى السقيفة - تكمن كل ثرواتنا. سارت مرغريت نحو الباب قائلة: «يا والدي، عليك أن تختار!».

«آه! يا ابنتي كم أنت قاسية!» أجاب وهو يجلس على مقعد مفسحاً لها المجال للانصراف.

في صباح اليوم التالي أنبأ لمولكينييه مرغريت أن السيد كلايس خرج مبكراً، فدبّ الشحوب في وجهها عند سماع هذا النبأ البسيط، إذ أن في مغزاه دلالة قاسية، لكن الخادم العجوز أضاف: «كوني مطمئنة، يا آنسة، فسيدي قد قال أنه سيعود في الساعة الحادية عشر لتناول طعام الغداء. إنه لم ينم، فحتى الساعة الثانية صباحاً، كان ما يزال واقفاً في غرفة الجلوس، ينظر من النوافذ إلى سقوف المخابر، وكنت أنتظره في المطبخ، ورأيتة يبكي، إنه حزين وما هو شهر تموز الشهير الذي يمكن لشمسه أن تغيبنا جميعاً، إن أردت...»

- «كفى!» قالت مرغريت وهي تخمّن جميع الأفكار التي تلاحق والدها.

«لواقع لقد اكتملت لدى بلبزار تلك الظاهرة التي تستحوذ على جميع الأشخاص المقيمين في مكان ثابت، فإن حياتهم تتعلّق، إن صح القول بالأمكان التي تحققت فيها شخصيتهم، ففكر كلايس المقترن بمخبره وبيته يجعلهما ضروريين له كضرورة البورصة للمقامر الذي يعتبر أيام الأعياد أليماً ضائعة. هناك آماله، هناك تنزل من السماء الأجواء الوحيدة التي يمكن فيها لرئتيه أن تستنشق الهواء المحيي. هذا التحالف القائم بين الأمكنة والأشياء وبين البشر يزداد وثوقاً لدى أصحاب الطبائع الضعيفة لكنه أشدّ عنفاً لدى رجال العلم والفكر. ترك البيت بالنسبة لبلتزار بعني التخلّي عن العلم، وعن قضيته، يعني موته.

كانت مرغريت فريسة انفعال عنيف حتى موعد الغداء، فقد عاد إلى ذاكرتها المشهد الذي أراد فيه والدها الانتحار، وخشيت أن ينتهي الوضع القانط الذي يوجد فيه والدها بشكل مأساوي. كانت تسير جيئةً وذهاباً في غرفة الجلوس، وهي ترتعد في كل مرّة تسمع فيها رنين جرس الباب، أخيراً عاد بلبزار، وبينما كان يجتاز الفناء، لم تجد مرغريت، التي كانت تدرس ملامحه بقلق، إلا التعبير عن ألم عاصف وعندما دخل إلى غرفة الجلوس، تقدّمت منه

محيية، فأحاط خصرها بحنان، وضمها إلى صدره، وقبل جبينها، وهمس في أذنها: «لقد ذهبت أطلب جواز سفري»^(١).

رنة الصوت، والنظرة المستسلمة، وحركة الأب المتثاقلة كل ذلك سحق قلب الفتاة المسكينة التي حولت رأسها كي لا تشاهد عبراتها، لكنها لم تستطع حبسها، فذهبت إلى الحديقة حيث ذرفت الدمع مدرراً وعادت لتشهد والدها خلال الغداء وقد بدا مطمئناً كرجل اتخذ قراره، وقد التفت إلى السيد كوينكس قائلاً: «سنذهب إذا إلى بريتانية، أيها الخال، لقد كنت راغباً دائماً في أن أرى تلك البلاد».

أجاب الخال العجوز: «يمكن العيش هناك بنفقات قليلة فالأسعار معتدلة».

هتفت فليسيا: «هل سيتركنا والدي؟».

حضر السيد دي سوايس مرافقاً لجان.

- قال بلتزار: «ستتركه لنا هذا اليوم، إنني مسافر غداً وأريد أن أودعه»
قال ذلك وأجلس ابنه قربه.

نظر إيمانويل إلى مرغريت التي غصت ببصرها، وكان نهائياً قائماً، بدا كل فرد فيه حزناً، يحبس أفكاره أو دموعه؛ فهذه السفرة ليست غياباً وإنما هي نفي؛ ثم كان الجميع يشعرون غريزياً بما في تصريح الأب علناً بنكته من خزي تبدى في قبوله، وهو في هذا العمر، وظيفته، واضطراره لترك عائلته، وحده كان كبيراً بمقدار ما كانت مرغريت حازمة، وبدا يتقبل بنبل هذه العقوبة تكفيراً عن الأخطاء التي دفعه نزق العبقريّة إلى ارتكابها.

عند انقضاء السهرة، بقي الأب وابنته وحيدتين، بعد أن ظهر بلتزار طيلة ذلك النهار حنوناً وودوداً كعهده في الأيام السعيدة من حياته الأبوية، فمدّ يده إلى مرغريت وقال لها بحنان ممزوج بالقنوط: «هل أنت مسرورة من والدك؟».

(١) كان جواز السفر ضرورياً للتنقل في فرنسا وخارجها منذ العام ١٧٩٢ واستمر ذلك الوضع حتى العام ١٨٧١.

«إنك جدير بحمل هذا الاسم!» أجابت مرغريت وهي تشير إلى صورة فون كلايس.

في صبيحة اليوم التالي، صعد بلتزار يتبعه لمولكينييه إلى مخبره كأنه يريد أن يودّع الآمال التي داعبها، وكأن التجارب التي بدأها ما تزال ماثلة أمامه حيّة. ألقى المعلم والخادم نظرة مليئة بالكآبة وهما يدخلان السقيفة التي سيتخليان عنها، ربّما إلى الأبد. تأمّل بلتزار هذه الماكينات التي حلّقت أفكاره حولها طويلاً وكلّ منها ترتبط لديه بذكرى بحث أو تجربة؛ ثم طلب من لمولكينييه بمظهر حزين أن يبخر الغازات أو الصموض الخطرة، وأن يبعد المواد التي يمكن أن تحدث تفجيرات، وكان وهو يتخذ هذه الاحتياطات ينطق بكلمات أسف مريرة كتلك التي ينطق بها محكوم بالإعدام قبل ذهابه إلى المقصلة.

قال وهو يتوقّف أمام كبسولة غُمس فيها طرفاً سلك بيل فولطا: «هكذا تجربة يجب انتظار نتيجتها، فإن نجحت؛ يا للفكرة المرعبة! إن أولادي لن يطردوا أباً من بيته وهو يلقي الألاميس على أقدامهم. هذا اتحاد كربون مع كبريت، حيث الكربون يلعب جسم كهربائي موجب - قال وهو يحدث نفسه - والتبلور يجب أن يبدأ على القطب السالب، وفي حال التفكك فإن الكربون سيرد إليه متبلوراً.

- آه! هكذا سيتمّ ذلك، قال لمولكينييه وهو يتأمّل معلمه بإعجاب.

- والحال، تابع بلتزار بعد توقف. فإن الاتحاد خاضع لتأثير هذا البيل الذي يمكن أن يعمل عمله.

- إذا أراد سيدي فيمكنني أن أزيد تأثيره...

- كلا، كلا، يجب تركه كما هو، فالراحة والزمن شرطان رئيسان

للتبلور...

- «قسماً، يجب أن تأخذ الزمن اللازم لها، هذه العملية من التبلور» صاح

الخادم.

- «إذاً انخفضت الحرارة سيتبلور كبريت الفحم» قال بلتزار، وهو مستمر

في التعبير بنتف عن أفكار غير متميزة لتأمل كامل في مفهومه؛ ولكن إذا تمكن تأثير البيل من تشغيل التفاعل في بعض شروط أجهلها ... يجب مراقبة ذلك ... إذ من الممكن ... ولكن بماذا أفكر؟ إن الأمر لم يعد يتعلق بالكيمياء، يا صديقي، إذ يجب أن نذهب لإدارة تحصيل ضرائب في بريتانية».

خرج كلايس بسرعة ونزل ليشارك في آخر غداء عائلي يحضره بييركين ودي سوليس. كان يلتزار مستعجلاً لينهي احتضاره العلمي، ثم صعد إلى العربية مع الخال، بعد أن ودّع أولاده، وقد رافقته كل العائلة حتى عتبة المنزل، وهناك، وعندما عانقت مرغريت والدها في عناق طويل يأس، ردّ عليه بأن همس في أذنها: «إنك فتاة طيبة، ولن أحقد عليك أبداً». اجتازت الفناء وهربت مسرعة إلى غرفة الجلوس حيث ركعت في المكان الذي توفيت فيه أمها وصلت لله صلاة حارة لتطلب منه القوة اللازمة لها لإتمام الأعمال الشاقة التي تنتظرها في حياتها الجديدة، وقد تقوّت بصوت داخلي أحسّت أنه يحضن في قلبها تصفيق الملائكة استحساناً وشكر أمها، وعندها رأت أختها، وأخاها، وإيمانويل، وبييركين يدخلون بعد أن تأمّلوا العربية حتى غابت عن أبصارهم.

سأل بييركين: «والآن يا آنسة ماذا تنوين أن تفعلي».

- أجابت ببساطة: «أن أنقذ المنزل، إننا نمتلك ألف وثلاثمئة أرينت في وينيي وأنا أهدف إلى إصلاحها وتقسيمها إلى ثلاث مزارع، وإنشاء الأبنية الضرورية لاستثمارها، وتأجيرها، وأنا أعتقد أننا خلال بعض سنوات وبكثير من الصبر والتوفير، فإن كل واحد منا، وأشارت بيدها إلى أخيها وأختها، سيكون له مزرعة من أربعمئة أرينت ونيف، يمكن أن تعطي في يوم ما، دخلاً يقدر بنحو خمسة عشر ألف فرنك في العام، أما أخي غوستاف فسيكون نصيبه هذا المنزل وما يملكه في صندوق الاستثمار؛ ومن ثم فسنعيد إلى والدي أملكه وقد تحرّرت من كل التزام وذلك بأن نخصص مداخلينا لتسديد ديونه.

قال موثق العقود وهو مندهش من هذه الخبرة في إدارة الأملاك والمحكمة الهادئة التي عبّرت عنها مرغريت: «ولكن يا ابنة العم العزيزة، يلزمك

ما يزيد عن مئتي ألف فرنك لإصلاح أراضيكم، وبناء مزارعكم وشراء الماشية، فمن أين تستمدين هذا المبلغ؟

- «هنا تبدأ متاعبي، فأنا لا أجرؤ على طلبها من خالي الذي قام بكفالة والدي» ثم تطلعت بالتناوب إلى موثق العقود وإلى السيد دي سوليس.
- «إن لك أصدقاء» هتف بييركين وهو يلحظ فجأة أن أنستي آل كلايس ما تزال كل منها تمتلك أكثر من خمسمئة ألف فرنك.

كان إيمانويل دي سوليس ينظر إلى مرغريت بحنان، لكن لسوء حظه، بقي بييركين وسط حماسه يتصرف بعقلية موثق العقود الذي أعلن: «أنا أقدم لك هذه المئتي ألف فرنك!».

تشاور إيمانويل ومرغريت بالنظرات واعتبرها بييركين بارقة أمل، واحمرّت فليسيا بشدة وقد اسعدها أن ترى ابن عمها شهماً كما تتمناه، وتطلعت إلى أختها التي خمنت فجأة، أن الفتاة المسكينة قد وقعت في غيائها تحت تأثير بعض مغازلات بييركين المبتذلة» وتابع بييركين:

«إنك لن تدفعي لي فوائد إلا خمسة بالمئة، وستسددين لي ديوني متى شئت، وستؤمنين لي على ديوني بوضع إشارة رهن على أراضيكم، ولكن كوني مطمئنة قلن تدفعي إلا نفقات عقودك، وسأجد لك مزارعين أكفاء وأدير أعمالكم مجاناً لمساعدتكم كما يتوجب علي كواحد من أهلكم».

كان إيمانويل يشير إلى مرغريت ليشجعها على الرفض، لكنها كانت مشغولة بملاحظة التغيرات التي تبدو على ملامح أختها بحيث لم تنتبه إلى اشارته. بعد توقف، نظرت إلى موثق العقود نظرة ساخرة وقالت له من نفسها، مما أثلج قلب دي سوليس: «إنك فعلاً قريب طيب، وأنا لا أنتظر أقل من ذلك منك، لكن فائدة الخمسة بالمئة ستؤخر كثيراً إبراهيم من الديون؛ سأنتظر بلوغ أخي سن الرشد وسنبيع عائداته».

عضّ بييركين على شفتيه، وابتسم إيمانويل بهدوء.
قالت مرغريت وهي تشير إلى أخيها: «فليسيا، يا اختي العزيزة، أوصلي جان إلى كليته، وسترافك مرتاً».

والتفت إلى جان: «جان، يا ملاكي، كن عاقلاً، لا تمرّق ثيابك، فلسنا على درجة من الغنى تسمح لنا بتجديدها غالباً كما كنا نفعل سابقاً! هيا، يا صغيري، ادرس جيداً، وخرجت فليسيا مع أخيها.

قالت مرغريت لبييركين والسيدة دي سوليس: «يا ابن العم، وأنت يا سيدي، لقد كنتم دون شك تاتيان لزيارة والدي خلال غيابي وأنا أشكركما على مشاعر الصداقة هذه، ولا شك أنكما لن تنقطعا عن فتاتين مسكنتين تحتاجان دون شك إلى النصائح. فلنتفاهم حول هذا الموضوع!... عندما أكون هنا في المدينة، فإنني استقبلكما دائماً بسرور كبير، ولكن عندما تكون فليسيا بمفردها هنا، مع جوزيت ومرتا، فلست بحاجة للقول لكما بأن يجب ألا تستقبل أحداً، حتى ولو كان صديقاً قديماً أو أكثر الأقارب إخلاصاً لنا؛ ففي الظروف التي نحن موجودون فيها، يجب أن نلتزم في سلوكنا بصرامة لا مأخذ عليها، وهكذا ننذر أنفسنا لمدة طويلة للعمل والعزلة».

ساد الصمت للحظات كان خلالها إيمانويل غارقاً في تأمل رأس مرغريت الذي يبدو صامتاً، ولم يعرف بييركين ماذا يقول، أخيراً استأذن من ابنة عمه وقد بدرت منه حركة غضب يلوم فيها نفسه: لقد خمن فجأة أن مرغريت تحب إيمانويل وأنه قد تصرف كأحمق كبير».

قال عندما أصبح في الشارع معتفاً نفسه: «أه! ماذا فعلت؟ يا بييركين! يا صديقي! إن قال لك أحدهم «إنك حيوان كبير، فهو على حق». هل أنا بهيم؟ إن لدي اثنتي عشر ألف ليرة دخلاً سنوياً، عدا نفقاتي، ودون أن أحسب تركة عمي دي راكم، وأنا وريثه الوحيدة، وهي ستضاعف ثروتي بين يوم وآخر (أخيراً أنا لا أتمنى موته، فهو مقتصد جداً!)... وكنت من الدناءة بحيث طلبت فوائد من الآتسة كلايس! إنني متأكد أن الاثنين يسخران مني الآن. يجب ألا أفكر مطلقاً بمرغريت، كلا، بعد كل حساب، إن فليسيا مخلوقة صغيرة ناعمة طيبة، إنها أكثر ملائمة لي، فمرغريت ذات طبع حديدي، إنها تريد السيطرة علي، وستسيطر عليّ هيا، فلنظهر الشهامة، لنُدع جانباً موثق العقود، ألا يمكن إذا أن أتحرّر من هذه العدة قليلاً؟ يا كيساً للورق!.

سأسعى إلى حبّ فليسيا، وإن أترزح عن هذه العاطفة! أيّها المذرة! سيكون لها مزرعة من أربعمئة وثلاثين أربنت ستعطي في فترة ما خمسة عشر إلى عشرين ألف ليرة دخلاً سنوياً، إذا أن أراضني وبينني جيّدة، فليمت عمي دي راكمه، الرجل الطيب المسكين! وسأبيع مكتبي فأنا رجل ذو دخل خمسين ألف ليرة سنوياً، وزوجتي من آل كلايس، فأنا صهر البيوتات الصغيرة، يالشيطان! سنرى إن كان آل كورثفيل، وآل ماغاليف، وآل سافارون دي سافروس يمتنعون عن زيارة عائلة بييركين - كلايس - مولينا - نورو، سأصبح عمدة دوي، وسأحصل على وسام جوقة الشرف، ويمكنني أن أصبح نائباً، سأصل إلى شيء، أه! هذا! بييركين، يافتاي، اصمد جيّداً ولا ترتكب حماقات، خاصة وأنّ، وأقسم لك بشرفي، أن فليسيا... الأنسة فليسيا فون كلايس... تحبّك».

بعد أن أصبح العاشقان وحدهما، مدّ إيمانويل يده إلى مرغريت فلم تستطع أن تمتنع عن أن تشدّ عليها بيدها اليمنى، ونهضا سوياً وبحركة موحّدة متوجّهين نحو مقعدهما في الحديقة، لكن وفي وسط غرفة الجلوس لم يستطع العاشق أن يقاوم غبطته، فقال بصوت يرتعش من الانفعال إلى مرغريت: «إنّ لدي ثلاثمئة ألف فرنك لك!...».

هتفت: «كيف! هل أودعتك أُمي المسكينة شيئاً آخر؟ كلا، ماذا؟

- أوه يامرغيتي، أليس مالي هو مالنا، نحن الاثنان؟ ألسنت أنت أوّل من

قال نحن

- «ياعزيزي إيمانويل» قالت وهي تشدّ على يده التي ما تزال ممسكة بها؛

وبدلاً من أن تذهب إلى الحديقة ألقت بنفسها على الأريكة.

- «إن عليّ أنا أن أشكرك، لأنني لقيت لديك القبول» قال بصوت الحبّ.

- هذه اللحظة، أيّها الحبيب، تمسح كثيراً من الآلام، وتقرب المستقبل

السعيد! نعم، إنني أقبل ثروتك، قالت وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة ملاك،

وسأعرف الوسيلة التي تجعل منها ثروة لي» وتطلّعت إلى صورة فون كلايس

كأنها تريده شاهداً. لم ينتبه الشاب الذي كان يتابع نظرات مرغريت إلى أنها

قد انتزعت من إصبعها خاتم العزوبية، ولم يلاحظ هذه الحركة إلا في اللحظة التي سمع بها هذه الكلمات: «في وسط مآسينا العميقة، تنبجس السعادة، لقد ترك لي أبي، لامبالاة منه، حرية التصرف بذاتي، فخذ يا إيمانويل ميثاقي لك، إنَّ أُمِّي قد أحبتك واختارتك» وناولته الخاتم.

ترقرقت الدموع في عيني إيمانويل، وشحب لونه، وجثا على ركبتيه، وقال لمرغريت وهو يقدم لها محبساً كان يحمله دائماً معه: «إليك محبس أُمِّي يا مرغيتي، فليس لي غيره عربون وفاء لك» وقَدَّم الخاتم إليها بعد أن قبله.

انحنى لتضع جبينها في متناول شفتي إيمانويل وقالت:
- للأسف! يا حبيبي المسكين، ألا ترتب شيئاً مؤلماً؟ إنَّ علينا أن ننتظر طويلاً.

- كان عمي يقول إنَّ العبادة هي الخبز اليومي للصبر وذلك في معرض حديثه عن المتدين الذي يحبَّ الله، ويمكنني أن أحبك هكذا، فأتانا منذ مدة طويلة قد وُحِّدَنا مع الخالق في جميع الأشياء: «وأنا لك، كما أنتي له».
بقيا للحظة منصرفين لأحلى تمجيد، لقد كان بوحاً رصيناً هادئاً لجاذبة أشبه بينبوع أترع ففاض على دفتات لا تنقطع.

كانت الأحداث التي باعدت بين هذين الحبيبين موضوع كتابة جعلت سعادتهما أكثر حيوية إذ منحتهما شيئاً مبرحاً كالآلم.

لم يحسَّ بمرور الوقت إلا عند عودة فليسيا، ورأى إيمانويل المستنير بالحساسية العذبة التي تخمَّن كل شيء في الحب أن يترك الأختين منفردتين فغادر المنزل بعد أن تبادل مع مرغريت نظرة أمكنها أن ترى فيها كل ما عاناه من ذلك الكتمان، إذ أنَّه عبَّرَ فيها عن مدى تلهفه لهذه السعادة المشتهاة منذ زمن، والتي تكرَّست الآن بخطبة القلب.

قالت مرغريت وقد أمسكت فليسيا من عنقها «تعالى إلى هنا، أيتها الأخت الصغرى» وقادتها إلى الحديقة حيث ذهبتا تجلسان على المقعد الذي ركن إليه كلَّ جيل وهو يعبِّر عن كلمات حبه، وتنهدات آلامه، وتأملاته ومشاريعه.

وبالرغم من اللهجة الفرحة والنعومة المحببة المتجلية في ابتسامه أختها، فقد أحسّت فليسيا بانفعال يشبه حركة الخوف بدت على يدها التي شعرت بها مرغريت ترتعش وهي تتناولها.

«يا أنسة فليسيا، قالت الأخت البكر وهي تقترب من أذن أختها، إنني أقرأ نفسك، لقد جاء بييركين غالباً إلى هنا خلال غيابي، لقد حضر كل مساء، وقال لك كلمات حلوة، واستمعت له». احمرّت فليسيا، وتابعت مرغريت:

لا تدافعي عن نفسك، يا ملاكي، فطبيعي أن تشعري بالحب! وربما تمكنت روحك الغالية أن تتغير قليلاً من طبيعة ابن العم، إنه أنا، نفعي، لكنه رجل شريف، وبدون شك يمكن الاستفادة من عيوبه لسعادتك، إنه يحبك كأجمل قطعة في أملاكه، وسيجعل منك جزءاً من مشاريعه. ألا تغفري لي هذا التعبير، يا صديقتي العزيزة؟ عليك أن تصححي العادات السيئة التي تعود من خلالها ألا ينظر في كل مكان إلا إلى المصالح، وذلك بتعليمه الاهتمام بقضايا القلب». لم تستطع عند ذلك فليسيا إلا أن تقبل أختها التي استأنفت حديثها. «مع ذلك فهو صاحب ثروة، وعائلته من أرق وأقدم العائلات البورجوازية، لكن أكون أنا التي ستعارض سعادتك إن أردت أن تجديها في شروط هزيلة؟...»

لم تبدر عن فليسيا إلا عبارة: «أختي العزيزة!».

- أوه، نعم، يمكنك أن تكشفني عن قلبك لأختك، فكم هو طبيعي أن نتبادل

البوح بأسرارنا».

هذه الكلمة المليئة بالاخلاص حدّدت إحدى هذه المحادثات العذبة التي تصارحت فيها الشابتان، وباحتا بكل شيء؛ وعندما اعترفت مرغريت، التي جعلها الحب خبيرة، بحالة فليسيا العاطفية انتهت إلى القول: «حسن، يا أختي العزيزة، لنشاك من أن ابن العم يحبك حقيقة، و... عندئذ...

- اتركيني أنصرف، أجابت فليسيا وهي تبسم فإن لدي نماذجي.

- «مجنونة!» قالت مرغريت وهي تقبلها على جبينها.

بالرغم من أن بييركين ينتمي إلى ذلك الصنف من الرجال، الذين يرون

في الزواج التزامات، وتنفيذاً للقوانين الاجتماعية، وطريقة لنقل الملكيات، بحيث أن لا فرق لديه في أن يتزوج فلسياً أو مرغريت، ما دام للثنتين الاسم العائلي ذاته والندوة ذاتها؛ غير أنه لاحظ مع ذلك، وفقاً لأحد تعابيريه. أن الاثنتين من الفتيات الحالمات العاطفيات؛ صفتان يستخدمهما من لا قلب لهن للهزم من الهبات التي تبذرهما الطبيعة بيد شحيحة، عبر أثلام الانسانية؛ إن موثق العقود قد قال بدون شك بأن يجب العواء مع الذئب، إذ أنه في اليوم التالي حضر لرؤية مرغريت واختلى معها في الحديقة الصغيرة، وأخذ يتحدث حديث العاطفة، إذ أنه رأى فيه أحد شروط العقد البدائي الذي يجب أن يسبق في قوانين المجتمع العقد الموثق. قال لها:

«يا ابنة العم. لم نكن دائماً على رأي واحد حول الوسائل التي يجب الأخذ بها للوصول إلى نتيجة موفقة في مشاريعك، لكن يجب أن تتأكد في هذا اليوم أن رغبة كبرى في أن أكون ذا فائدة لكم هي التي توجهني دائماً. لكن الواقع أنني شوهت البارحة عرضي بعادة مشؤومة تسيطر علينا نحن أصحاب الفكر التوثيقي الإجرائي. أتفهميني؟... إن قلبي لم يكن متواطئاً مع حماقتي. لقد همت بك حباً، لكن لنا، نحن الآخرين، بعض نفوذ البصر، وقد لاحظت أنني لا أعجبك. هذه غلطتي! فقد كان شخص غيري أكثر براعة مني. الواقع أنني جئت الآن اعترف لك، بالشكل الساذج أنني أكن حباً حقيقياً لأختك فليسيا، فعامليني إذاً كأخ! إن ثروتي تحت تصرفك؛ خذي ما تشاءين مباشرة، هيّا، بقدر ما تأخذين، بقدر ما تبرهنين لي عن مودتكم، كل مالي لكم، دون فائدة، أتسمعينني؟ لا أريد أثني عشر، ولا ريع بالمئة. ما يهمني أن أكون جديراً بفليسيا. اغفري لي عيوي، فهي ناتجة عن الممارسات المالية؛ أما القلب فطيب. إنني سأرمي بنفسي في نهر السكارب إذا لم أكن قادراً على إسعاد زوجتي. - هوذا التصرف الطيب، يا ابن العم! قالت مرغريت، لكن أمر أختي يتعلق بها، وبوالدنا...»

- إنني أعرف هذا، يا ابنة العم العزيزة، لكنك أم لجميع العائلة، وما من شيء أقرب إلى القلب من أن تكوني أنت الحكم على قلبي.

هذه الطريقة في الكلام تمثل جيداً روح موثق العقود الشريف؛ وقد أصبح ببيركين فيما بعد شهيراً بجوابه لقائد ثكنة سان - أومر الذي جاء يرحوه حضور أحد الاحتفالات العسكرية: هل المناسبة والمستقبل على مستوى السيد ببيركين - كلايس دي مولنا - نورو، عمدة مدينة دوي، الحائز على مدالية جوقة الشرف من رتبة فارس، الخ....

ارتضت مرغريت بمعونة موثق العقود، إتما فيما يتعلق بمهنته فقط، بحيث لا تتعارض بشيء مع جدارتها كامرأة، أو مع مستقبل أختها، أو مع مقررات والدها؛ وقد عهدت في ذلك اليوم بالذات بتوجيه أختها في غيابها إلى جوزيت وميرتا اللتين نذرتا الروح والجسد لسيدتهما الشابة سيماً في مساعدتها على تنفيذ خططها في التوفير.

انطلقت مرغريت إلى وينبي حيث بدأت بسرعة عملياتها التي قادها بمهارة ببيركين وقد تبدى الوفاء في ذهن الموثق كأفضل المساهمات فكانت اهتماماته وجهوده التي لم يدخر وسعاً في بذلها وكأنتها رأس مال مستخدم، فقد عمل أولاً على تجنب مرغريت نفقات إصلاح وحراسة الأراضي المخصصة للمزارع، فأحضر ثلاثة من أبناء المزارعين الأغنياء الشبب الذين يرغبون في تأسيس مشاريعهم المستقلة، وأغراهم بالإمكانية التي تقدمها لهم تلك الأراضي الخصبة ونجح في تأجيرهم مسبقاً المزارع الثلاث التي ستبنى متنازلاً عن أجرة ثلاث سنوات لقاء نفقات التأسيس، وتعهد المزارعون الشباب بدفع أجرة عشرة آلاف فرنك في السنة الرابعة، واثنى عشر ألفاً في السنة السادسة، وخمسة عشر ألفاً بعد ذلك وطيلة مدة العقد، وأن يجروا الحفر ويغرسوا الأشجار ويشتروا المواشي، وبينما كانت المزارع تبني، جاء المزارعون لاصلاح الأرض.

لم تمض أربع سنوات على رحيل بلتزار، حتى تمكنت مرغريت أن تستعيد تقريباً ثروة أخيها وأختها، وكان مبلغ مئتي ألف فرنك كافياً لإنشاء المزارع، إذ لم ييخل أحد بالمساعدات أو النصائح على هذه الفتاة الشجاعة التي حازت على إعجاب المدينة بسلوكها.

أشرفت مرغريت على أبنيتها وتنفيذ صفقاتها وإتمام مكاراتها بذلك الوعي والنشاط والمثابرة التي تميّز بها النساء عندما تحفزهن العواطف السامية؛ وقد أمكنها منذ السنة الخامسة أن تخصص ثلاثين ألف فرنك من كراء المزارع وبيع استثمار إيداع أخيها ودخل أملاك والدها لتسديد الرهنيّات وإجراء الإصلاحات في المناطق التي تضررت في المنزل من جراء أهواء بلتزار، وهكذا سار استهلاك القروض سريعاً مع تناقص الفوائد، وقد قدّم لها إيمانويل دي سوليس مبلغ المئة ألف فرنك الباقية من تركة عمه والتي لم تلزمها، كما وأضاف إليها مبلغ عشرين ألف فرنك من مدّخراته بحيث أنّها تمكّنت منذ السنة الثالثة من إدارتها أن تسدّد قسماً كبيراً من الديون. هذه الحياة المفعمة شجاعة وحرماناً ووفاء لم تخب أبداً خلال خمس سنوات، بل كانت كلها نجاحاً وتقدّماً تحت إدارة ونفوذ مرغريت.

تخرّج غابرييل مهندساً مختصاً بالجسور والطرقات وتمكن بمساعدة خال الاسرة على جمع ثروة بسرعة نتيجة تعهد شق قناة وعرف كيف يستميل قلب قريبته الأنسة كوينكس التي يعبدها والدها والمعتبرة من إحدى الوريثات الأكثر غنى في مقاطعة الفلاندر؛ وفي العام ١٨٢٤ فكّت كامل الرهون عن أملاك كلايس، وأصلحت شؤون البيت في شارع باريس، وطلب ببيركين يد فليسيا رسمياً من والدها وكذلك فعل السيد دي سوليس بالنسبة لمرغريت.

في مطلع شهر كانون الثاني ١٨٢٥ ذهبت مرغريت والسيد كوينكس للمجيء بالأب المنفي الذي تمنّى الجميع بحرارة عودته، فقدّم استقالته ليتسنى له البقاء وسط عائلته حيث ستلقى السعادة تصديقاً لها؛ وخلال غياب مرغريت التي عبّرت مراراً عن أسفها لأنها لم تتمكن من إملاء الأطر الفارغة في الصالة الكبرى وقاعات الاستقبال من أجل اليوم الذي سيستعيد فيه والدها منزله؛ قام ببيركين ودي سوليس بالاتفاق مع فليسيا بتحضير مفاجأة لمرغريت أرادت من خلالها أيضاً الأخت الصغرى أن تساهم في ترميم بيت كلايس، واشترى الشابان بعض اللوحات الجميلة التي قدماها لفليسيا لتزين القاعة الكبرى. كما

أن السيد كوينيكس خطرت لديه الفكرة نفسها إذ أراد أن يعبرَ لمرغريت عن رضاه لسلوكها النبيل وتضحيتها من أجل إنجاز المهمة التي عهدت إليها بها أمها فأوصى أن تنتقل إلى بيت كلايس نحو خمسين لوحة من أجمل لوحاته وبعض اللوحات الأخرى التي كان كلايس قد باعها، وهكذا أعيد تأثيث الصالة الكبرى في المنزل.

كانت مرغريت قد زارت أبوها عدة مرات ترافقها أختها أو أخوها جان؛ وكانت تلاحظ في كل مرة أنه يتغير تدريجياً، ولكن منذ زيارتها الأخيرة، بدت الشيخوخة لدى بلتزار تظهر بأعراض مقزعة زاد دون شك من حراجتها التقدير الذي كان يعيش فيه بلتزار ليوفر النصيب الأكبر من راتبه من أجل إجراء بعض التجارب التي كانت تخب ظنّه دائماً، وبالرغم من أنه لم يكن قد تعدى الخامسة والستين من العمر، فقد كان يبدو وكأنه في الثمانين. كانت عيناه قد غارتا بعمق في محجريهما، وقد ابيضَّ حاجباه. ولم يبق في رأسه إلا شعرات قليلة تكاد لا تغطي قذاله، وقد أرسل لحيته، إنّما كان يقصّها من وقت إلى آخر بالمقص عندما تضايقه، وأنحنى ظهره ككرّام عجوز، كما أخذت القوضى في هندامه مظهر البؤس الذي زاده الضعف بشاعة. بالرغم من أن فكرة قويّة تسكب الحياة في هذا الوجه الكبير الذي تختفي ملامحه تحت التجاعيد، فإن النظرة الجامدة، والسحنة القانطة والقلق المستمر تحفر فيه كل تشخيصات العته أو بالأحرى الاعتاه كلّها سويّة، فمرة يتجدّد فيه الأمل فيظهر بلتزار مثلاً معبراً عن الهوس الأحادي، ومرة أخرى يخلع عليه نفاذ الصبر لعدم كشفه سرّاً، يبدو له وكأنه أمر تافه، كل علائم الغضب، ثم تكشف ضحكة مجلجلة عن مظهر جنوني فيه، أخيراً فإن الوهن، الكامل في معظم الوقت يختصر تجليات هواه بكآبة الصمق الباردة. مهما كانت هذه التعابير عرضية وغير محسوس بها من قبل الغرباء، فإنّها للأسف كثيرة الحساسية لأولئك الذين يعرفون كلايس السامي في طبيته، الكبير القلب، الجميل الوجه جمالاً لم تبق منه إلا آثاره نادرة.

أما لمولايينيه فقد شاخ وتعب كمعلمه من الأعمال المتواصلة لكنه لم يتعرّض مثله لمتاعب الفكر لذلك فإن سحنته تبدي مزيجاً فريداً من القلق والإعجاب بمعلمه، الذي قد يسهل أن يخطئ فيه بالرغم من أنه يستمع لأقل كلمة يقولها باحترام، ويتبع أقل حركاته بنوع من الحنان يبدو فيه وكأنه يرمى العالم كما ترعى الأم ولدها، وغالباً ما يبدو بهيئة من يحميه، لأنه يحميه فعلاً في ضرورات الحياة الثقافية التي لا يفكر بـ"لتزار" فيها أبداً. هذا العجوزان المجتمعان على فكرة، الواثقان بحقيقة أملهما، المتأثران بنفحة واحدة، يمثل أحدهما القشرة والآخر لب وجودهما المشترك، ويشكلان مشهداً رهيباً ومؤثراً في آن معاً.

عندما وصلت مرغريت والسيد كوينكس وجدا كلايس يقيم في نزل إذ أن خلفه عجل بالمجيء واستلام المكان.

إلى جانب اهتمامات العلم، كانت الرغبة برؤية الوطن، والبيت والعائلة تهرّ مشاعر بـ"لتزار"، فرسالة ابنته تنبئه بأحداث سعيدة، وكان يفكر بأن يتوج سيرته بسلسلة من التجارب تقوده أخيراً إلى الكشف عن حلّ مسأله؛ لذا كان ينتظر مرغريت بفارغ صبر شديد، وقد ألقت الابنة عند وصولها بنفسها بين دراعي والدها وهي تبكي فرحاً، فقد جاءت هذه المرة سعيداً وراء جائزة حياة أليمة، وطلباً لغفران عن ظفر عائلي، كانت تشعر بالذنب على طريقة أولئك الرجال الأمجاد الذين يخالفون الحريات لينقذوا الوطن؛ لكن عند تأملها لوأدها ارتعشت لما رأت فيه من تغيرات عن زيارتها السابقة؛ وقد شاركها كوينكس في ذعرها الخفي وألح لانتقال قريبه بأسرع ما يمكن إلى دوي حيث يمكن لتأثير الوطن أن يرد إليه الوعي والصحة بالارتداد إلى الحياة السعيدة في البيت العائلي، بعد تجليات مشاعر القلب الأولى التي بدت لدى بـ"لتزار" أكثر شدة مما توقعت مرغريت، أبدى الأب حيال ابنته اهتمامات فريدة، فأسف لأنه يستقبلها في غرفة حقيرة في نزل، واستفهم عما يعجبها، وسألها عما تريد تناوله من مأكـل في وجبات طعامها وذلك بعناية أشبه بعناية العاشق المتيم؛ تصرف أخيراً كمـذب يريـد رضـى قاضيه.

كانت مرغريت تعرف جيداً أباهما بحيث خمنت بسرعة مبعث هذه الرقعة،
مفترضة أن ما يزال عليه في المدينة بعض ديون يريد تسديدها قبل رحيله.
أمنت التأمل خلال فترة من الوقت بأبيها، فتجلى لها عند ذلك القلب
البشري عارياً. لقد صغر بلبتزار، والشعور بانحطاطه، والعزلة التي وضعه العلم
فيها جعلاه خجولاً وطفلاً في جميع المسائل الغربية عن اهتماماته المفضلة. لقد
فرضت عليه ابنته ذكريات تضحيتها الماضية، بالقوة التي أبدتها، والإحساس
بالسلطة الذي سمح لها به، والثروة التي تصرفت بها، والعواطف الغامضة التي
تملكته منذ اليوم الذي تولى فيه عن سلطته الأبوية، وقد كانت مهمة، والتي
كبرت دون شك يوماً بعد يوم. بدا كونينكس وكأنه لا شيء في نظر بلبتزار، فهو
لا يرى إلا ابنته، ولا يفكر إلا بها، وبدا وكأنه يخشاها كبعض الأزواج الضعفاء
الذين يخشون امرأتهم القوية التي تسيطر عليهم؛ فعندما يرفع عينيه نحوها فإن
مرغريت تباغت فيهما، باللم، تعبير خوف يشابه خوف الطفل الذي يشعر بذنبه
فلا تعرف الفتاة النبيلة كيف توفق بين التعبير المجل والمروّع لهذا الرأس الذي
تكتسحه التجارب والعلم والابتسامة السخيفة والمذلة الساذجة التي ترتسم على
شفتي بلبتزار وهيئته. لقد تأملت لهذا التباين الظاهر بين ذاك الكبير وهذه
الحقارة، وعزمت على أن تستخدم كلّ تأثيرها ليسترد والدها عزة نفسه في
اليوم الاحتفالي الذي سيظهر به في وسط عائلته، فاغتنمت أولاً فرصة وجودهما
منفردين لتهمس في أذنه: «هل يتوجب عليك شيء هنا؟» احمرّ بلبتزار وأجاب
بشكل مرتبك: «لا أعلم، ولكن لمولكيني سيخبرك. فهذا الولد الطيب أكثر تتبعاً
لأحوالي المادية مني أنا بالذات».

قرعت مرغريت الجرس للخادم، وعندما حضر درست بشكل لا إرادي
هيئة العجوزين: «هل يريد سيدي شيئاً؟» سأل لمولكيني.

شعرت مرغريت، وهي الممتلئة اعتزازاً ونبلاً، بانقباض في القلب،
لملاحظتها في لهجة الخادم وتصرفه شيئاً من الدالة السيئة بين والدها ورفيق
مشاغله، فقالت «ألا يمكن لأبي هنا أن يجري حساب ما عليه بدونك؟».

- يتوجب على السيد...

أشار بلتزار، عند هذه الكلمات، لخادمه، إشارة مبطنّة فاجأتها مرغريت وشعرت بإهانتها، فصاحت: «قل كل ما يترتب على والدي هنا».

- يترتب على سيدي هنا ألف إكو لعطّار يدير محل أفاويه بالجملة، وقد أحضر لنا بوتاساً كاويّاً ورصاصاً وزنكاً ومواد فعّالة..

- «أهذا كلّ شيء؟» سألت مرغريت.

- كرّر بلتزار اشارته المؤكّدة للمولكينيّه الذي أجاب وقد أربكه معلمه:

«نعم يا آنسة».

- «حسن، سأسندّ لك إياها» تابعت.

قبل بلتزار ابنته بغبطة قائلاً لها: «إنك ملاك بالنسبة لي يا ابنتي»؛ وبدأ عليه الارتياح، وهو ينظر إليها بعين أقلّ كآبة، لكن رغم هذا الفرح لاحظت مرغريت بسهولة على وجهه علائم قلق عميق وحكمت أن هذه آلاف إكو تشكّل فقط ديون المخبر المطالب بها.

قالت بعد أت تركته يجلسها على ركبتيه مدلاً: «كن صريحاً يا أبي، هل تترتب عليك أشياء أخرى؟ اعترف لي بكلّ شيء، عد إلى بيتك دون أن تحسن أي عامل خشية وسط البهجة العامة».

قال وهو يأخذ يديها ويقبلهما برقة بدت وكأَنَّها من ذكريات شبابه

- يا عزيزتي مرغريت، ستوبخينني...

- كلا، أجابت.

«صحيح، هل يمكنني ذكر كل شيء، هل ستدفعين...» قال وقد بدرت منه حركة فرح طفولية.

- نعم، قالت وهي تحبس الدموع الوافدة إلى عينيها.

- الواقع يترتب... أودا لا أجرؤ...

- لكن، قل يا أبي!

- «إنّه مبلغ معتبر» وضمّ يديه بحركة قنوط وقال: «إنني مدين بثلاثين ألف فرنك إلى بروتز وشيفرفيل.

- «إنّ منّخراتي تبلغ ثلاثين ألف فرنك، ويسرّني أن أقدمها لك» قالت وهي تقبل جبينه باحترام.

- نهض، وأخذ ابنته بين ذراعيه ودار حول الغرفة وهو يرفعها ثم يضعها على الأرض كطفل صغير وأخيراً أجلسها على المقعد العريض حيث كانت وهو يهتف: «يا ابنتي العزيزة، أنت كنز حبّ. لم أكن أحيا أبداً، فقد كتب لي آل شيفرغيل ثلاث رسائل تهديد وأرادوا ملاحقتي، أنا الذي أخذوا منه ثروة.

- أبي، إنك ما تزال تتابع أبحاثك؟ قالت بلهجة قنوط.

- ما أزال دائماً. قال مع ابتسامة جنون، سأجده! هيّا... لو تعلمين أين نحن أصبحنا.

- من نحن؟

- إنني أتحدث عن لمولكينييه، لقد توصل أخيراً إلى فهمي، وهو يساعدني جيّداً يا الولد المسكين، إنه يتفانى في سبيلي!

قطع كوينيكس الحادثة بدخوله، فقد أشارت مرغريت لوالدها بأن يصمت خشية أن يفقد اعتباره في نظر خال الأسرة. لقد أزعجها التلف الذي أحدثه انشغال الفكر في هذا المخ المتميّز بالذكاء الوقاد المستغرق في بحث مشكلة قد تكون غير قابلة للحلّ؛ فبالتزاور الذي كان دون شك لا يرى إلى أبعد من أفرانه، لم يخمّن حتى تحرّر أملاكه من الديون.

في اليوم التالي سافر الجميع إلى الفلاندر، وكانت الرحلة طويلة تقريباً أتاحت لمرغريت أن تقتبس بعض المعلومات المشوّشة عن العلاقة القائمة بين لمولكينييه ووالدها. هل للخادم على السيد تلك الهيمنة التي يعرف كيف يكوّنها على رجال الفكر الكبار الأشخاص الذين لا ثقافة عندهم إلا الشعور بمدى الحاجة إليهم والذين من تنازل إلى تنازل يعرفون كيف يسيرون نحو السيطرة بالمتابعة التي تمنحها الفكرة الثابتة؟ أو أن المعلم قد أحسّ تجاه خادمه بنوع من

الود المتولد عن الاعتياد، والمماثل لتعلق العامل بأداته المبدعه، أو معاملة العربي لمطبخه المحرّرة؟ ترصدت مرغريت بعض الوقائع لتقرّر، وقد عازمت على أن تنقذ بلفتزار من سلطة مذلة في حال وجودها.

عند المرور بباريس، بقيت فيها عدّة أيام لوفاء ديون والدها والطلب من صانعي المواد الكيميائية عدم توجيه أية إرسالية إلى دوي دون إعلامها مسبقاً بطلبات والدها؛ وحصلت من والدها على وعد بأن يغيّر برّته ويتقيّد بالهندام الملائم لرجل من مستواه. هذا الترميم الجسمي أعاد لبلتزار نوعاً من الهيبة الفيزيائية التي اعتبرت طابع يمين من أجل تغيير الأفكار؛ وعمّاً قليل تسافر الابنة، السعيدة مسبقاً بجميع المفاجآت التي تنتظر والدها في بيته الخاص، إلى دوي.

على بعد ثلاثة فراسخ من تلك المدينة وجد بلتزار ابنته فليسيا تمتطي حصاناً يواكبها أخوها وإيمانويل وبييركين والأصدقاء الخُص للعثلاث الثلاث. ألهمت الرحلة بالضرورة الكيميائي عن أفكاره المعتادة وأثر مظهر الفلاندر على عواطفه، وبأن عليه الانفعال الشديد عندما أبصر الموكب الذي شكّلته عائلته وأصدقائه، فاغرورقت عيناه بالدموع، وارتعش صوته، واحمرّ جفناه، وقبّل بولع، أولاده دون أن يستطيع تركهم حتى أن مشاهدي ذلك المنظر غلب عليهم الدمع وعندما شاهد مجدداً منزله، شحب لونه، وقفز خارج عربة السفر بخفة فتى في ريعان الشباب، واستنشق هواء الفناء بعذوبة، وأخذ يتأمل أدق التفاصيل بسرور يطفح من حركاته وانتصب وقد يدت على هيئته ملامح الشباب؛ وعندما دخل إلى غرفة الجلوس، ترقّرت الدموع في عينيه وهو يرى الدقة التي اعتمدتها ابنته في إعادة صياغة شمعدانات فضيّة ماثلة لتلك القديمة التي بيعت فيها، كما أن آثار النكبات السابقة قد رمت وأصلحت.

أجريت حفلة غداء رائعة في قاعة الطعام التي امتلأت خزانتها مجدداً بالطرف والفضيّات المعادلة في قيمتها لتلك التي كانت فيها أولاً؛ وبالرغم من أن

هذه الولاية العائلية قد استمرت طويلاً، فقد كاد الوقت لا يكفي للعرض الذي طلبه بلتزار من كل واحد من أولاده. إن الهزة التي طبعت هذه العودة فيها روحه المعنوية جعلته ينسجم مع سعادة العائلة التي احتل فيها مكانته كأب، واستعادت تصرفاته مظهر نبيلها القديم. لقد استسلم في الفترة الأولى لمتعة الحيازة دون أن يسأل عن الوسائل التي استعاد فيها كما ما فقدته وهكذا كانت فرحته مترعة وتامة.

بعد انتهاء حفل الغداء انتقل الأولاد الأربعة والأب وبييركين موثقي العقود إلى غرفة الجلوس حيث وقع نظر بلتزار، ليس بدون قلق، على أوراق مدموغة حملها كاتب وقف قرب منضدة كأنه ينتظر مساعدة معلمه، وجلس الأولاد أمّا بلتزار فوقف مندهشاً أمام المدفأة، تقدّم بييركين قائلاً:

«هذا هو حساب الوصاية الذي يقدمه السيد كلايس لأولاده، وبالرغم من أنه ليس مسلياً جداً فيجب قطعاً الاستماع إليه» قال ذلك ضاحكاً على طريقة موثقي العقود الذين يظهرون بصورة عامة تقريباً روح الدعابة ليتحدثوا عن القضايا الأكثر جدية.

بالرغم من أن الظروف تبرّر العبارة، فقد رأى فيها كلايس، الذي استيقظ في وجدانه ماضي حياته، لوماً له، وقطّب حاجبيه. بدأ الكاتب بالقراءة تحت دهشة بلتزار التي أخذت تتزايد كلما ازداد الموضوع بسطاً.

ذكر أولاً أن ثروة الزوجة، عند وفاتها، وصلت إلى نحو مليون وستمئة ألف فرنك تقريباً. إن خلاصة تقديم هذا الحساب تعطي بشكل صريح لكلّ من الأولاد نصيباً كاملاً، كما ينتج عن إدارة أب عائلة طيب ومعتن. كما تبين أن البيت حرّ من كل رهن، وأن بلتزار صاحب ملكيته، كما أن أملاكه في الأرياف طليقة. بعد أن وقعت جميع الصكوك، عرض بييركين الوصولات المشعرة بتسديد الديون السابقة ورفع الرهن الذي كان مضروباً على الأملاك. في تلك اللحظة تهالك بلتزار، الذي استرد في آن واحد شرف الرجل، وحياة الأب، واعتبار المواطن، على مقعد عريض؛ وبدأ أنه يفتش بعينيه عن مرغريت التي تغيبت،

التزاماً منها بإحدى لياقاتها السامية كامرأة، عن تلك القراءة؛ وتذرت بالإشراف على اكتمال جميع مستلزمات الاحتفال. أدرك كل واحد من أفراد العائلة فكرة العجوز في اللحظة التي كانت فيها عيناه المغرورقتان بالدمع على ضعفهما تبحثان عن ابنته، التي كانوا جميعهم في تلك اللحظة يرونها بأعين الروح كملاك من قوة ونور.

وذهب لوسيان^(١) يفتش عن مرغريت؛ وبسماع خطواتها هرع إليها بـلتزار يضمّها إلى صدره.

قالت له وهما في أسفل الدرج حيث كان العجوز يضمّها إلى صدره شاكراً: أرجوك يا أبي ألا تنقص شيئاً من سلطتك المقدسة، اشكرني أمام كل العائلة لأنني قد نفذت جميع رغباتك، وكن هكذا القاعل الوحيد لهذا الإنجاز الخير الذي تمّ هنا».

رفع بـلتزار عينيه إلى السماء، ونظر إلى ابنته، وصالب يداه وقال بعد توقّف ظهر فيه على وجهه تعبير لم يره فيه أولاده منذ عشر سنوات: «قلتن روحك هنا يا بيتا لتكبري عمل ابنتنا» وضمّ مرغريت بشدة دون أن يتمكن من النطق بكلمة ودخل؛ فخاطب الحاضرين بكل نُبْل الهيئة التي جعلت منه سابقاً أحد الرجال الأكثر مهابة:

«يا أولادي، يتوجّب علينا جميعاً الشكر والعرفان بالجميل لابنتي مرغريت، للحكمة والشجاعة اللتين حقّقت بهما مقاصدي، ونفذت مخططاتي عندما عهدت، إليها لاستغراقي الكلّي في تجاري، بمقاليد إدارتنا المنزلية.

- ثم قال بييركين وهو ينظر إلى ساعته: أه! الآن، سنقرأ عقود الزواج، لكن هذه الصكوك لا تعود إليّ باعتبار أن القانون يمنعني من تحرير صكوك تتعلق بأهلي أو بي، لكن العم رابارليه سيأتي الآن».

في تلك اللحظة، أخذ يفد تباعاً أصدقاء العائلة المدعوون إلى العشاء

(١) اعتمد يلزك اسم «جان» عوضاً عن اسم «لوسيان» للابن الأصغر في عائلة كلايس، عند إعداد هذه الرواية لطبعة شاربنتيه، ويبدو أنه قد سها عن تصحيحه في هذا الموقع.

احتفالاً بعودة السيد كلايس، وبمناسبة عقود القران، وبينما كان الخدم يحملون هدايا الأعراس كان الجمع يتزايد بسرعة ويغلب أكثر وقاراً لما تميّز به الحاضرون من مهابة وغنى في الأناقة، فالعائلات الثلاث التي جمعتها سعادة أبنائها أرادت أن تتنافس في الفخامة، وخلال لحظات امتلأت الصالة بالهدايا الرائعة المقدّمة للعرسان وتجلّى الذهب وتلالاً، وعرضت الحرائر. ونشرت شالات الكشمير والعقود والحلي فرحاً حقيقياً لدى من يقدمها ولدى اللواتي يتلقينها، هذا الفرح شبه الطفولي كان يرتسم على جميع الوجوه حتى أن قيمة هذه الهدايا الرائعة قد نسيت من قبل خليّي البال، الذين غالباً ما ينشغلون بتقييمها وحسابها فضولاً منهم. بدأت عند ذلك المراسم المألوفة لهذه المناسبة ضمن عائلة كلايس، حيث يحقّ للأب والأم فقط الجلوس، أما الحضور فيبقون واقفين على مسافة منهم، وقف إلى يسار القاعة ومن جهة الحديقة غابرييل كلايس والأنسة كوينيكس، وقربهما السيد دي سوليس ومرغريت، ثم فليسيا وبيركين وعلى بعد خطوات بلتزار وكونينكس وهما الوحيدان في هذا الجمع اللذان جلسا فجلس كل منهما على مقعد وثير قرب موثق العقود الذي حلّ محلّ بيركين، كان جان واقفاً خلف أبيه.

كانت حلقة ضمت نحو عشرين امرأة في غاية الأناقة، وبعض الرجال من أقارب بيركين وكونينكس وكلايس، وعمدة نوي الذي سيقيم مراسم الزواج، والشهود الاثني عشر الذين اختيروا من أقرب أصدقاء العائلات الثلاث ومن بينهم الرئيس الأوّل في المحكمة الملكية، وكاهن كنيسة سان بيير، في دائرة مهيبة تعطي لهذا المشهد الذي يتجلّى فيه التبجيل للابوة مظهراً فريداً، إنها اللحظة الوحيدة منذ ستة عشر عاماً التي نسي فيها بلتزار بحثه عن المطلق.

سأل رابارليه موثق العقود إن كان جميع المدعوين إلى حضور مراسم التوقيع، وحفل العشاء الذي سيعقبها قد وصلوا؛ وعندما أجابت مرغريت واختها بالإيجاب أخذ عقد زواج مرغريت ودي سوليس لقراءته أولاً، عندما فتح الباب فجأة وظهر لمواكينييه وقد بدا وجهه متوهجاً من شدة الفرح وهو يصيح «سيدي،

سيدي!» تطلّع بـلتزار إلى مرغريت بنظرة قنوط، وأشار إليها فتبعته إلى الحديقة، وساد الهرج في الجمع.

همس الأب لابنته: «لم أجرو أن أقول لك يا ابنتي كل شيء، لكن بعد كل ما فعلته لي، ستقذنيني من هذه البلوى الأخيرة؛ لقد أقرضني لمواكيني لتجربتي الأخيرة التي لم تنجح عشرين ألف فرنك، هي ثمرة مدخراته. وقد جاء التعس دون شك يطالب بها بعد أن عرف أنني أصبحت مجدداً غنياً. أعطها له حالاً، فإن بقاء والدك حياً مدين له، فهو وحده الذي واساني في أيام البلوى، وهو وحده الذي آمن بي، من المؤكد أنني بدونه كنت ميتاً...

- «سيدي، سيدي!» هتف لمواكيني مجدداً.

- ما الأمر؟ قال بـلتزار وهو يلتفت نحوه.

- ألماسة!...

تفزع كلايس إلى الصلاة، وقد لاحظ ألماسة في يد خادمه الذي قال له بصوت منخفض: «لقد ذهبت إلى المخبر».

ألقى الكيميائي: الذي كان قد نسي كل شيء على القلمندي العجوز نظرة متأملّة لا يمكن إلا أن تفسّر بهذه العبارة: «كنت الأول الذي ذهب إلى المخبر» تابع الخادم: «وجدت هذه الألماسة في الكبسولة المتصلة بذلك البيل الذي تركناه يقوم بعمله كالمعتاد، وقد فعل يا سيدي!» ورفع في يده ألماسة بيضاء مثمنة الوجوم لفتت ببريقها انظار الجمع المندهشة.

التفت بـلتزار إلى الحاضرين قائلاً:

«يا أولادي، يا أصدقائي، أغفروا لخادمي العجوز جلبته، واغفروا لي ما يكاد يفقدني الصواب. لقد انتجت صدفة سبع سنوات، بدوني، اكتشافاً أفتش عنه منذ ستة عشر عاماً. كيف؟ لا أدري. نعم لقد تركت كبريت الكربون تحت تأثير بيل فوطا يجب مراقبة تأثيراته كل يوم، والواقع أن قدرة الله قد انبثقت في غيابي، في مخبري دون أن أستطيع، بالطبع، تتبع نتائجها تدريجياً! أليس هذا مروعاً؟ يا للمنفى العين! يا للصدفة اللعينة! للأسف! لو أنني تتبعت بدقة

هذا التبلور الطويل... البطيء... المفاجيء. لا أعلم ماذا أقول... هذا التحول...
أخيراً هذه الأعجوبة... لغدا أولادي أكثر غنى الآن... وبالرغم من أن هذا ليس
حلّ المسألة التي أبحث فيه، فهو على الأقل الاشعاعات الأولى لجد أفر به
وسينعكس انتصاراً لوطني، إن هذه اللحظة التي تجعلها احتفالاً لنا العاطفية
متوهجة بالسعادة تزداد دفئاً وألقاً بشمس العلم.

لزم كل واحد الصمت أمام هذا الرجل، فالكلمات غير المتسجمة التي
أقتلعتها منه الآلام كانت معبرة عن حقائق جلية إن لم تكن سامية.
فجأة كبح بلتزار القنوط المعتمل في نفسه وألقى على الحضور نظرة
جليلة تألفت لها النفوس، وتناول الأمانة وقدمها إلى مرغريت هاتفاً:
«إنها لك يا ملاكي!» ثم صرف لمولكنيه بإشارة والتفت إلى موثق العقود
قائلاً: «لنتابع».

أثارت هذه الكلمة في الجمع رعشة مماثلة لتلك التي كان يحدثها تالاً^(١)
خلال بعض أنواره، في الجماهير المصغية إليه.
جلس بلتزار وهو يقول بصوت منخفض: «يجب ألا أكون إلا أباً هذا
اليوم».

تقدمت مرغريت التي سمعت هذه الكلمة، فتناولت يد والدها وقبلتها
باحترام.

«ما من رجل كان بهذا الكبير» قال إيمانويل عندما عادت خطيبته إلى
قربه. «ما من رجل بهذه القدرة، فأني واحد غيره يصاب بالجنون».
قرئت العقود الثلاثة ووقعت، وأسرع كل واحد يسأل بلتزار عن الطريقة
التي تشكّلت فيها هذه الأمانة؛ لكنه لم يستطع الإجابة عن حدث يبدو كثير
الغربة، وتطلّع إلى السقيفة، وأشار إليها بغضب.
«نعم، إن القدرة المروعة الناتجة عن حركة المادة الملتهبة التي شكّلت دون
شك المعادن، والالاميس، قد تجلّت هنا لفترة، صدف».

(١) تالاً: (١٧٦٣ - ١٨٣٦) ممثل تراجيدي فرنسي اهتم بالحقيقة التاريخية وأعاد اللهجة
الطبيعية للمغالاة المسايوية. كان أثيراً لدى نابوليون

- «هذه الصدفة طبيعية جداً بدون شك، لقد ترك الرجل هنا الماسة حقيقته وقد أنقذت من بين الألاميس الكثيرة التي أحرقتها» قال أحد مدّعي الفهم والفصاحة.

- التفت بلتزار إلى أصدقائه وقال: «لننس هذا الأمر، أرجو ألا تحدثوني عن ذلك هذا اليوم».

تأبطت مرغريت ذراع والدها لتنتقل إلى الجناح الأمامي من المنزل حيث يقام احتفال فخم؛ وقد لاحظ عند دخوله الصالة الكبرى بعد ضيوفه جميعاً أنها مزدانة باللوحات وملأى بالأزهار النادرة فهتف: «لوحات، لوحات! وبينها بعض لوحاتنا القديمة!».

توقف، وانعقد جبينه، ومرّت لحظة حزن، لقد شعر عند ذلك بثقل أخطائه وهو يقيس مدى مدّته الخفية.

قالت مرغريت وقد خمنت ما يعتمل في نفس بلتزار: «كل هذا لك يا أبي».

- أيها الملك الذي يجب أن تصفق له الأرواح السماوية، كم من مرّة أعدت الحياة إذاً إلى والدك؟.

- أبسط جبينك لا تعتوره أية قتامة، ولا تدع أية فكرة حزينة تخامر قلبك، لقد كافأتني إلى أبعد مما صبت إليه آمالي.

لقد فكّرت بملوكنيه ياوالدي العزيز والكلمات القليلة التي حدثتني عنه فيها جعلتني أقدره تمام التقدير. إنني لاعترف أنني أسأت الحكم عليه أولاً، لا تفكّر بما يتوجّب له عليك، وسيبقى إلى جانبك كمصديق محترم.

إن إيمانويل يمتلك نحو ستين ألف فرنك ادخرها، وسنعطها لمولوكنيه جزاء خدماته المخلصة لك. يجب أن يحيا هذا الرجل مطمئناً بقية أيامه. ولا تقلق من أجلنا، فدي سوليس وأنا نتبع حياة هادئة عذبة، حياة دون بذخ، فيمكننا إذاً أن نتخلّى عن هذا المبلغ إلى أن يتسنى لك اعادته إلينا.

- «أه! يا ابنتي، لا تتركيني أبداً! كوني دائماً العناية الإلهية لوالدك».

بدخوله إلى جناح الاستقبال، لاحظ بلتزار أنه قد رَمَّم وأَسَّس بشكل لا يقلّ عن روعته من قبل. دخل المدعوون بعد ذلك إلى قاعة الطعام الكبرى في الطابق الأرضي مروراً بالدرج الكبير حيث لاحظوا على كل واحدة من درجاته شجيرات مزهرة؛ وقضيات رائعة مبتكرة مقدمة من غابرييل لوالده أدهشت الأنظار، كذلك طقم مائدة بدا غريباً بالنسبة للسكان الرئيسيين في مدينة يعتبر مثل هذا الطقم موضة تقليدية فيها. كان خدم كونيנקس وبييركين وكلايس يقومون على خدمة المدعوين خلال تلك الوليمة الفخمة، برؤية نفسه في صدر تلك المائدة المتوّجة بالأهل والأصدقاء والوجوه المشعة فرحاً عارماً ومخلصاً، أحسّ بلتزار، ومن خلفه يقف لمولكنيه، باتفعال أخذ حسمت أمامه الجميع، كما بصمت عادة في الأفراح الكبرى أو الألام الكبرى.

هتف بلتزار «أيّها الأولاد الأعزاء، لقد نبهتم العجل المسمّن عند عودة الأب الضال.

هذه الكلمة التي أدان العالم فيها نفسه، وربما حال بواسطتها عن إصدار أحكام أكثر قسوة، قيلت بنبل بحيث رقّ لها كل واحد من الحضور، فمسح دمه، لكنها كانت آخر تعبير عن الكتابة؛ فالفرح اتخذ تدريجياً طابعاً صاخباً وناشطاً يذكرّ باحتفالات العائلة؛ وبعد العشاء وصل نخبة سكان المدينة لحفلة الرقص التي افتتحت والتي تتناسب مع الأبهة التقليدية لمنزل كلايس المجدّد. وقد تلت الأعراس الثلاثة بسرعة، وأجريت بمناسبتها احتفالات وولائم وحفلات رقص دفعت لعدة أشهر العجوز كلايس في دوامة المجتمع؛ وقد ذهب ابنه البكر ليستقر في ملكية قرب كامبري تعود لكونينكس الذي لم يرد أبداً أن يفترق عن ابنته. كذلك غادرت السيدة بييركين البيت الأبوي لتقيم في القصر الذي بناه بييركين وأراد أن يحيا فيه حياة النبلاء بعد أن باع مكتبه عند وفاة عمه دي راكمه الذي ترك له كنوزاً ادخرها بهدوء». أما جان فسافر إلى باريس لينهي دراسته.

بقي آل سوليس وحدهما إذا قرب والدهما الذي تخلى لهما عن الجناح

الداخلي من المنزل، بعد أن سكن في الطابق الثاني من الشقة الأمامية؛ واستمرت مرغريت بالسهر على الوضع المادي لبلتزار يساعدها في هذه المهمة اللطيفة إيمانويل. لقد تلقت هذه الفتاة النبيلة من أيدي الحبّ التاج الأكثر اشتهاً، ذلك الذي تضفره السعادة، ويحفظ بريقه الاستقرار، الواقع أن ما من زوجين يقدمان بشكل أفضل صورة عن الغبطة الكاملة، المعلنّة، النقية، التي تشتهيها جميع النساء في أحلامهن. إن اقتران هذين الكائنين الشجاعين أمام تجارب الحياة، الذين تحابوا بقدسية أثار في المدينة إعجاباً محترماً. كان السيد دي سوليس قد سمّي منذ مدة طويلة مراقباً عاماً في الجامعة، وقد استقال من وظيفته ليستمتع بشكل أفضل بحياته السعيدة، ويبقى في دوي حيث كل فرد فيها يقدر باحترام كبير مواهبه وطبعه، حتى أن اسمه مسجّل مسبقاً لدى الناخبين عندما يصل إلى العمر الذي يجيز له الترشيح للنيابة. أما مرغريت التي ظهرت قويّة في الشدّة، فقد أصبحت في أيام الرغد امرأة رقيقة طيّبة؛ وبقي كلايس خلال تلك السنة مشغولاً بشكل رصين دون شك، وإن كان قد قام ببعض تجارب قليلة الكلفة، يمكن لدخله أن يكفيها، فقد بدا أنه يهمل مخبره؛ واستعادت مرغريت من أجله عادات منزل كلايس القديمة فكانت تقيم كل شهر حفلة عائلية يحضرها آل بييركين وآل كوينكس، كما تستقبل نخبة مجتمع المدينة في أحد أيام الأسبوع حول فنجان قهوة اكتسب شهرة فائقة؛ وكان كلايس يحضر جميع هذه الاجتماعات رغم شروده غالباً، فيعود بكياسة رجل مجتمع إرضاء لابنته البكر حتى أن أولاده اعتقدوا أنه قد تخلّى عن السعي إلى الكشف عن حل لمشكلته. وهكذا مرّت ثلاث سنوات على هذا المنوال.

في العام ١٨٢٨، اقتضى حدث ملائم من إيمانويل أن يسافر إلى اسبانية؛ فبالرغم من أن بينه وبين أملاك آل سوليس ثلاثة فروع متعدّدة الأفراد فإن الحمى الصفراء، والشيخوخة، والعقم، وجميع نزوات الثروة قد توافقت لتجعل من إيمانويل وريث اللقب والإنابات الثرية، هو الأخير في العائلة؛ وكان بيت دي سوليس بإحدى هذه الصدف، التي تبدو غير معقولة في الكتب فقط، قد

ضمّ كونتية نورو، ولم تشأ مرغريت أن تبتعد عن زوجها، وقد اقتضت أعماله أن يبقى مدة في اسبانية وزادها الفضول في أن ترى قصر كازار ريال حيث قضت أمها أيام طفولتها، ومدينة غرناطة المهد الأبوي لعائلة سوليس، فسافرت بعد أن عهدت بإدارة المنزل لإخلاص مرتا، وجوزيت، ولولكنيه الذي تعودّ تسييره.

عرضت مرغريت السفر على والدها إلى اسبانية فاعتذر بكبر سنه، لكن أعمالا عديدة كان قد فكّر بها منذ مدة طويلة، ويؤمّل أن تحقق آماله، كانت هي السبب الحقيقي لرفضه.

بقي الكونت والكونتس دي سولي نورو في اسبانية مدّة أطول مما كان متوقّعا لهما، ورزقت مرغريت هناك طفلاً؛ وفي منتصف العام ١٨٣٠ كانوا في قادس حيث توقّعوا الإبحار للعودة إلى فرنسا عن طريق ايطالية، لكنهم تلقوا رسالة من فليسيا تنبئ فيها أختها انباء حزينة، فوالدهم خلال ثمانية عشر شهراً قد أفلس بشكل كامل. واضطر غابرييل وبييركين إلى وضع مبلغ شهري تحت تصرف لولكنيه ليؤمن نفقات المنزل، وقد ضحّى الخادم العجوز مرّة ثانية بثروته لمعلمه؛ ورفض بلتزار استقبال أي انسان لديه حتى أولاده؛ وتوفيت مرتا وجوزيت، وصرف الحوذي والطباخ وبقية خدم المنزل تباعاً، وبيعت الخيول والعربات. وبالرغم من أن لولكنيه يلتزم الصمت العميق حول عادات معلمه، فمن المعتقد أن الألف فرنك التي يقدّمها غابرييل كلايس وبييركين شهرياً تستعمل في التجارب، والمؤن القليلة التي يشتريها الخادم من السوق تدفع إلى الافتراض بأن هذين العجوزين يكتفيان بالضروري للعيش. أخيراً وحتى لا يتعرّض المنزل للبيع فإن غابرييل وبييركين يدفعان قيمة الفوائد عن المبالغ التي اقترضها العجوز دون علمهما على رهن ذلك البيت، ولم يتمكن أيّ من أولاد هذا العجوز البالغ من العمر سبعين عاماً من التأثير عليه فهو يتمتع بطاقة خارقة تدفعه إلى تحقيق كل ما يريد حتى المستحيلة منها؛ وربما أمكن لمرغريت وحدها أن تستعيد السيطرة التي سبق أن مارستها على بلتزار، وقد رجّت فليسيا أختها أن تحضر سريعاً، وهي تخشى أن يكون والدها قد وقع بعض الكمبيالات؛

وغابرييل وكو نينكس وبيركين مرتاعون كلهم من استمرار هذا الجنون الذي استهلك نحو سبعة ملايين دون نتيجة، وقرروا عدم دفع ديون السيد كلايس. هذه الرسالة غيّرت ترتيبات سفر مرغريت، فأتخذت الطريق الأكثر قرباً للوصول إلى دوي، فمخزنتها وثروتها الجديدة تتيحان لها أن تسدد مرة أخرى ديون والدها؛ لكنها تريد أكثر من ذلك، تريد الامتثال لطلب أمها في ألا تسمح بنزول بلتزار إلى القبر مسريلاً بالعار. من المؤكد أنها وحدها تستطيع أن تمارس على هذا العجز نفوذاً لمنعه من الاستمرار في عمله المخرب في عمر لم يعد بالإمكان فيه انتظار عمل مثمر من إمكاناته الراهنة. لكنها تريد أن تسوسه دون أن تفضبه كي لا تفعل كابناء سوفوكليس^(١). في الحالة التي يقترب منها والدها من الهدف العلمي الذي بذل الكثير من أجله.

وصل السيد والسيدة دي سوليس إلى الفلاندر في الأيام الأخيرة من شهر أيلول ١٨٣٦ وكانا في دوي خلال النهار. توقفت مرغريت أمام بيتها في شارع باريس، فوجدته مغلقاً، قرعت الجرس بعنف فلم يرد أحداً. ترك التاجر عتبة متجره حيث استلقت انتباهه قرعة عربات السيد دي سوليس وحاشيته؛ كما أن كثيراً من الأشخاص أطلوا من النوافذ ليستمتعوا بمشهد عودة تلك العائلة المحبوبة في كل المدينة ومنجذبين أيضاً بذلك الفضول المبهم الذي يتعلق بالأحداث التي ستنتج في منزل آل كلايس بعد وصول مرغريت. أخبر التاجر وصيف الكونت دي سوليس أن العجز كلايس قد خرج منذ نحو ساعة؛ ولا شك أن لمولكنيه ينزّه سيده نحو الأسوار. أرسلت مرغريت في طلب حدّاد ليفتح لها الباب لتجنب المشهد الذي قد تسببه مقاومة والدها، إن رفض قبولها لديه كما كتبت لها فليسيا. خلال هذا الوقت ذهب إيمانويل يفتش عن العجز لينبئه بمجيء ابنته، بينما ذهب خادمه ليعلم السيد والسيدة ببركين. فتح الباب في لحظة ودخلت مرغريت إلى قاعة الجلوس لتضع فيها متاعها فارتعشت هلعاً من

(١) سوفوكليس: (٤٩٤ - ٤٠٦ ق.م) شاعر مأساوي يوناني، يقال أن ابنه إيوفون طلب الحجر عليه لاختلال عقله وأن الشاعر أجاب بقراءة بعض أشعار أوديب إلى كراون، مما دعا إلى رفض طلب الابن.

منظر الجدران العارية كأن النار قد أئت عليها؛ فخشب التغطية الرائع المحفور من قبل فون هورنيوم وصورة الرئيس قد بيعت، على ما يقال، إلى لورد سينسر^(١). كانت قاعة الطعام فارغة، لا يوجد فيها، إلا كرسيان من قش وطاولة عادية لاحظت مرغريت عليها بارتياح صحنين وكأسين وأدوات طعام فضية لشخصين وفي صحيفة بقايا سمكة مملحة لا شك أن كلايس وخادمه قد تقاسماها، وفي لحظة تجوّلت في المنزل فراعها مشهد العري المماثل لما رآته في قاعة الجلوس وقاعة الطعام يسود جميع الغرف الأخرى. لقد مرّت فكرة المطلق في كلّ مكان كمرور الحريق، لم يبق من الأثاث إلا سرير وكرسي ومنضدة في غرفة والدها وشمعدان سيّء من نحاس بدت فوقه نهاية شمعة من النوع الرديء، كان العري كاملاً حتى أن النوافذ كانت بدون ستائر، وقد بيعت جميع الأشياء التي يمكن أن تكون ذات قيمة، جميعها حتى أدوات المطبخ، دفعها الفضول الذي لا يفارق الإنسان حتى في البلية فدخلت إلى غرفة لولكيثيه فرائتها عارية كغرفة سيّده، وفي درج الطاولة نصف المفتوح لاحظت وصلاً من مون - دى - بيته يفيد أن الخادم قد رهن ساعته منذ عدة أيام سابقة. هرعت إلى المخبر فوجدته مليئاً بالأجهزة العلمية كما في السابق، ثم انتقلت إلى جناحها فوجدته على حاله، لم يمسّ والدها منه شيئاً.

من النظرة الأولى التي ألقتها على متاعها الخاص نفرت الدموع من عينيها، وغفرت لأبيها كل شيء. ففي وسط هذا الهيجان المدمر توقف الأب إذا أمام العاطفة الأبوية واعترافه بالجميل لابنته! هذا الشاهد على الحنان، المتلقى في لحظة وحصل فيها قنوط مرغريت إلى الذروة حدّد إحدى هذه الارتكاسات المعنوية التي تقف أمامها القلوب الأشدّ قسوة دون قوّة.

نزلت إلى قاعة الجلوس وانتظرت فيها وصول والدها في قلق يزيد الشك هلعاً. كيف ستراه من جديد؟ مهدّماً، عاجزاً، متألماً، ضعيفاً من قلة التغذية التي

(١) لورد سينسر (١٧٥٨ - ١٨٣٤) عضو مجلس أعيان ووزير داخلية اهتم بشراء الكتب النادرة والتحف.

تعرّض إليها أنفة؟ لكن، أيكون محافظاً على عقله؟ سالت الدموع من عينيها دون أن تلاحظ ذلك عند تمعنّها في هذا الحرم المدمر. مرّت أمامها صور كل حياتها، وجهودها، واحتياجاتها التي ذهبت سدى، وطفولتها وأمّها في سعادتها وشقائها، كل شيء، حتى منظر طفلها جوزيف وهو ييسم أمام هذا المشهد من الخراب، فشككت لديها قصيدة كآبات مؤلمة.

لكن مهما توقّعت من بلايا فإنها لا تنتظر حل العقدة التي يجب أن تتوّج حياة والدها؛ هذه الحياة العظيمة والبايسة في آن معاً. إن الوضع الذي يوجد فيه كلايس لم يعد سرّاً على أحد، فمما يخجل ألا يصادف في دوى قلبان شهمان يكتّان الاحترام لمواظبة هذا الرجل العبقري. إن بلتزار بالنسبة للمجتمع بكامله رجل يجب تحاشيه، إنه أب سيء بدّد ست ثروات تقدر بالملايين، وهو يفتش عن حجر الفلاسفة في القرن التاسع عشر، هذا القرن المستنير، هذا القرن الجامد، هذا القرن، الخ... لقد افترى على والدها بتعغيره باسم السيميائي، بمجابته بهزء «إنّه يريد صنع الذهب!» أي شيء لا يقال من مديح أو رثاء بالنسبة لهذا القرن، حيث كما في القرون الأخرى، تتلاشى الموهبة في جوّ لامبالاة بمثل الغظاظلة التي كانت سائدة في الأزمنة التي مات فيها دانتلي، وسرفانتس وتاسو^(١)، الجميع دون استثناء. كلّ الشعوب تفهم بشكل أكثر تأخراً أيضاً ابتكارات العبقريّة من فهم الملوك لها.

هذه الآراء قد تسرّيت تدريجياً من مجتمع النخبة في دوى إلى البورجوازية، ومن هذه إلى عامة الشعب، فالكيماي السبعيني يثير إذا عاطفة عميقة من الشفقة لدى الأناس المهذّبين، وفضولاً ساخراً لدى الشعب؛ والتعبيران مليئان بالاحتقار و«بالويل للمغلوب» التي يرهق بها الرجال الكبار من قبل الجماهير عندما يرونهم بؤساء؛ فكثير من الأشخاص يأتون إلى أمام منزل كلايس ويشيرون إلى نجمية السقيفة حيث استهلك كثير من الذهب

(١) دانتلي (١٢٦٥ - ١٣٢١) شاعر إيطالي مؤلف الكوميديا الإلهية.

سرفانتس (١٥٤٧ - ١٦١٦) كاتب إسباني مؤلف دون كيشوت.

تاسو (١٥٤٤ - ١٥٩٥) شاعر إيطالي مؤلف القدس المحرّرة.

والفحم، وعندما يمرّ بـلتزار يشار إليه بالإصبع، وغالباً ما تبدر لمظهره كلمة سخرية أو إشفاق تتفكّلت عن شفّتي رجل من الشعب أو أحد الأولاد، لكن لمولكينيّه يأخذ احتياطه ليفسرّها له وكأنّها تقرّظ وهكذا يتمكّن من خداعه دون قُصد الإساءة؛ ولئن كانت عينا بـلتزار قد احتفظتا بهذا الصفاء السامي الذي تطبعه عادة الأفكار الكبيرة، فإن حاسة السمع قد ضعفت لديه. إنّه بالنسبة للفلاحين والأناس الفُظّلين والمتطيرين إنسان مشعوذ ساحر، وبيت كلايس النبيل، والكبير يسمى في الأرياض والأرياف بيت الشيطان، وكل شيء فيه، حتى وجه لمولكينيّه يبعث على معتقدات مثيرة للسخرية. انتشرت عن معلمه. وهكذا فعندما يذهب هذا المسكين المسترقّ إلى السوق يفتش عن المؤن الضرورية لاستمرار العيش، باحثاً عنها بين الأرخص سعراً، فإنه لا يحصل على شيء قبل أن يتلقّى بعض الشتائم على سبيل التسلية وفي وجهه أحياناً؛ وإذا كانت بعض البائعات المتطيرات لا يرفضن بيعه زاده اليومي الهزيل خشية العذاب من مجابهة أحد عملاء الجحيم، فإن عواطف كلّ تلك المدينة كانت بصورة عامة معادية لهذا العجوز الكبير ولرفيقه؛ والفوضى في لباس أحدهما أو الآخر تساعد على ذلك أيضاً فهم في أرويتهم يبدون كأولئك المعوزين المستترين الذي يحتفظون بمظهر خارجي محتشم ويترددون في طلب الإحسان؛ وعاجلاً أو أجلاً يمكن أن يتعرّض هذان العجوزان إلى الشتيمة. لذلك فإن بييركين، بشعوره كم ستكون الشتيمة العامة محقّرة للعائلة، كان يرسل دائماً خلال نزّهات حميّه اثنين أو ثلاثة من اتباعه يحيطون به عن بعد بمهمة حمايته، ذلك أن ثورة تموز لم تساهم في جعل الشعب أكثر لياقة.

في أحد هذه الأقدار التي لا تفسير لها خرج كلايس ولولكينيّه في ضحوة يوم، وفي غفلة عن المراقبة الخفية التي يحيطهما بها السيد والسيدة بييركين، ووجدا وحدهما في المدينة، وفي عودتهما من نزّهتهما، جلسا على مقعد في ساحة سان جاك يستمتعان بالشمس، مع مرور بعض الأولاد الذاهبين إلى المدرسة أو الكلية، وبرؤيتهم من بعيد لهذين العجوزين الأعزلين، وقد تألق

وجهاهما في الشمس، أخذ الأولاد يتحدثون، وغالباً ما تنتهي أحاديث الأولاد بالضحكات، ومن الضحك ينتقلون إلى المخاتلة الساحرة لكن بون لوم. وقف سبعة أو ثمانية من أوائل الذين وصلوا على مسافة وأخذوا يتأملون هذين الوجهين المفضنين وهم يحبسون ضحكات مخنوقة لفتت انتباه لولكيثيه.

«انتبه، أترى هذا الذي يبدو رأسه كالركبة؟

- نعم.

- الواقع أنه عالم منذ ولادته.

- إن أبي يقول إنه يصنع الذهب؛ قال آخر.

- «من أين؟ من هناك أو من هنا؟» قال ثالث وهو يشير بحركة ساخرة

إلى ذلك القسم الذي يشير إليه التلاميذ غالباً من أنفسهم كناية عن الاحتقار
تقدم أصغر أفراد العصابة، وكان يحمل سلّة مليئة بالمؤن ويتلذذ بتناول
فطيرة مطلية بالزبدة، ببراعة نحو المقعد وقال لولكيثيه: «أصحيح يا سيدي أنكم
تصنعون لآلىء والاميس.

- نعم، يا ملاكي الصغير، وسنعطيك منها عندما تصبح عالماً أجاب

لولكيثيه باسمأ وهو يرتب على خد الصغير.

- «آه، يا سيدي، أعطني أنا أيضاً» بدرت صيحة هتاف عامة، وركض

الأولاد كسرب عصافير وأحاطوا بالكيميائيين، وكان يلتزاز غارقاً في إحدى
التأملات التي أيقظته منها هذه الصرخات، فبدرت منه إشارة دهشة سببت
ضحك الجميع، فقال لولكيثيه: «هيا يا أولاد، مزيداً من الاحترام لرجل كبير!».

- إلى قناع المساخر^(١) صاح الأولاد. انقم مشعوذون سحرة - نعم

مشعوذون سحرة، سحرة...

نهض لولكيثيه على قدميه وهدد بعكازه الأولاد الذين هربوا وهم يجمعون

الطين والحصى؛ وكان عاقل يتغذى على بضع خطوات من هناك، فرأى لولكيثيه

(١) قناع المساخر Chienlit تنكر بلبسه الأولاد في حفلات المرافع لكنهم يلفظون الكلمة في ضحكاتهم Chie _ en _ lit أي تبرّز في السرير!.

وهو يرفع عكازه ليدفع الأولاد إلى الهرب فظنَّ أنه يصريهم ونهض لمساعدتهم وهو يطلق هذه الكلمة الرهيبة: «ليسقط السحرة!» شعر الأولاد بالمساندة فرموا مقنوفاتهم التي أصابت العجوزين في اللحظة التي ظهر فيها الكونت دي سوليس في طرف الساحة يرافقه خدم بييركين، لكنهم لم يصلوا بالسرعة الكافية ليمنعوا الأولاد من رمي الطين على الشيخ الكبير وخادمه. فالضربة قد حصلت، وملتزار المحتفظ حتى الآن بإمكاناته، بفعل عفة طبيعية لدى العلماء، الذين تلهيهم اهتمامات الكشف، عن الأهواء، خمّن بظاهرة انغلاف^(١) سرُّ هذا المشهد، فلم يستطع جسمه المضنى احتمال الارتكاس المروع الذي عانت منه المناطق الحساسة من عواطفه، فسقط بين ذراعي لولكينيه وقد أصابه الشلل. تمَّ حمل العجوز على نقالة محاطاً بصهره وأتباعهما، ولم تحل أية قوة أهل دوي من مرافقة العجوز حتى باب منزله حيث كانت فليسيا وأولادها، وجان، ومرغريت، وغابرييل الذي وصل من كامبري مع زوجته بعد أن اتصلت به اخته. كان مشهداً مروّعاً إدخال هذا العجوز إلى المنزل، وهو يتخبط في دعر خشية أن يكشف أولاده سرُّه أكثر مما يتخبط من معاناة المرض القاتل.

نُصِبَ بسرعة سرير في وسط قاعة الجلوس لبلتزار الذي بذلت له الإسعافات الفائقة وتبيّن في نهاية النهار أن حالته تبعث بعض الأمل باستبعاد الخطر واستمرار حياته، لكن الشلل، بالرغم من مكافحته بمهارة، سيتركه مع ذلك، لمدة طويلة تقريباً في حالة أقرب إلى الطفولة.

عندما أخذ الشلل يتراجع تدريجياً، بقي يحبس اللسان الذي استمر عاجزاً عن النطق لأن الغضب على الأرجح قد نقل إليه كل قوى العجوز في اللحظة التي أراد فيها توبيخ الأولاد.

أثار هذا الحادث في المدينة استنكاراً عاماً، إذ أنه بفعل قانون، ما يزال مجهولاً، يوجّه عواطف الجماهير، وجّه جميع الأفكار نحو السيد كلايس،

(١) الانغلاف: انزلاق بشكل إصبع قفاز منقلب لقسم من الامعاء في القسم المجاور له لكن بلزك يستخدم هذه الكلمة الطبية في المجال المعنوي بمعنى حدس هو ارتداد الفكر على نفسه.

فأصبح في لحظة رجلاً كبيراً يثير الإعجاب وينال التقدير الذي حرم منه بالأمس. أصبح كل إنسان يتغنّى بصبره، وإرادته، وشجاعته، وعبقريته؛ وأراد القضاة أن يعاقبوا بشدة أولئك الذين اشتركوا في هذا الاعتداء، لكن البلوى حادثة قضاء وقدر، وعائلة كلايس أول من طلب طي هذه القضية.

أمّرت مرغريت بتأثيث قاعة الجلوس فغلّت جدرانها الداخلية العارية سريعاً بالحديد، وبعد عدة أيام من ذلك الحادث، وبعد أن استرد الأب العجوز وعيه، ووجد في إطار أنيق أمّنت فيه جميع ضرورات الحياة السعيدة، أنبنى أن ابنته مرغريت قد حضرت في اللحظة ذاتها التي دخلت فيها إلى قاعة الجلوس. احمرّ بلتزار وابتلّت عيناه دون أن تنهمر دموعه، وأمكنه أن يضغط بأصابعه الباردة على يد ابنته واضعاً بذلك كلّ العواطف وكل الأفكار التي لا يستطيع أبداً التعبير عنها. كان شيئاً قدسياً ومهيّياً وذاعُ هذا المخ الذي ما يزال حياً، وهذا القلب النابض بالعرفان بالجميل. هذا العملاق، الذي استهلكته المحاولات غير المثمرة، وأتعبه الصراع مع مشكلة ضخمة، وأقنطه على ما يبدو المجهول الذي ينتظر ذاكرته^(١)، ستوقف شرايين الحياة قريباً فيه، وأولاده من حوله جميعاً يحيطونه بعاطفة الاحترام، بحيث تستطيع عيناه أن تحيا ثانية بصور الرخاء والفنى، وباللوحة المؤثرة التي تتجلى أمامه في عائلته الجميلة. كان ودوداً باستمرار في نظراته التي أمكنه أن يعبر فيها عن عواطفه، وقد اكتسبت عيناه فجأة تنوعاً كبيراً في التعبير أصبح لديه وكأنّه لغة أشعة يسهل فهمها.

سدّت مرغريت ديون والدها، وأعادت خلال أيام لبيت كلايس بهاءً حديثاً أبعد عنه كل فكرة انحطاط. كانت دائماً قرب سرير والدها تجهد أن تخمّن جميع أفكاره وتلبي كل رغباته.

مرت بضعة أشهر في تناوب التحسّن والتراجع التي تشير لدى الشيوخ إلى هذا الصراع بين الحياة والموت؛ ابناؤه يحضرون كل صباح إلى قربه،

(١) تطوّر جنون كلايس مماثل لرأي الأطباء الفلاسفة الذي عبّر عنه جورجه في كتابه الجنون (١٨٢٠) والذي قرأه بلزك بتمعن.

يقضون نهارهم في غرفته يتناولون عشاءهم أمام سريرهم، ولا يتركونه إلا بعد أن يستسلم للنوم. كانت التسلية التي أعجبتهم، بين جميع تلك التي عرضت أمامه هي قراءة الصحف وقد كانت حافلة في تلك الأيام بالأحداث السياسية؛ وكان السيد كلايس يستمتع بانتباه إلى صهره دي سوليس وهو يقرأها له بصوت عال.

نحو نهاية العام ١٨٣٢ قضى بلتزار ليلة شديدة الاضطراب استدعي خلالها السيد بييركين طبيبه الذي راعه هذا التغير المفاجيء لدى المريض بحيث أن الطبيب قرر السهر عليه خشية أن يقضي في كل لحظة بتأثير نوبة داخلية أخذت تأثيراتها طابع النزاع. كان الشيخ يقوم بحركات ذات قوة مذهلة محاولاً أن يهز أربطة الشلل التي تقيده، إنه يرغب أن يتكلم ويحرك لسانه دون أن يستطيع تشكيل الأصوات، وعيناه الوهاجتان تبرقان بالأفكار، وقسماته المتشنجة تعبر عن آلام مبرحة، وأصابه تحرك بيأس، وقطرات كبيرة من العرق تنضج منه.

في الصباح حضر الأولاد يقبلون والدهم بذلك الوء الذي زادته خشية الموت القريب اضطراباً وشدة لكنه لم يظهر لهم أبداً ذلك الرضى الذي تحدثه عادة لديه هذه المظاهر من الحنان؛ وقد أُنذر إيمانويل من قبل بييركين فأُسرع في فضّ الصحيفة ليرى إن كان في القراءة ما ينسي بلتزار الأزمات الداخلية التي يعاني منها. ما أن نشر الصحيفة حتى طالعه هذا العنوان، اكتشاف المطلق^(١) الذي أثار فيه بشدة، وقرأ على مرغريت مقالاً يتعلّق بقضية بيع قام بها رياضي بولوني شهير للمطلق؛ وبالرغم من أن إيمانويل قد قرأ الخبر لمرغريت بصوت منخفض وطلبت منه مرغريت أن يتجاوز هذا المقال فإن بلتزار سمع ذلك.

(١) الخبر صحيح وهو يتعلّق باكتشاف الرياضي البولوني فرونسكي العائد إلى العام ١٨١٨ لكن بلزك يزيحه إلى العام ١٨٣٢.

فجأة انتصب المحتضر على زنديه وألقى على أولاده المرتعبين نظرة أصابتهم جميعاً كالبرق، كانت الشعرات التي تزين قذاله تهتز وتغضنات وجهه ترتعش ومحياه يتألق بفكرة كالنار ونفحة حياة مرّت على هذا الجبين فبدأ شامخاً سامياً، رفع يداً قد تقلّصت غضباً، وصاح بصوت مدوّ كلمة أرخميدس الشهيرة «أوريكا» (لقد وجدتها) وسقط على سريريه وقد أحدثت سقطته صوت جسم خامد، لقد مات وهو يطلق تنهدة مرعبة، وعيناه المتشفتان تعبّان حتى اللحظة التي أطبق الطبيب عليهما الجفنين عن الأسف لأنه لم يستطع أن ينقل إلى العلم مفتاح هذا اللغز الذي مرّقت عنه أصابع الموت المعروقة الحجاب متأخرة.

باريس حزيران - أيلول ١٨٣٤

* * *

دراسة القصة

بقلم: مادلين آمبرير

البحث عن المطلق... إنه أحد أروع مواضيع الملهاة الإنسانية. ففيه اعتقد بلزك أنه أبدع «موضوعاً كبيراً، رائعاً»^(١) وكان يبدو دائماً مقتنعاً بعظمة عمل يؤثر أولاً على القارئ بفرادته، عديدة هي بدون شك روابط موضوعاته مع الدراسات الفلسفية ودراسات طبائع، غير أنه يمثل الرواية الوحيدة الكبرى في الملهاة الإنسانية التي تدور حوادثها في الفلاندر ويكون بطلها أحد العلماء. لقد صنفت بحق بين الدراسات الفلسفية عند دخولها الملهاة الإنسانية في العام ١٨٤٦.

ظهرت رواية البحث عن المطلق في ١٨٣٤، في سلسلة مشاهد من الحياة الخاصة، حيث يتبرر موقعها تماماً كما أنه يتبرر لو وضعت في مشاهد من حياة الأقاليم، هذه الواقعة وحدها تشير إلى غنى هذه الرواية الفريد، وهي واحدة من الروايات البلاكية المميزة في الملهاة الإنسانية، إذ يمكن أن يرى كل واحد فيها، وفق ميوله، رواية حب سامية، أو مأساة عائلة فلمندية دمرها هوى عصف برئيسها نحو الكيمياء، أو مغامرة خارقة لعالم عبقرى بحثاً عن المطلق، أي تأمل الرجل المبدع في مواجهة العلم والمجتمع.

في قلب الفلاندر، في دوي، وفي منزله الفلمندي النموذجي، حيث تتراكم منذ مئتي سنة الثروات التي جمعتها ستة أجيال، يعيش بلتزار كلايس وريث هذه الثروة حتى العام ١٨٠٩ وهو يزرع أزهار الخزامى في حديقته، والسعادة في عائلته: أربعة أولاد حسني الخلقة، وزوجة دميعة لكنها ممتازة هي جوزفين التي جمع بينه وبينها خلال خمسة عشر عاماً حباً زوجي دون أية أكدار. في مساء اليوم من تلك السنة، للأسف، اندفعت الكيمياء، التي كان قد درسها في

(١) من رسالة إلى السيدة هانسكا.

شبابه على يدي لافوازييه، إلى حياة كلايس بشكل مفاجيء ونهائي، بواسطة ضابط بولوني عابر، هو السيد دي فيرنشونيا، وكفت أمسية هذا الزائر لتحوّل كلايس إلى عالم عبقرى وأب سيّء، لقد نشر، باستغراقه في البحث عن المطلق، أي المادة الوحيدة العامة التي تشترك بها جميع المخلوقات، الخراب والدموع حوله، وقد ماتت جوزفين كلايس المقهورة بهذا العلم المفترس، قهراً وحرزاً؛ ودخلت مرغريت الابنة البكر، وهي أقوى من أمّها، معركة جريئة تخلّلتها مجابهات مأساوية مع والدها؛ وقد نجحت، خلال بضعة سنين، في استعادة الثروة العائلية، لكن حريق المطلق أتى مرّة أخرى على كل شيء؛ مات كلايس بعد أن أفلس مجدداً، مقهوراً وقائطاً؛ إنّما محاط بأولاده الذين استمروا على حبّهم له.

إن الجيل الثمن من ال كلايس قد رمّم ما خرّبه الجيل السابع، فمرغريت قد أعادت لبيت كلايس «بهاء حديثاً يبعد عنه أية فكرة انحطاط»، وقد عاش أخوها وأختها أغنياء سعداء، أمينة على شعارها الذي يمكن أن يلتبس مع شعار هولاندة، «سأثبت» وستستمر عائلة كلاي...

أجمع النقاد على تقرّظ هذا العمل الذي يثير شعور القارئ ويجذبه رليه، ومع ذلك لم يتحرّزوا من توجيه بعض اللوم للمؤلف، ففي الماضي كما في الحاضر، ردّت المآخذ نفسها التي سجّلت منذ نشر البحث عن المطلق. فرؤيا كارو، بعد أن أبدت إعجابها الشديد بسمو هذا الكتاب، تنبأت بلزأك بطراحة قاسية «بأنه سيلاّم لأنه لم يعلّق كبير أهمية على الصعوبات الماديّة في الحياة، وسيكون اللائمون على حق^(١)» وكان توقعها صحيحاً؛ مما دفع بلزأك ليوحى إلى فليكس دافن ليقوم في مقدمة دراسات طليانع، بالردّ على الناقدين الذين يجدون شيئاً من المثالية في الشخصيات، مؤكداً بقوة أن «من مهمة الفنان أيضاً أن يخلق نماذج كبيرة وأن يرتفع بالجمال حتى المثالية»؛ وما فتى، منذ ذلك الحين على التردد بأن بلتزار مفرط في العبقرية، وزوجته مفرطة في الكمال،

(١) من رسالة لزولا كارو إلى المؤلف بتاريخ ١٤ تشرين الثاني ١٨٣٤.

وابنته مفرطة في الوفاء، والعوظف الطيبة تنتصر بسهولة بالغة، ومرغريت تستعيد ثروة آل كلايس بيسر الجنية المجهزة بعصا سحرية، باختصار، كل شيء فائق الجمال؛ وهذه الملائكة الانثوية سواء لدى الابنة، أو لدى الأم، قد بدت لدى البعض طوباوية مثلها مثل علم بلزاك «الذي تبدو معرفته بالكيمياء أقلّ منها بقوانين التراكات وأملاك القاصرين التي ظهر فيها مورثر العقود الذي ابتدعهم غير معرضين أبدأ للرسوب»^(١).

هل يجب إذًا مع البحث عن المطلق الحديث عن الخيال العلمي، وبسيكولوجية قصص الساحرات؟ يوطوبياً أم واقع؟ شعر أم حقيقة؟ هذا هو السؤال الذي تجرّب هذه المقدمة أن تجيب عنه.

I

اختار بلزاك للرواية في طبعة شاربنتيه، العام ١٨٣٩، عنوان: «بلتزار كلايس أو البحث عن المطلق، مركزاً بذلك على دور الشخصية الرئيسة، ذاك الذي أثار الفضيحة، والدمار، والحداد؛ واكن سانت - بوف أول من لَحَ إلى التقارب الخادع بين كلايس والسيمياشي المعروف جيداً سيليانني الذي قصّ في كرّاس نشره: هومس المنكشف، في العام ١٨٣١، كيف توصل بعد سنوات طويلة من العذاب إلى اكتشاف حجر الفلاسفة.

لم يظهر أي دليل قاطع يدعم فرضية الباحثين المتحمسين الذين أرادوا أن يكتشفوا، في محيط بلزاك، بلتزار كلايس أصيلاً؛ وقد أكّد أحدهم أن بلزاك كان يفكر بشخص حقيقي قديم يرتبط بعائلته، وهو البارون ماله دي تروميلي، الذي عاش بعض الوقت في دوي، وعكف على ما يبدو على السيمياء، بينما أراد آخر أن يجد في كلايس عمّاً للسيدة هانسكا الذي انصرف إلى حجر الفلاسفة،

(١) ر. أبلين: «مقدمة البحث عن المطلق» طبعة فوليو ١٩٧٦.

مع تأليفه لدراسة في الكيمياء، قد يكون اطلع عليها الروائي بالرغم من عدم ترجمتها من البولونية؛ وفي فرضية ثالثة فإن كلايس الحقيقي هو أوغوست دومرك الممؤن القديم للجنود والصرفاء، والصديق القديم لوالد بلزك والحالم جسماً وروحاً، على ما يقال، في السيمياء. في صحراء هذه الأبحاث غير المجدية، لم تكن هذه التوقعات إلا سراياً يتلاشى عندما ينظر إليه عن قرب؛ والواقع أن اسماً واحداً من بين جميع الأسماء التي عرضت يستحق أن يشار إليه في معرض الحديث عن كيميائي دوي أو عن عبقريته الفاشلة، هو اسم الرياضي البولوني فرونسكي الذي أثارت قضية الغريبة مع المسمى أرسون الذي باعه كشفه المطلق (الفلسفي) اهتمام الصحف في العام ١٨١٨، وقد مرّ تلميح إلى هذه القضية الشهيرة التي أزاحها الروائي في الزمن حتى العام ١٨٣٢ في كلمة «المطلق»؛ وهو كل ما يمكن معرفته عن هذه الشخصية الغريبة التي أثارت بمغامرتها، للحظة قصيرة بلزك، كما يستدل من تاريخ النص^(١)، ولكن لا يمكن لا بالنسبة لمصيرها، ولا بالنسبة لطبعها، أو شكلها، مقارنتها مع فيروز شفونيا.

لقد نفى بلزك بشدة الرأي القائل بأنه أراد أن يخلق نموذج السيميائي في شخص بلتزار كلايس، وقد كذّب ذلك الزعم الخاطيء بقلم فليكس دافن: «يعتقد البعض وكرّر بعدهم آخرون، بأن أبحاث بلتزار كلايس غايتها البحث عن حجر الفلاسفة، وظهر الشيء نفسه في كلّ مكان بتعبير أخرى. إن النقد لو قرؤوا هذا الكتاب، الذي يستحق كل تقدير، بتمعن، لأدركوا بالتأكيد، أن

(١) باع فرونسكي لزميله وتلميذه أرسون كشف «المطلق» في العام ١٨١٧ بمبلغ ٤٠٠٠ فرنك كميالات و ٦٨٠٠٠ فرنك تقسيطاً يسدّد بمعدّل ٤٠٠٠ ف كل عام. بعد أن التزم أرسون بالعقد في العام الأول وجده باهظ الثمن فامتنع عن الدفع في العام التالي، ووجه إليه فرونسكي رسالته الشهيرة «يستحق ما علمتك آياه المبالغ المتفق عليها. أجب بنعم أو لا. إن أجبت بلا رددت لك كل شيء، وأن أجبت بنعم يجب أن تدفع. وقد خضع أرسون لمعلمه وأجاب بنعم ودفع بعد تلك الرسالة المؤرخة في تموز ١٨١٨.

الغلمندي المثالي هو أسمى من السيميائيين القدامى أو المحدثين، بمثل سمو علماء الطبيعة في عصرنا عن أمثالهم في العصر الوسيط» كما عبّر عن إرادته في أن يكون بطله خارج مجال السيمياء، بحيث لم يذكر ضمن أهداف أبحاثه أيّاً من الهدفين الرئيسيين: «البحث عن إكسير الحياة الطويلة، وتحول المعادن أي صنع الذهب، والواقع أن السيميائيين قد تراجعوا دائماً أمام صنع الألاس، وكانوا يجهلون تركيبه، وكلايس لم يفكر بصنع الذهب، وهو يبحث عن أسرار أكثر أهمية من ذلك، كما يؤكد المؤلف، قد فكر بإمكان الوصول إلى صنع الألاس ببلورة الكربون؛ وهذا يعود إلى مجال الكيمياء، وهذه الطريقة لم يبتكرها بلزاك؛ ففي العام ١٨٢٨، أي قبل ست سنوات من نشر البحث عن المطلق، تمت مناقشات مثيرة في أكاديمية العلوم حول تصنيع الألاس كانت موضع اهتمام الجمهور، فمن أجل تهدئة الخواطر والتوفيق بين الكيميائيين اللذين يتنازعان أسبقية الكشف عن ذلك بالرغم من الفرق بين الطريقتين المتبعتين، فإن الفيزيائي الشهير فرانسوا أراغو قد أبلغ زملاءه في الأكاديمية عن محاولات كيميائي آخر يعرفه، من أجل الحصول على الألاس ببلورة الكربون من هذا الكيميائي، الذي تبين أن اسمه تيلوريه، استمد كلايس، إلى جانب مبدأ هذه التجربة، فكرة اختزال المعادن بواسطة ماكينة مفرغة من الهواء، بينما أخذ عن الكيميائي بولونغ اتحاد الكلور والأزوت، وعن فوركرو وفولكن تحليل الدموع؛ وهكذا نجد، أن وراء كل تجربة من تجارب بلتزار كلايس، اسم أحد العلماء، وإذا كان لا يمكن الاعتماد في مجال السيمياء على أي مصدر حقيقي مقنع، ففي الكيمياء، بالمقابل، نكتشف سريعاً، وكما قال بلزاك «أن الكتاب لا يختلقون شيئاً». إن هذا لا يعني أبداً وجود «نموذج» للبطل البلزاكي بين كيميائي ذلك العصر، إن جميع تجارب كيميائي نوي أصلية، لكنه هو بالذات ليس تيلوريه ولا فوركرو بل ولا أراغو الذي استمد المؤلف بعض ملامحه، كما جميع شخصيات الملهاة الإنسانية، فإن بلتزار كلايس كائن متخيل كلياً،

وقد قال عنه بلزك أنه يمثل «جهود الكيمياء الحديثة»^(١) وفي هذا القول صيغة معبرة، فهو يشير من جهة إلى الطابع التركيبي والنموذجي لكلايس، كما أنه يتضمن من ناحية أخرى معرفة حقيقية لدى المؤلف بالكيمياء، فلماذا التشتت بإنكار هذا العلم على المؤلف، وقد أعطى التأكيد والبرهان على امتلاكه؟ فقد صرح بمناسبة كتابته غامبارا في العام ١٨٣٧: «يجب دراسة الموسيقى... كما درست الكيمياء من أجل كتابة البحث عن المطلق». هذه البنية تؤكد اعترافاته في العام ١٨٣٤: «إن عضوين من أكاديمية العلوم قد علماني الكيمياء سعيًا إلى صحة الكتاب علميًا، لقد جعلاني أصحح مسوداتي نحو عشر إلى اثنتي عشر مرة، وقد وجب أن أقرأ برزيليوس»؛ ووفقاً لكل احتمال لم يكن غي لوساك وشفرول هذين العالمين، كما ادّعي في شهادة شفوية متأخرة واهية، وإنما هما فرانسوا آراغو ومساعدته وصديقه إرنست لوجيه الشاب في حينه، والذي لم ينتخب إلا فيما بعد عضواً في أكاديمية العلوم؛ يستدل من تاريخ النص الدور الذي لعبه فرانسوا آراغو في إنشاء البحث عن المطلق وقد كان مديراً للمرصد^(٢) وجاراً لبلزك؛ وكذلك وبصورة خاصة دور إرنست لوجيه الذي أهده الروائي نسخة من مؤلفه مع عبارة التقدمة المعبرة «إلى السيد لوجيه، دليل على اعتراف المؤلف، القليل الخبرة بالكيمياء، بفضل / دي بلزك» أطلع لوجيه إذاً بلزك على الكيمياء، ودفعه إلى أن يقرأ، من (بين قراءاته، مؤلفاً في ثمانية أجزاء، ترجم حديثاً إلى الفرنسية وهو المفصل في الكيمياء لبرزيليوس، الذي لا يظهر اسمه في الرواية لكنه ذكر في ثلاث مناسبات في المخطوطة. فالمؤلف ينسب إلى العالم السويدي تجربة السيد فيرز شقونيا المتعلقة بنبات القرة - وقد نسخها كما وردت تقريباً - وكذلك تجربتين لبلتزار كلايس، وعموميات حول الأجسام البسيطة وألفتها الكيميائية، وحتى فرضية حول الطبيعة البسيطة

(١) من رسالة إلى هيبوليت كاستل نشرت في «الاسبوع» بتاريخ ١١ تشرين أول ١٨٤٦.

(٢) كان بلزك صديقاً لايماتويل ابن فرانسوا آراغو الميال إلى الكتابات المسرحية وكان يتردد على المرصد حيث يعمل والده، وعن طريقه عرف في السابق قضية فرونسكي.

أو المركبة للمعادن؛ فالفضل بلا مرء يبدو كبيراً، لكنه ليس وحيداً فالمراجع المكتوبة والمصادر الشفهية تتواصل لتقديم الوثائق اللازمة للروائي وتوجيهه إلى المواضيع العلمية الأكثر حداثة كما تبرهن، مثلاً، الاشارات إلى الاختراق الذاتي ووجود الفوسفور في المخ، وهما موضوعان من المواضيع التي كانت تشغل الأوساط العلمية في فترة تأليف البحث عن المطلق.

بمثابرة، كما نرى، يتعلم بلزك لغة العلماء، وتجاربهم، قبل أن يجسّد في بلتزار كلايس تحقّق تقدم الكيمياء منذ لافوازييه، لكننا ننخدع إن رأينا فيه نموذج الكيميائي التجريبي، فالتحليل لا يبدو هدفاً لتجارب كلايس، فهو يسعى باستمرار إلى التركيب؛ كما أن الروائي يؤكّد استهانة كيميائي دوي بالنتائج الهامة التي يحصل عليها ولا ينشرها في الوسط العلمي، لأنه مهتم حصراً بالتحقّق من فرضيته التوحيدية، لذلك كان استنتاج فيرنشوفينا عن تجربة القرّهِ مختلفاً عن استنتاج برزيليوس نصير الثنائية، وبلزك الملتزم بالحرف لا يتقيّد دائماً في استعاراته الأدبية بنصّه، وقد شرح ذلك بوضوح بواسطة فليكس دافن في مقدمة دراسة طبائع؛ وفي البحث عن المطلق يقول دافن «إن المؤلف يطلب من الكيمياء، ماذا فعلت، وإلى أين تسير، لقد تعلّم لغتها، ثم حلّق بضربات قويّة من جناح الشاعر، لتتفتح أمامه الآفاق الواسعة التي تتسلّقها العلوم التجريبية بصعوبة، وقد تسلّح بإحدى هذه الفرضيات المذهلة التي ربما برهن على صحتها يوماً.

هذه الفرضية هي وحدة المادة، وهي فكرة بلزاكية قديمة إذ أنه وهو مؤلف الملاحظات الفلسفية اهتمّ في وقت مبكّر جداً بهذه القضية، «بالكتاب الروحانيين الذين اهتموا بالعلوم، في علاقاتها مع اللانهائي، مثل سويدنبورغ، وسان مارتن، إلخ...» وبالعقريات اللامعة في التاريخ الطبيعى مثل ليبنيتز، وبوفون، وشارل بونه» كما يذكر ذلك في تمهيدته للملهاة الانسانية؛ فبلزك الشاب يطلب جواباً عن مشكلة الخلق، ومنذ العام ١٨١٨ إلى ١٨٣٤ يؤكّد على استمرارية تفكيره بوحدة المادة التي تأخذ في العام ١٨٣٤ شكل معادلة

كيميائية؛ فمن هالثورن المعظم «لذلك الذي يرفع شراعاً من رصاص تغلف قدرته الطموح محراب الأسباب الأولية» إلى البحث عن المطلق، وبعد ذلك بقليل اعترف الروجيريين يبدو حلم بلزك بالقدرة بواسطة المعرفة التي تستمد يناييعها من العلم وعلوم السحر والتنجيم لدى علماء الطبيعة والروحانيين، ولهذا السبب فالسيد دي فيرنشوفينا يستمد اعتباراته عن مثلك التركيب من سان مارتن ويبدو مشرباً بالآراء التي يطرحها جوزيف دي ميتر في أمسيات سان بطرسبرج، كما أن بلتزار كلايس يعكس تصورات سويدنبرغ، أو أنطوان دي لا زال أو إدوار ريشة، حول طبيعة الإنسان والكون وكذلك حول الطبيعة المشتركة لجميع العناصر، وعندما يختار الروائي كيميائياً كبطل له، فمن البديهي ألا يتمكن هذا من البحث إلا عن المطلق؛ فالقضية المطروحة عندئذ هي في معرفة إلى أي مدى ترك المؤلف علماً أصيلاً ثابتاً، كما تدل على ذلك براهين عديدة، لينساق، كما سبق أن قيل نحو بقاع مجهولة من الخيال العلمي.

نلاحظ أولاً أن هذه الفرضية العزيزة على بلزك تحمل سمة عصره. ذلك العصر المولع بالوحدة والتحقق، حيث في العلوم، كما في الفنون والأدب، فإن طموح الرؤيا الشاملة للعالم ولتعبيره الكلي جعلت من جميع المبدعين بحائة عن المطلق. عدا عن ذلك يبدو بصورة خاصة من المهم الإشارة إلى أن السيد دي فيرنشوفينا يتحدث قبل الكيميائي جرهاردت بعشرين سنة عن «الكيمياء الموحدة»، فالتيار الموحد في العلوم، منذ بداية القرن، ظهر بحمى خاصة لدى الكيميائيين الفلاسفة، هؤلاء المفكرين المهتمين بالتركيب الذي تطرحه مشكلة الخلق بتعابير كيميائية؛ فليس من قبيل الصدفة أن نلاحظ في بداية أوام ضائعة، لوسيان دي رومبره ودافيد سيشار يقرأ أن معاً برزيليوس وداقي، ومن المؤكد أن بلزك كان يفعل مثلهما؛ فكيف لا يفتن بميل الكيميائي الانكليزي الوجدوي، مؤلف عناصر الفلسفة الكيميائية، الذي يؤمن ببساطة الوسائل، ويفكر أن العديد من الأجسام البسيطة تمثل أشكالاً مختلفة لدرجات تكهرب متغيرة للمادة نفسها؟ فنظريات ومحاكمات فيرنشوفينا، في معظمها،

مستمدة من دافى، الذي يبدو كالشخصية البلزاقية مقتنعا بالفرضية الموحدة التي تتلاءم كلياً مع الاعتقاد بالله الخالق المبدع.

إن بلزاق كما يبرهن تلميحه إلى الكيمياء الحديثة التي تلخص الخلق بواسطة الغاز^(١)، عرف انطلاقة أخرى للكيمياء الموحدة تعود في العام ١٨١٦، إلى تجارب العالم الانكليزي وليم بروث الذي أشار إلى أن الهيدروجين يمكن أن يكون القاعدة المشتركة لجميع العناصر. كما أنه تتبع دون شك عن قرب أيضاً أعمال أشهر الكيميائيين الموحدين في ذلك العصر وهو جان باتيست دوما، المعجب بدافى وصديق أراغو الصدوق المقدر في آن واحد في المجتمع العلمي والمقرط في العام ١٨٤٢، من قبل هورتنسيوس فلامل مؤرخ السيمياء باعتبار «أنه الأكثر تقدماً بين كيميائنا المعاصرين». كما أن دوما في كتابه دروس في الفلسفة الكيميائية في ١٨٣٦ يخصص فصلاً عن سوينبرغ ويلمح عند ذاك إلى «سرافيتوس سرافيتا للسيد دي بلزاق».

هكذا يجسّد بلتزار كلايس فعلاً «جهود الكيمياء الحديثة» ليس فقط نتائجها، وإنما أيضاً تطلعاتها، وفرضياتها، التي قد تصبح يوماً حقائقها المبرهنة. من المؤكد أن هذه اللغة قد اعترها القدم، وقارىء هذه الأيام يمكنه الابتسام بسخرية وهو يرى بلتزار يمدد العواطف كمادة اتيرية تنطلق، أو يتكلم عن حالات مختلفة من الكهربائية حيث نتكلم نحن عن اختلافات طول الموجات؛ فهذا لا يمنع أن يؤكد العلم كثيراً من تجارب وأفكار بلتزار كلايس، وأن يظن أحد الباحثين في مخبر معهد البوليتكنيك في العام ١٩٦٠ أنه قد ابتكر إحدى تجارب الكيميائي البلزاقى، وأن يعتبر المبدأ الذي أوحى إلى هذا العالم بـ «استخدام الحرارة الشمسية بواسطة ماكينة هوائية هو نفسه الذي وجّه إلى تحقيق الفرن الشمسي في مون لويس، كما أن في أيامنا هذه يستعمل حقل مرايا في أوديليو من أجل قرن شمسي كبير وُضع في محرقه مرجل، قبل أن نتأكد في الغد نجاحات الترموديناميك الشمسي؛ ليس في ذلك برهان على أن

(١) التي تظهر في رواية فلسفية أخرى لبلزاق هي «جلد الحب».

بلزاك كان على حق ليحامي عن القضية العلمية كما اعترف بذلك أخيراً النقد المعاصر الذي يضيف حتى في تشبثه بالحديث عن الخيال العلمي «لننتبه مع ذلك إلى أن مثل هذه التأكيدات على وحدة المادة تتجاوب حالياً مع صدى حديث، حيث يبدو أن حدس سويدنبرغ عن حقيقة العالم غير المنظور يتثبت بتجارب إيجابية.

عالم أصيل، ومؤلف تجارب هامة وشخصية نموذجية تتجسد فيه نجاحات الكيمياء الحديثة هو بلتزار كلايس؛ أيكون هو أيضاً نموذج المبتكر الذي جرب بلزاك عبثاً رسم عذابات، منذ العام ١٨٣٢، حينما اختار له بطلا برنار باليسي. من الفكرة لا تتفتح هنا غير مظاهر «الآلام» وليس الابتكار، فكلايس المنطلق في البحث عن سرّ الخلق، هو رجل عبقرى، مُنح كجميع الكائنات السامية في الدراسات الفلسفية، مظهراً «خارقاً» يعبر عن سموه. هكذا يظهر أولاً في عيني القارئ كشخصية خارقة، أخاً، في الدراسات الفلسفية لأولئك البّاحث عن المطلق الذين يسمون في الموسيقى غامبارا، وفي الرسم فرنهوفر. فوقّ خطواته التي تسمع قبل رؤيته تسبّب قلقاً للقارئ يتزايد ظهوره المفاجيء في قاعة الجلوس الهادئة من البيت الفلمندي. عن هذا الرجل ذي الوضع المهمل، والنظرة الشاردة، والهيئة الجامدة، والصورة الأكثر بعداً عن التناس مما نعتقد يقول بلزاك: «يجب أن نفسّر ببعض التفرد في الوجود أسباب هذا الشكل الخارق». إن كلايس يشبه بشكل غريب الرسام العبقرى في التحفة المجهولة، فرنهوفر، الذي يشبه «لوحة لرامبراندت تسير صامتة» بيدو لنيكولا بوسين^(١) كعبقرى خارق يعيش في بيئة مجهولة.

هذا الشخص الخارق يأتي من انكلترة أو من ألمانيتها؟ هل هو كلايس منفرد جديد أو ملموث جديد؟ إذا لم نتأكد إلا من ذكرى ملموث، ولا ترد ذكرى المغامر البولوني بشكل عابر في خاطر مؤلف البحث عن المطلق، فإن توازياً بين مصير الكيميائي الدويزي^(١) ومصير ملموث الذي فقد روحه وهو يبحث عن (١) نسبة إلى دوي في الفلاندر.

سرّ الكائن لا يبدو مقنعاً حقاً، فكلايس بشعره الذي يتدلّى بشكل مهمل على كتفيه «على الطريقة الألمانية» وفقاً لما يذكره بلزك، يذكر غالباً بشخصيات قصص هوفمان، فرتوس في «الغبطة في اللعب» والسيميائي في «مصرف فرعون» أو ما هو أكثر جلاءً المحامي، والدناتانيل في «الرجل على الرمل» الذي يعتبر فيرزشوفنيا - كويليوس الباعث له. لكننا نلاحظ، مع ذلك، سريعاً أن التشابه يبقى خارجياً تقريباً، وأن البطل البلزكي له بعد آخر لا يتمتّع به أولئك الشاردون أو الغريبو الأطوار الذين يعيشون في الوهم أو في الكابوس. إنّه أقرب في الحقيقة لفاوست غوته منه لشخصيات هوفمان. وفاوست في حجرة السيميائي، وقد شدّد عليه الشوق للانهاثي، يحلم بشجرة العلم، ويأمل أن يعيش حياة الآلهة وهو يستنفد قوّته الخلقة.

إن مطلب أبطال الدراسات الفلسفية، فرانهورف، أو غامبارا، أو لامبر، أو روجيري، أو بلتزار كلايس يتماثل مع أمل فاوست لكنه يذهب إلى أبعد من ذلك أيضاً. فشروود هؤلاء الرجال يتفسر بتأملات غامضة، غائبة عن عالم النتائج، وموجودة في عالم الأسباب، «النتائج! النتائج! إنها الطوارئ في الحياة، وليست الحياة» فالتغلغل في سرّ الحياة يتطلب في رأيه الكشف عن خفايا الطبيعة. وهذا هو هدف تجارب كلايس، أحد المفكرين العمالقة الذين يعيشون في جوّ الأسباب التي عاش فيها عمالقة آخرون مثل كيبلر ونيوتون ولا بلاس وعلماء إبداع آخرون. لهذا السبب تتجاوز حالة هذا الخارق القدرة الخارقة المنسوبة خطأً إلى أمثال منرد وفاوست وملموث: إنّه النتيجة التي يسمى سببها عبقرية.

كان بلزك ذاته يقول: «بين فاوست وبرومثيوس» أفضل برومثيوس وباحثه عن المطلق هو ابن برومثيوس، وهو يريد أن «يعرف قبل أن «يقدر» وفي الدقيقة الأخيرة من حياته «يعرف»، إن مؤلف الملهاة الإنسانية يعتقد أن رجل العبقرية، هذا العراف يمكنه أن «يرى» سرّ الخلق، وهو يعطي هذه الميزة إلى بطله، عملاق العلم، لكن الحجاب يتمزق متأخراً جداً بحيث أن كلايس في اللحظة التي

«يعرف» فيها، لم يعد «يقدر» أبدأ بها، وهذا ما أدركه جيداً تيوفيل غريته: «في الاحتضار وجد الصيغة التي بحث عنها بكل جدٍ ولكن عبثاً، ثم يهزّه تشنج أخير تحت الأغشية المدعوكَة في سريره. ويفقد إلى الأبد سرّه».

بعد سنة من «البحث عن المطلق» يصوغ في سرافيتا الدرس المرير التالي «إن الرجل الذي يتصوّر اللانهائي بذكائه لا يمكنه أن يحركه بشكله الكامل، وإلا لأصبح إلهاً».

يموت لكلايس إذاً، مقهوراً وقانطاً، في خاتمة حياة عظيمة وبائسة، وفي النهاية خائبة، فهو مجهول من الوسط العلمي إذ لم يعلم أحداً بالتجارب الناجحة التي أنجزها، والنتائج الهامة التي حصل عليها لكنه استهان بها إذ انصرف كلياً إلى المطلق الذي أصبح الهدف الوحيد لأبحاثه، وإذا استرجع الرشد ووجدت عيناه لغتهما من الضوء، فإنه قد غرق لسنوات طويلة في الجنون؛ فهل يسبب العلم الجنون، وهل يدين بلزак العبقرية؟

إن ارتباط فكرتي الجنون والعبقرية في الملهة الإنسانية يبدو صريحاً، ولكن هل هي رابطة سبب بنتيجة؟ هذا غير مؤكّد. في البحث عن المطلق، يردّ: «بالنسبة للعوام، تشبه العبقرية الجنون» وفكرة الجنون تتسرّب بشكل طبيعي إلى العبقرية حتى أنها تلتبس معها؛ وهي لأوّل مرّة بشكل سؤال قلق: «هل أصبح إذاً مجنوناً؟ تساءلت جوزفين بهلع وهي ترى زوجها. ثم أن بييركين موثق العقود رأى في تعبير تعجّب بسيط لكلايس «أثر الرشد الذي يبيده منذ ثلاث سنوات»؛ وخلال حفل العشاء الذي عاد فيه رجل مجتمع ورب عائلة، فقد ظهر الكيمائي، كما يقول بلزак «شبيهاً بأولئك المجانين الذين تمرّ عليهم لحظات تتألق فيها قدراتهم ببريق نادر». إن هذا ليس إلا تشبيهاً، لكنه يسبق عن قرب التمثّل الكلي، فمرغريت تعلن لأبيها أنها ستكافح «جنونه»، وبلزак يعطي من الآن وصاعداً لشخصيته «ابتسامة الجنون»، وتصرف المجنون، فالأمر يتعلّق «بمرض» حقيقي يدرس الروائي بدقة سريرية ولادته ومراحله.

يرد في رواية ألبر سافاروس، بمناسبة الحديث عن البارون دي

واتفيل وهوايته في المجموعات «أن الأطباء الفلاسفة المنصرفين إلى دراسة الجنون، يعتبرون هذا الميل إلى الجمع هو الدرجة الأولى من الخلل العقلي، عندما يتوجّه نحو الأشياء الصغيرة». في عداد هؤلاء الأطباء الفلاسفة يجب بكل تأكيد اعتبار اتين جورجيه، وهو طبيب من تور، وقد نشر في العام ١٨٢٠ كتابه الهام عن الجنون حيث يتسلّط الضوء بصورة خاصة على حالة بلتزار كلايس. قبل أن يتعرّض جورجيه لتطوّر المرض، فإنه يبحث عن عوامل الجنون، ويميّز من جهة الأسباب المهيّئة، مثل العمر، والوراثة بصورة خاصة، ومن جهة أخرى الأسباب الفاعلة أو الموجبة التي تحرّض المرض. دون الإصرار هنا بشكل مطوّل على التوافق الملفت للنظر الموجود بين رواية بلزك والكتاب المفصّل في الطبّ، وهو توافق تشير إليه ملاحظات هذه الطبعة بتفصيل دقيق، ومن الهام الإشارة إلى أن بلتزار كلايس، وهو على ما يقول بلزك، وريث سلالة من الأسلاف لكل واحد منهم «هوسه»، مهياً بالوراثة والعمر لجنون، «سببه الفاعل» هنا هو زيارة فيرنز شوفنيا. وتطوّر الداء، في كل نقطة يطابق، في عدم انتظامه، وصف الطبيب، ويسبّب تناوب أطوار الإثارة والانحطاط ويضم عندما يصل إلى الذروة الأنواع الخمسة المحتملة من الخرف: العته؛ والهوس، والهوس الأحادي، والبلادة واختلال العقل؛ وفي المرحلة الأخيرة أعلن عن الشلل الذي أصاب بالدرجة الأولى عضلات اللسان، لكنه أفسح المجال أمام المريض للعيش سنة أو سنتين آخرين، فوضع بلتزار كلايس، كما يرى، «مثالي» من الناحية الطبيّة، فقد تعرّض الكيميائي إلى «هوس أحادي علمي» وهو أحد أشكال الجنون الذي يبدو كأنّه نزعة عبقرية وليس نتيجة محتمّة لها.

يقول تيوفيل غوتيه: «يلاحظ أن الفكر لدى هذا الرجل يصارع الهوس الأحادي وأنه يسير على الحدّ الضيق الذي يفصل العبقرية عن الجنون» فليست العبقرية هي التي تجعله مجنوناً وإنما الكبرياء. ومؤلف المفصّل في الجنون يلاحظ أن أكثر أنواع الهوس الأحادي ظهوراً يستمد مصدره من الكبرياء، في فكرة الاعتقاد بأنّه إله، أو ملك، أو نبي. وهكذا بلتزار «فقد أعماه هواء» كما

يحدّد بدقّة بلزّاك، فلقد أوحى إليه الشيطان كما فكرت جوزفين كلايس عند رؤيته، إنه يريد «أن يكرّر الطبيعة، وأن يكون فوق الرجال الآخرين، فوق الجميع».

إن غموض الفكرة البروميثية في الفكر البلزّاكي يجد تعبيره الكامل في فكرة النار وهكذا فتحت دلالة النار يضع الروائي بلتزار كلايس ومصيره، فمنذ أن يظهر الكيمائي في قاعة الجلوس حيث تنتظره زوجته، يتحدث الروائي عن «النار السرية» التي تجفف جلد وجهه والهرب الذي يفترس روحه، ثم تعرّض بعد ذلك إلى المحرق الداخلي «لذكائه الواسع، ويجعل وجهه يتألق تحت «نار العبقريّة». هذه النار التي توجّع أبحاث بلتزار، تحرقه بعد ذلك، بعد أن قتلت زوجته، واستهلكت ثروته. في بيت كلايس تمرّ فكرة المطلق في كل مكان «وكأنّها الحريق»؛ فهذه النار البروميثية آتية من السماء أم من الجحيم؟ في التحفة المجهولة يتحدث فرنهوفر عن «نار سماوية» بمناسبة مشعل بروميثيوس الذي انطلق أكثر من مرّة بين يدي پوربوس. ولزّاك يظهر تعاطفاً واضحاً مع كلايس، فيروميثيوس والجحيم يبدوان مختلفين في ذهن السيدة كلايس التي تشبّه بالشيطان زائر المساء الغامض الذي أمكن ظهوره لمدة قصيرة أن يدمر إلى الأبد طمأنينة بيت، وتوازن سعادة كاملة، وأن ينتزع رجلاً سامياً من واجباته كزوج وأب ومواطن «إن إبليس المغري وحده له هذه العين الصفراء التي تخرج منها نار بروميثيوس» هتفت قبل أن تعلن الشيطان والهوى المسيطرين على زوجها: «نعم إن الشيطان وحده يمكن أن يساعدك على السير وحيداً وسط هذه الهوة التي لا مخرج منها، وهذه الظلمات التي لا تستنير فيها بإيمان علوي وإنما باعتقاد رهيب بقدراتك.»؛ فأغراء النار، بالنسبة إليها يأتي من الجحيم والشيطان هو الذي أرسل أحدي جنّياته لتوحي لكلايس بفكرة البحث عن المطلق وهي شقيقة اغواء بروميثيوس.

هذا الغموض في فكرة اللهب يعود إلى الوجود المتزامن لدى بلزّاك لهاتين المسلمتين المستمدتين من بوداير: «الرعب والوجد». الرعب لأن العبقريّة

غول يفترس كل شيء، ولكن وجد أيضاً واقتتان أمام هذه الكائنات من اللانهائي، هذه البطارس التي تمنعها أجنحتها العملاقة من السير. «إنّه يمشي ورأسه في السماء، وقدماه على هذه الأرض، إنّه طفل، إنّه عملاق هكذا عرّف بلزك منذ العام ١٨٣٠ الفنان رجل العبقرية.

هذه الفكرة المضاعفة عن سمو الفكر وضعة الحياة العادية التي نجدها غالباً في الرسائل إلى السيّد هانسكا تجد تعبيراً جديداً في شخصية بليزك ككلايس الذي يشبه في بعض الأحيان بشكل غريب مبدعه؛ فبليزك لا يكتفي بأن يعبر بطله تلك البرّة الزرقاء الجميلة ذات الأزوار الذهبية التي يبدو أنه كان جدّ فخور بها في ذلك العصر؛ ففي المرأة التي تعكس وجه كلايس العملاق بالفكر، الطفل في السلوك ضمن الحياة اليومية، تبدو الصورة الذاتية للمؤلف التي يتأملها أحياناً حتى أن الباحث عن المطلق في بعض اللحظات العابرة يتوحد مع المؤلف. وكما يقول فليكس دافن بالحاح: «نحن هنا بعيدون علناً عن الفكرة القائلة إن الانسان الذي يفكر هو حيوان قاسد».

إذا كان يبدي نحو كلايس تعاطفاً أكيداً، وإذا كان يمثله أحياناً وكأنه ضحية لا إدراك البشر، فهل يعذر بليزك بطله على حساب المجتمع؟ وهل يعود الوضع المفجع لكلايس إلى أنه يقوم بأبحاثه لوحده وعلى نفقته؟ أهو شهيد لا خطأ له إلا أن المجتمع قد حكم عليه؟ هل يجب إذناً إدانة «التضاد الذي لا يقهر، في وضع اجتماعي معين، بين مستلزمات البحث العلمي ومستلزمات الحياة في المجتمع» وتتصور باحثاً ككلايس سعيداً في مخبر يحيط به فريق من الباحثين، وقد غمر بالاعتمادات اللازمة؟ هذه فرضية سمحة يمكن أن نؤمن بها.. أو لا نؤمن؛ وبليزك من جهته لا يؤمن بها فهذا الايمان في منظور البحث عن المطلق يعني تبسيط الصراع العملاق بين الانسان والطبيعة وإنكار الفكرة الكبرى عن الكبرياء التي تجوب العمل بكامله، والامتناع عن سماع صرخة بليزك «... أنا وحدي!» إن الروائي يلوم الكيميائي لأنه سمح للهوى أن يعميه؛ فعندما أخذ بحثه المحرّض بالكبرياء، شكل الهوى، وعندما ضلّ الذكاء لديه،

وَقَّت بالنسبة للعالم العبقري ساعة الانحطاط، وبدأت عندئذ سيورة الفكر البطيئة التي تقتل لأنها أصبحت سماً. وهكذا أصبح يلتزار كلايس إشهاراً كاملاً للمبدأ الذي توسّع كل دراية من الدراسات الفلسفية البرهنة الموضحة له بدقة علمية: ... إن الفكرة المدعومة بقوة عابرة ممنوحة من الهوى، تصبح بالضرورة بالنسبة للانسان سماً أو خنجراً^(١).

إذا فالروائي لا يدين العبقرية وإنما الهوى يعتّم عليها ويحرقها، والمفهوم البلزاعي للعبقرية يتسم بالتاكيد بسمة الرومانسية التي تربط بلا انفكك مقولة العبقرية بمقولة القدر واللعنة، لكنها تعكس خاصة، عدا اليقين الشخصي بعبقرية فردية بصورة رئيسة، وجهة نظر المؤرخ والأخلاقي ومعرفته بالتاريخ والانسان، والطبخ الفرنسي، والطبيعة البشرية.

عن السؤال: هل كلايس على حق، أو على خطأ؟ فإن جواب بلزاك يرفض التخيير ويبدو إيجابياً بشكل مضاعف، كما غي الرواية. وفي شرح إيمانويل دي سوايس لمغربيت «إن أباهما إن كان على خطأ كرب عائلة... فهو على حق علمياً» أما إدانة كلايس بعد أن أصبح في هوس أحادي، فبلزاك يعبر عنها بصراحة في هذا المظهر من الشخصية الذي يغطي كثيراً على مظهر الرجل العبقري في مخطوطة البحث عن المطلق المتصورة في البدء كمشهد من مشاهد الحياة الخاصة.

III

أخذ كلايس ينقطع شيئاً فشيئاً عن الحياة في الدنيا بعد أن وهنت قواه جسدياً، وضعف فكراً، حتى أن قلبه قد انكمش، إن صحّ القول؛ فبتتحيه عن دوره كرب عائلة وأب وزوج، أصبح في تصرفه تجاه عائلته بمثابة طفل جائر ولا مسؤول، وكجميع المصابين بالهوس الأحادي، يتصف بانثانية البخل والغافل

(١) من مقدمة الدراسات الفلسفية.

الأكالة، ومثلهما يسبب النكبات البيتية؛ والروائي بوصفه الدمار الذي تحدثه الفكرة الثابتة، ليس فقط على صاحبها، وإنما أيضاً على محيطه العائلي والاجتماعي، قد سجل في البحث عن المطلق دراسة عن الطبائع بقدر ما هي دراسة فلسفية، وفجاجة مالية، ومأساة حب.

تلعب الفوائد المادية، وقضايا الثروة دوراً أساسياً في الرواية، لكن المال لم يشكّل في أية لحظة هدفاً رئيساً في تجارب كلايس، وقد عرفناه مستعداً أن يرمي في بوتقته، بلا مبالاة كاملة، بدانقه الأخير؛ وإذا كان قد اعتقد أنه اكتشف طريقة لصنع الألباس، فذلك «بتفتيشه عن كشف أسرار أهم من ذلك بكثير»؛ وإن كان قد تحدث إلى ابنته بأنه سيملا غرفة الجلوس ألباساً، فإنه يؤكد «أن هذه ترهة» بالمقارنة بما يسعى إليه؛ وعندما يجد في مخبره، بعد عودته من المنفى، ألباساً، فإنه يحرص على أنها ليست الحلّ للقضية التي يعمل لجلالها.

يبدو ارتباط المال بأبحاثه طبيعياً لا يمكن تجنبه، ويدهي أن يفكر الكيميائي الفلمندي أن كل الثروة المهذورة من جراء أعماله والمنتزعة من العائلة يجب أن تستعاد وأن التوازن الوراثي يجب أن يسترد؛ لكن المال، بصورة خاصة، كوسيلة يبدو مرتبطاً بشكل وثيق بحلمه في القدرة وبأمله الذي لا يرتوي.

كانت امرأته هي الضحية الأولى في هذه المأساة المؤلة؛ هي صورة جديدة لمقولة تتردّد في الملهة الإنسانية: مقولة المرأة المهجورة التي تتمثل في بطلات عديدات: اوغوستين دي سومرفيو، أوكلير دي بوسيان، أو هنرييت دي مورتسوف هؤلاء الأخوات في الشقاء، المندورات للصمت والدموع، يصبن بالكآبة من يحيط بهن، في إطار يتناسق مع حداد قلوبهن؛ فأشعة الخريف الحزينة التي تنسكب على سرير موت بطلة جنة الرمان مشابهة لتلك التي تغمر صالة الجلوس القاتمة والحزينة في منزل كلايس حيث تحتضر، في يوم من أيام الشتاء جوزفين كلايس المنبوذة.

هذه المخلوقات الناعمة التي تطفئ بالدموع بسمات الأطفال، والتي تبدو

عصية على كلّ عزاء توحى لبلزاك بقصائد تنفطر لها القلوب، وبلوحات مشجية، فلا الأمومة تنقذ السيدة ويلمسنس، ولا هنرييت دي مورتسوف، الزنيقة في الوادي، ولا أغات دي بناسيس، التي تمكنت في عاطفة الأمومة أن تصمد ضد الشقاء، ولكن ليس ضد أشدّ الأكدار تأثيراً «الهجر»، كما أنها لا تنقذ أيضاً جوزفين كلايس البائسة، التي لا يسبّب لها أولادها أية رعشة أو رهبة، فهم تعزيتها، لكنهم ليسوا حياتها، إنّها تحيا بهم، لكنها تموت من أجل بلتزار، فإيمانها الحار، وتقواها الاسبانية لا يسمحان لها أن تصمد وقتاً أطول في الهجر، لأن الحبّ يمثل بالنسبة لها مبدأ الحياة ذاته. وقد قال بلزاك ذلك بوضوح تام «هذا التبادل المشترك لسعادة تتناوب متدفقة أطلقت بشكل ظاهر مبدأ حياتها خارج نفسها....».

على عتبة الموت تصرّح السيدة كلايس لزوجها: «... ما حييت إلا بحبك وقد سلبتني دون علم منك الحياة».

إن الأمر هنا يتعلّق بظاهرة أشبه بظاهرة التنفّس، كما شرح ذلك بوضوح فائق مؤلف أوجيني غراندة: «في الحياة الروحية، كما في الحياة الجسمية، يوجد شهيق وزفير: فالروح تحتاج إلى أن تستوعب عواطف روح أخرى، وأن تتمثل هذه العواطف لترجعها أكثر غنى. بدون هذه الظاهرة البشرية الرائعة لا حياة للقلب؛ فالهواء ينقصه عندئذ، فهو يعاني ويدبل».

يجب الاعتراف أن السيدة كلايس قد عرفت أولاً خمسة عشر عاماً من الحب الكامل، فقد كان بلتزار عندئذ يضع من أجل رعاية هذه السعادة الزوجية كل سمو روحه، وتعلّقه «الفروسي» لم يتخل أبداً عن مظاهر الهوى من أجل هذه المرأة الدميعة، العرجاء والحدباء، وهذا ما قد يدهش، لكنه يمثل بالنسبة للروائي «المطلق» في الحبّ: فبعد أن فكر أولاً كما يتبين من المخطوطة أن يجسّد في جوزفين كلايس مثال الجمال الفلمندي، تراجع بلزاك عن ذلك لمصلحة فكرة كانت تراوده منذ سنوات عديدة، وهي «حبّ دميعة»؛ وهي فكرة توافق الذوق الدارج، بالتأكيد، لكنها بصورة خاصة، وبالنسبة إليه، موضوع مثير، تدعوه إلى التفكير

فيه أمثلة شهيرة من التاريخ والحياة؛ فنولاً كارو تقول عن نفسها «إنها دميمة وقصيرة وعرجاء»؛ ففي مجال الحياة الخاصة، كما في مجال الكيمياء، «لم يخترع المؤلف شيئاً، فالى جوزفين كلايس تعبير نولاً بعض العيوب الجسمية، وبدون شك أيضاً حلمها بحبٍ مطلق لرجل عبقرى، بينما من أجل أن يصوّر بلزك وضع بطلته الحزين، في الصفحات الأولى من الرواية، لم يكن عليه إلا أن ينظر إلى ما تعانيه السيدة الرقيقة كاميل دي مونتو، الابنة الوحيدة للسيدة الطيبة ديلاونا التي قدّم لها المؤلف في العام ١٨٣٩ «البحث عن المطلق»، ففي ربيع ١٨٣٤، صممت السيّدّة دي مونتو، بعد عشر سنوات من زواج حبّ، أن تطلب فصل أموال الزوجين، إذ أنه الطريقة الوحيدة لوقف سيل تبذيرات زوجها ولحماية مستقبل أطفالها؛ وقد قال الروائي إن السيدة كلايس «حملت بطفلها الأخير وسط تعكر صفو غامض» وكان هذا هو الوضع الشاق لكامل دي مونتو التي وضعت طفلها الرابع في مطلع صيف ١٨٣٤، بينما كان بلزك يكتب روايته، والمرأة الشابة التي بدت في المحنة أشدّ قوّة من السيدة كلايس، ماتت مع ذلك، فريسة الحزن، بعد ثلاث سنوات وبعد أن برهنت في وصيتها، على أنها أم متألّمة وزوجة «سامية»، وأعطت الدليل الفائق على مدى الحبّ الذي لم يتوقف يوماً تجاه زوجها.

إن السيّدّة كلايس ليست بالتأكيد نولاً كارو ولا كاميل دي مونتو، لكن يلاحظ، مرة أخرى، كم تغذّي الحقيقة الخيال، وكيف أن بلزك، في مطلع هذا الصيف من العام ١٨٣٤، حيث أحلامه العاطفية ملوّنة بالأمل، قد خلق نموذج الزوجة السامية لرجل العبقرية؛ فجوزفين كلايس هي حبّ كلّها، وهي تمتلك إلى أعلى درجة الترفّع والتضحية «وهما قد يكونان عند المرأة قمة الحبّ»، كما إنّها لا تجهل شيئاً من أسرار فن النظرّف أو علم الإسعاد، وهي تقدم التوافق الاستثنائي بين خضوع الفلمندية وبين هذا الحماس المشوب بالتقوى الاسبانية التي لا تنفصل أبداً عن الايمان بالحبّ، ولا تفهم أبداً العاطفة بدون آلام» فالحب، بالإجمال، «هو مطلقها»، وهذان الباحثان عن المطلق اللذان يتكامل

سمّوهما، لكنه لا يتماثل، يعيشان حباً زوجياً ليس مستبعداً أبداً، إنّما مثاليّ. مع ذلك انكشف هذا الحبّ قتلاً، فجوزفين كلايس البائسة، وقد هجرت من أجل العلم عرفت لسعة الغيرة. وجريت عبثاً أن تنافس إغراء أروهاب الخصوم، لكنها تترشح سريعاً في هذه المعركة غير المتكافئة، وتسام الحياة، إنّما تهتم بأن تحمي، حتى ما بعد الموت الرجل الذي أخلصت له الحب، وتموت دون ندم من أجل جلادها، صورة فاتنة للكمال؛ فالأب دى سوليس يقول: «إنها تقريباً دون خطيئة»، وهذا التقييد على خفته يبدو مستغرباً من القارئ، أ تكون هذه الضحية، وهي ملاك في رقتها، بطريقة ما، مذنبّة؟ لقد ضحت، في الواقع، وهي الزوجة أكثر منها أمّاً، بأولادها من أجل الحب الزوجي؛ هذه الفكرة التي أدخلت في الأشهر الأخيرة من حياتها شعوراً بالندم والاستغفار؛ فقد دخلت واجبات الأمومة في نزاع مع الحبّ الزوجي، وكما السيّدّة جول في تاريخ الثلاثة عشر، فإن السيدة كلايس، في لحظة ما، تمكّنت أن ترى في الأمومة عائقاً أمام الحبّ فقد قالت هي نفسها لبلتزار، إن على الرجال العظام ألا يكون لهم زوجة أو أولاد.

هل تجسّد إذا زوجة هذا العالم العبقري، في عيني الروائي كل بلوى الحب؟ كلا، إذ أنها قبل أن تكتشف كل البلوى، عرفت كل السعادة في الحب، مما يعني أنّها قد أتمت قدرها كامرأة. «ففي فيض السعادة يكمن الشقاء الخارق» هذا القول للويس لامبر، يجد في السيدة كلايس إبانته الكاملة، أليس معبراً أن نتبين، بواسطة دراسة بنيوية لفظية أن مفردات الحبّ السعيد تزيد كثيراً في تواترها عن مفردات الدموع والألم والحبّ المتعيس؟ نعم فمع البحث عن المطلق، كتب بلزاك نشيد حب زوجي «مطلق».

السيدة كلايس سامية إذاً، وأولادها، كل أولادها نموذجيون وخاصة مرغريت؛ وهي أضعف من أن تحمي أولادها أمام العلم الأكال، فتجد نفسها تبعث في ابنتها، هذا الملك المحبّ والقوي، الذي أراد الروائي أن يجسد فيه، في مشروعه البدائي، نموذج «تفاني الشباب»؛ فمرغريت تقاوم والدها، فهي

سليمة كلايس، وفلمندية تشبه جسمياً، بشكل ملفت للنظر، مرسلين دبورد - فالمر، كما رسمها في شبابها عمّها كونستان دبورد، وهي تمثل خاصة، وفقاً لبلازك، نموذج شابة تلك البلاد، فقد كتب إلى أخته لور سورفيل التي أخذت عليه طبع الفتاة المبالغ في «مثاليته»: «كلا، ليست مرغريت فتاة متكلفة، إنّما هي فلمندية».

IV

إذاً باسم حقيقة السجاي والطبائع في مقاطعة، يبرّر الروائي سلوك مرغريت كلايس؛ فهي «فلمندية»، كأسلافها، كوالدها باسمه الفلمندي النموذجي، في بيت فلمندي نموذجي، في قلب دوي، حيث كان يجتمع في السابق برلمان الفلاندر، وبداية، أراد بلازك أن يجذر تاريخ آل كلايس في واقع جغرافي محدّد جيداً، والحال أن الصحيفة الدويزية «مذكرة السكارب»^(١) قد اعترضت على صحة الموقع الممثل، فقد نشرت في ١١ تشرين أول ١٨٣٤ هذه الملاحظة القصيرة: «نشر السيد دي بلازك رواية عنوانها المطلق تدور أحداثها في دوي، بقراءة المؤلف نشعر بالأسى للملاحظة مدى غربة المؤلف عن المنطقة، وأنه لم يستشر الأشخاص المؤهلين لتقديم المعلومات التي تنقصه عن الأمكنة». الواقع أنّه إذا كان يبدو من المؤكّد تقريباً أن بلازك لم يتجوّل يوماً في شوارع دوي قبل أن يكتب البحث عن المطلق، فمن المعروف بالمقابل أن كان له في باريس، من بين أصدقائه، فلمنديون أصلاء مثل س. ه. برتو الذي يعرف بيته المتميز بفلمنديته؛ ومرسلين دبورد - فلمور وابن عمها النّحات الدويزي تيوفيل برا، وقد تركت الشاعرة باريس إلى ليون في نيسان ١٨٣٤، لكن بلازك كان ي كاتبها، وعدا عن ذلك احتفظ بعلاقات غير منقطعة مع برا، بل انه استمدّ كثيراً من هذا الفلمندي الفخور دائماً بمسقط رأسه، والمستعد دائماً للقاء أخوته أبناء الفلاندر في حفلات عشاء جماعة «أبناء غايان»^(٢).

(١) سكارب: نهر في شمال فرنسا.

(٢) غايان: بطل اسطوري فلمندي يقام له احتفال في دوي يتمثل بصنع تمثال له من قصب السوحر والسير به في شوارع المدينة.

يجب الاعتراف بأن التفاصيل الدويزية الصرفة ليست غزيرة في البحث عن المطلق فلا يلاحظ فيها برج دار البلدية الشهير، ولا يسمع فيها لحن غايان المناسب نغمة نغمة، وما من أحد ياكل اللّوس، تلك الرقائق من الطوى المستديرة التي لا تصنع إلا في دوى. يمكن أيضاً المناقشة في معرض وصف رواق مدخل كنيسة سان پيير، أو في اسم ساحة سان جاك التي أطلق عليها منذ العام ١٨٠٢ اسم ساحة النصر، كما قد يستغرب من حديث المؤلف عن ضيق شارع باريس وهو في كل حين أحد شرايين المدينة الرئيسة. لكن الأسماء أصلية: فنهر سكارب هنا، وكذلك باب باريس، وكنيسة سان پيير، ونزهة سان جاك، وريّض اسكرشن. ألا يكفي سحر الأسماء التي يعبر مارسيل بروسست عن عمق الإحساس بها لخلق الواقع الدويزي؟ مشابهة محلية، وواقع إقليمي، واقع نموذجي، هذا هو بالتأكيد هدف بلزك، الذي لا يتطلّع أبداً إلى لقب الروائي الإقليمي؛ واستحضار دوى يصوّر بشكل تام هذا التقصّي العام، فكما في بايو أو ألانسون، كذلك في دوي يلعب بالهويست، وتتداول أخبار المدينة، وتنتشر الوحوش والغيبة بحيث أن وصف الصالونات الدويزية تشبه وصف مثيلاتها في الأقاليم التي تتعرض لها الملهاة الإنسانية؛ ومع ذلك فهي شيء آخر مختلف. إن لم توجد الدقة المحلية المتناهية، فقد وجدت في البحث عن المطلق حقيقة فلمندية أصلية تتجلّى أولاً في حيوية الأساطير المحلية التي تقدم للزائرين من بروكسل حتى غان أو تورني، ومن دوي حتى فالنسيين أو ليل «نموذج» بيت كلايس، بينما البيوت الفلمندية الوحيدة التي أنعم النظر بها بلزك في الحقيقة، قبل أن يصوّر بيت كلايس، قد وجدت وما تزال موجودة في إقليم تورين، وخاصة في قلب تور القديمة، في شارع بريسونة الضيق، وهو بيت تريستان بواجهته من الحجر والأجر وجملونه البارز.

ما ينطبق على فلورنسة ينطبق دون شك على الفلاندر؛ وقد أكد بلزك في المقدمة الأولى لجلد الحبيب: «إن الرسام الأكثر حرارة، والأكثر صحة لفلورنسة، لم يزر فلورنسة أبداً» معبراً، وهو يتطلّع بداهة إلى نفسه، عن قدرة

رجل العبقريّة علَى التجوال عبر الزمان والمكان بفضل «البصيرتو حاسة البصر الثانية».

لا تستغرب ممارسة هذه «الحاسة الثانية» باندفاع خاص نسبة إلى الغلاندر، إذ لم يقتصر مؤلف الملهاة الإنسانية على تأمل البيوت الفلمندية المبنية في تورين في زمن لويس الحادي عشر من قبل معماريين أتوا من الفلاندر، وإنما، وبصورة خاصة، أظهر منذ مطلع شبابه إيثارة، في الرسم، فنّاني المدرسة الفلمندية والهولندية، أولئك الذين يمتحونه الانطباع الكامل عن حقيقة الطبائع. إنّه دون شك كبطل جلد الحبيب الذي تمثله البيرة وهو يتأمل لوحات تينيه ويرتعش قرأً أمام لوحة تساقط الثلج لمييريس؛ إنّه يهيم شغفاً بالظل والنور... الظاهرين بشدّة في لوحات رامبرانددت»، «وبحقيقة هذه القسّمات ومظاهر الحياة اليومية» المدهشة؛ بكلمة واحدة، بالتعبير عن الحياة في حقيقتها الكلية، حقيقة الأفعال وحقيقة السحن أيضاً التي تتسجّل فيها الطباع والأقدار؛ ففي صالات عرض لوحات الرسم في اللوفر، وحتى في مجموعات الرسوم النافرة والصور التي يمتلكها لم يكن يمل من التأمل بإعجاب في لوحات، ناطقة بالحقيقة، لجيراردو، أو ميتسو، أو تيربرغ، أو مييريس، أو تينيه؛ فأحد أبطال جول جانن، بارناف يقول: «أحببت الفلاندر لكثرة رؤيتي اللوحات الفلمندية» أما بلزك فيمكنه القول: «إنني رأيت الفلاندر لكثرة تأملي في اللوحات الفلمندية».

لقد «رأى» الفلاندر، وبالطبع فقد بدا في «البحث عن المطلق» رسّاماً من المؤكد أن ناحية الابتكار والتقانة التصويرية في المظاهر الجمالية الروائية لبلزك لا تحتاج إلى برهان، وليست هذه حالة وحيدة لديه؛ فالروائي الذي أشار في مناسبات عديدة إلى تفوّق الرسم على الكتابة، يستعير دون انقطاع ريشة الرسّام ليجمع ملامح شخص أو إطاراً زخرفياً وكلمات «لوحة» و «صورة» و «رسم» تظهر غالباً في الملهاة الإنسانية؛ وما هو أكثر من ذلك، أن بلزك قدّم بقلم فليكس دافن دراسات طبائع كرواق لوحات فنية، قد قسمّ لحسن الحظ إلى صالات لكل منها غايته» وهو بالذات يشبّه بطيبة خاطر رواياته

بلوحات، فقد أراد مثلاً أن تكون أوجيني غرانده والبورجوازيون الصغار، في العام ١٨٤٤ «لوحة جميلة من لوحات المدرسة الهولندية مع رأس من إيداع رافاييل في وسطها».

في هذه الشروط فإن وضع البحث عن المطلق في دوي، العاصمة القديمة للفلاندر تهيء لمهبة الرسام موقعاً مفضلاً، هذا ما يجب الاعتراف به؛ وتأثير الفنانين الفلمنديين يتجاوز هنا الذكريات وحتى تغيرات الفن إذ يجب الحديث فعلاً عن تأثير «مبدع» مماثل لذلك أحدثه على الروائي لافاتر أو كوفيه أو جوفروا سان هيلير، فبفضل البصيرة حاسة البصر الثانية، «رأى» بلزك الفلاندر، وكان رسامها الأكثر واقعية ونقل الأكثر «فلمندية» من الجميع.

عندما بنى ذلك المنزل الذي ما يزال يخفق فيه قلب الفلاندر القديمة، أنشأ فيه كما في جميع مساكن هولاندة الغنية، صالة عامة للوحدات، ووصف في منتصف الرواية تماماً غنى تلك الصالة، وهي وسط هندسي حقيقي في المكان والزمان، لمنزل كلايس. إذا استخدمت قاعة الجلوس إطاراً للأحداث المساوية، واحتضار الحب، فكانت حجرة كئيبة تتلاشى فيها أشعة النهار ويموت فيها الأشخاص جوزفين ثم بليزار - فإن الصالة العامة بالمقابل ذات النور الهادئ والموزع بانتظام تظهر كمكان للحظ الموفق والحب الوائد، وكركن سعيد يتفتح فيه الغرام السماوي والمشع لمرغريت وإيمانويل.

من الصالة العامة، مثلاً سنة تتأمل ثروة كلايس تتدمر وتستعاد، وهي في عودتها إلى الظهور، مأساوية ورمزية في آن واحد، تشخص كل مراحل المأساة، وكل وجود تلك العائلة الذي يبسطه المؤلف في سلسلة من لوحات التاريخ، والمشاهد المنزلية، وملامح الأشخاص، مما يحيل الرواية إلى صالة عرض حقيقية يكون القارئ فيها هو الزائر.

إنه وهو المتشوق إلى تلخيص تاريخ الفلاندر في لوحة منذ أصولها الأولى، يلجأ إلى التباين في الإضاءات، وإلى تراصف الألوان، وإلى اختيار الأشياء، الزجاجيات البندقية، وخزف الصين أو المنولينة الإسبانية، أو إنه

يرسم على السطح المستوي للوحته هيمنات القرون المتغيرة، وتاريخ تجارة شعب؛ بكلمة واحدة، سير الزمن، ويختصر على طريقة تينيه، الذي يقول عنه إنه «قد صور الشعب الهولندي يدخن التبغ ويشرب البيرة» تاريخ الطبائع في طبيعة صامته مؤلفة من كأس بيرة وجليون، على أرضية قائمة تذكر بأن وحدة الفلاندر قائمة بفضل التبغ.

يصور بلزاك، وهو رسّام الملامح الحريص على الحقيقة السيدة كلايس كلوحة الأم المتألّمة لموريو، ومرغريت كملاك من ملائكة غيد، وإيمانويل دي سوليس صورة من صور رفايل، لكنه يستعير من أجل لمولكنية وبلتزار كلايس ريشة وامبراندت، سيّد الإضاءات العجيبة، بينما يمكن مصادفة الأشخاص الثانويين بين شيوخ البلد التي رسمها ميرفلت أو وسط عامة الشعب المتميّزين بغنى اللون لجوردنس^(١).

ألا يخيل إلينا أيضاً، عند مشاهدة منزل كلايس، أننا أمام أحد هذه المساكن، المزخرفة بجبة جملون ذات حيد في «سوق أعشاب امستردام» الرائع، الذي رسمه جيراردو، أو في ساحة إحدى هذه المدن الصغيرة التي استهوت ريشة فان دير هايدن؟ وأتينا ندخل إلى الفناء الداخلي على الانعكاسات الوردية أو على مرأى إحدى لوحات فرمير أو بيبتر دي هوش^(٢).

الحدث الأكثر تميّزاً أيضاً في جميع المشاهد الداخلية لهذه القصة المأساة هو إيمانها عنواناً مستمداً من لوحات مييريس أو تربيرغ أو تينيه: «عائلة فلمندية»، «شابة تقرأ رسالة» «مشهد داخلي لطبخ»... ومجموعة هذه اللوحات الأصلية المثيرة للدهشة سواء بتناسق الألوان واتقان التفاصيل أو بتوازن التركيب والحقيقة اليومية للمواضيع، تفتني أيضاً بتحف فنية جديدة مثل

(١) يستعين الروائي بلوحات أشهر رسامي العصر الوسيط: موريو: الرسّام الأسباني (١٦١٨ - ١٦٨٢) وغيد الرسّام الإيطالي (١٥٧٥ - ١٦٤٢)، ورفايل أشهر رسامي إيطالية (١٤٨٣ - ١٥٢٠) ومربراندت رسّام المدرسة الهولندية الشهير (١٦٠٦ - ١٦٦٩) وجوردنس: الرسّام الفلمندي (١٥٩٣ - ١٦٧٨).

(٢) رسّامان هولنديان.

«عشاء فلمندي»، أو «سهرة عائلية»، أو «زيارة موثق العقود»، أو «وداع المخبر»، أو «القهوة» أو «موت أم» أو «خطوبات فلمندية»؛ فالمجموعة توضع إنذاراً تحت دلالة الوحدة الفلمندية المتناسقة بشكل كامل، حيث يعتمد التنويع فيها العرض، فأحياناً تكتفي اللوحة بذاتها، وأحياناً تزدوج بتأثير التناظر أو بتجسيم التباين بين رسمين، بينما يمكن لثلاثية، في لحظة مأساوية، أن تقارب الماضي والحاضر والمستقبل؛ وهكذا ففي حفل الذكرى السنوية للزواج، الصاخبة والملونة، وهي البقية الأخيرة من ماضٍ سعيد يقابلها من الناحية الأخرى مشهد الفناء القاتم والخاوي، بينما توجد في المركز صورة الفلمندية الشابة مرغريت مثيرة للانتباه وموجهة القارئ إلى الدور الأساسي الذي ستضطلع به الفتاة الشابة قريباً.

من هذه المشاهد الحميمة، وهذه الصور المقدمة، يكون الروائي أحداث مأساة من جزئين ينعكس مخططها الموجه في حركة الألوان ويخضع للصبغية المسيطرة لكل منها؛ فالأسود هو لون الجزء الأول والموت يتجلى مسبقاً في اللوحة التي تمثل السيدة كلايس في قاعة الجلوس وكأبة خريفية تغمر تلك الغرفة حيث تبدو تلك المرأة المتألمة «كأم تحتضر» فكل شيء دموع وحداد واحتضار، لا يكاد يظهر على أرضيته السوداء ألحى يضع وردات ينثرها الحب الوليد بين الشبابين في نهاية هذا الجزء المخدّب بوهج الاحمرار الوافد من الجحيم المعلن عن حريق المطلق. في الجزء الثاني من الرواية تتناوب ألوان السماء والجحيم، والضوء والعتمة؛ فمرغريت، وقد جعلها الحب الصافي لايمانويل الرفاييلي، تبدو كملاك تشعّ بحضورها نوراً سماوياً؛ فالأزرق اللأزودي، وهو رمز الانتصار والحبّ يتنازع مع الأحمر الجهنمي الذي يرمي به الموت؛ ولئن كان اللهب أحمر، فالنور لدى بلزك في الغالب أزرق: «إنّ الحياة زرقاء كما السماء الصافية»^(١)، وسير قصة آل كلايس يخضع، كما هو بّين، إلى الترميز المألوف في ألوان الملهاة الإنسانية؛ لكن صبغية المجموع تزيد من التأثير على القارئ، «وكلوحة من المدرسة الهولندية يبدو هنا كل شيء قاتماً،

(١) من رواية الدوقة دي لانج.

حتى الوجوه» هذا ما قاله بلزك في المارانا؛ وهذا تماماً ما يمكن قوله في البحث عن المطلق، وإذا كانت كلُّ الملهاة الانسانية تكشف لدى بلزك عن فن فلمندي بشكل رئيس فيجب الاعتراف بأن هذا الألق اللوني فيها لم يتلأأ فيها أبداً بمثل هذا التلألؤ الذي يظهره تباين النور والظلّ الفاتن في منزل كلايس. في بلجيكة، وجّه ناقد عبر تقريره عن البحث عن المطلق تحية مؤثرة لهذه اللوحات التي يتجلى في ألقها اللوني النضارة والانتقان الرفيع وهما بالنسبة لناشيء وطني حقاً وفقاً لمنظور الفن». أما في فرنسا، فمن بين التقرّيزات العديدة التي حيّت موهبة الرسّام في هذه الرواية، يكفي أن نخنار شهادة س. ه. برتو، وهو فلمندي عريق، وخبير مدهش في الرسم الفلمندي: «إن السيد دى بلزك ينتمي إلى ما يمكن أن نسميه في الأدب المدرسة الفلمندية، فهو أحياناً متألّق ومندفع كروبنز، أو غامض وعجيب على طريقة رامبرانت، لكن يجب مقارنته خاصة مع تربّغ؛ فالواقع أنّه كهذا الرسّام الشهير تُلذ له اللوحات على المساند، يصوّر فيها الوجوه بأنق تفاصيلها، وبانتقان وخلو من العيب يتحدّيان العدسات المكبرة، وهو يبرع بشكل عجيب في أن يلعب على أقمشة اللوحات ثنايا الطيّات والتألّقات الناعمة للانعكاسات الحزيرية، ولا يفوته شيء من المتعمّات، ويعرف كيف يعطي للأشياء الأكثر ابتذالاً أهمية قصوى». يجب أن نضيف إلى أن هذا الفن الفلمندي حيث دقّة اللمسات تعبّر بواقعية مدهشة عن حقيقة الحياة، لا تمنع عين الفنان من أن تكون في الوقت ذاته عين العرّاف الذي يتأمّل في ما وراء الزمان والمكان، وابتكارات الرجال، فترى حقيقة ليست أبداً على مستواهم.

V

تتحقّق سريعاً أن هذا العرض، المأساوي والرمزي، في لوحات يشير تتابعها إلى سياق محتم للقصة ينزع إلى أن يستبدل بالتسلسل التاريخي تسلسلاً منطقيّاً وجّه المنهج الاستنتاجي فيه باستمرار خطأ الزائر؛ فكلّ لوحة

تُعرض كنتيجة - أو كسبب عندما يتعلّق الأمر بالعودة إلى الخلف - لما سبقها فلا يشعر بسير الزمن إلّا في مُدد قصيرة لا تظهر فيها الشخصيات؛ وهكذا فالعبارات المخصصة للدلالة على المدة وإعطاء مؤشر زمني تتميز بقصرها، فإذا تطلّعنا إلى العمل ككلّ، نلاحظ أن بين المشهد الذي بدأت فيه الأزمة في شهر آب ١٨١٢ والمشهد الحادث في آب ١٨١٣، أي بعد سنة، تتسجّل سبعين صفحة في طبعة فورن، وتكفي بعد ذلك اثنتان وتسعون صفحة لتسجيل تطوّر المسألة من ١٨١٣ إلى ١٨٣٢ أي التصدي لرحلة تقرب من عشرين سنة؛ ويؤكد التفصيل الرؤية المجملّة، وهكذا تتسطرّ مدة اليوم العصيب من شهر آب ١٨١٢ على الخمسين صفحة الأولى، بينما تختصر عبارة بسيطة قضاء شهرين في الريف. مثال آخر، لقد استلزم اليوم الذي ماتت فيه السيدة كلايس سبع صفحات، كما تطلّبت المقارنة بين ببيركين وإيمانويل من قبل مرغريت في ذلك اليوم من شهر نيسان ١٨١٦ أربع صفحات بينما عبّر ببعض كلمات بعد ذلك مباشرة على انقضاء عدة أشهر، ثم ببعض أسطر على مرور سنة.

سجّل هذا الواقع بحق ج. پله بقوله «إن المستقبل والماضي طريقان ملتزمان سوياً أمام الفكر الاستنتاجي»^(١) مما يجعل المدة البلاكية تشتمل على: «حركة تقهقرية تصعد في مجرى الزمن قبل أن تنبسط من جديد في حركة تقدّمية نحو الحاضر والمستقبل» فيتمّ الانتقال من النتيجة إلى السبب، ثم من السبب إلى النتائج، فالأمر يتعلّق باستمرارية متناسقة، ومدة مليئة، وحيز مليء يتمكن المؤلف خلالها، بفضل البصيرة، حاسة البصر الثانية أن يلمّ بالموضوع من جميع الجوانب.

أليس هذا الاندساس المستمر للماضي أو للمستقبل في الحاضر؟ أهي تقنية؛ إنّها رؤيا للعالم خاصة؛ فيلذاك، بإلغائه الزمان والمكان يسيطر على ما أيدع بحظرة واحدة تقرب الحيز والفواصل بحيث أن مجتمع الفانين لا يعيها إلا في انقطاعها، وتغايرها.

لقد سخر النقاد من السرعة والسهولة التي جدّدت فيهما مرغريت كلايس

(١) ج بوله: المسافة الداخلية، بلون ١٩٥٠ من ١٧٨٠.

الثروة الوراثية التي بددها والدها؛ وقد عدل الروائي المتأثر بالنقد - لكن بطريقة غير كاملة - تأريخ سنوات منفى بلتزار في الطبعة التالية، هل يفضح، حقيقة، هذا الحدث نقض الواقع لدى مؤلف يعتبر رغباته حقائق؟ إنه يبين، بالأحرى، كنتيجة مباشرة لرؤياه للعالم.

ما قيمة خمس أو سبع سنوات في نظر القرون وفي تاريخ أجيال آل كلايس؟ الأمر الرئيس ليس في التأريخ الزمني؛ إنه في الوقائع، في التتابع المنطقي، أي في تعاقبات عائلة «براها» بلزك في لوحة تتقارب فيها مئتا سنة؛ ومثل هذه الرؤيا تحدد بداية تصور الزمن الروائي، تصور المدة، كما تحدد الطبع المتناسق لمن يحيطون بكلايس الذين تتجسد بهم بالإجمال قوى البقاء المعارضة لقوى الهدم التي أطلقها الكيميائي.

المقصود في الواقع رؤية «إجمالية»، وإذا كانت رؤيا عالم زولا تتوافق مع مبادئ فيزياء عصره، وبورة المال أو الدم في روجون - ماكار^(١) تخضع لنسق محرك كارنو ذي الأزمنة الثلاثة، فإن بلزك، من جهته قد اعتمد على مبدأ لا فوازيه الذي لا يقتصر تطبيقه على الكيمياء وإنما يتحقق أيضاً، من وجهة نظره، في جميع أعمال الخلق: «لا شيء يفتنى، ولا شيء يخلق، الكل يتحول، وتاريخ عائلة كلايس يقدم نموذجاً إيضاحياً رائعاً، وبرهاناً علمياً لهذا المبدأ عن حفظ الطاقة. في الذرية السابعة من آل كلايس تتجابه قوى الهدم وقوى البقاء، وإعطاء المسألة قيمة نموذجية، فإن العبقرى الهدام باحث عن المطلق، إضافة إلى أنه فلمندي؛ لكن قوى البقاء تتغلب عليه وتمحو الذرية الثامنة سيئات الذرية السابعة، فإذا حلت لوحات أخرى محل اللوحات السابقة، وبدل الأثاث والسُجف، فإن مرغريت، في لحظة احتضار الكيميائي، قد أعادت إلى بيت كلايس بهاءً حديثاً، حرص بلزك على أن يؤكد أنه «يبعد كل فكرة عن الانحطاط».

(١) روجون - ماكار: مجموعة من ٢٠ رواية نشرها زولا بين ١٨٧١ و ١٨٩٣ لتشكّل التاريخ الطبيعي والاجتماعي لعائلة في ظلّ الامبراطورية الثانية وفيها يطبق الطريقة العلمية وخاصة تطبيق قوانين الوراثة على دراسة الظواهر الاجتماعية. من هذه الروايات نانا وجرمينال الخ...

الكل يتحوّل، لكن الكل يبقى؛ والتوازن الذي يؤمّن وحدة العالم لن يستتبع بدهة غياب حركة تعني الموت، لكنه يستلزم حركة معوضة تتحدّد خلال الزمان بالتعاقب وخلال المكان بالتباين.

هكذا يتوضّع في الملهاة الانسانية تعاقب الأجيال، والتعاقب الذي يتفسّر بالتّيار، وهو مصدر غالب لمجابهاة مأساوية، فأوجيني تجابه غراند، التي تبدو فيها طباع العائلة أكثر حدّة مما في طبع أبيها، كما يعترف هذا صراحة، وبالطريقة ذاتها يتصارع هنا بليزار وابنته، وطبع آل كلايس فيها أكثر ظهوراً منه في أبيها، وكما عبّر كاليست دي غنيك في بياتريس عن ذلك لأمه بقوله: «ألا ترين أنك بالعفة والتقاليد الجاهلة قد هيأت النار التي تنقد في كياني؟ وكلّما كمنت هذه النار كلّما كان تفجّرهما أكثر عنفاً.

إلى المبدأ ذاته، تخضع الأقدار الشخصية في نتاج بلزاك. فوجود كل فرد يتشكّل كما يقول الروائي في أونورين: «من حوادث متنوّعة، من آلام ومسرات متناوبة» فحياة القلب، كما الحياة المادّية، وكما الحياة الجسمية، أي التنفّس، تخضع بالتناوب إلى مدّ وجزر؛ فأوغوستين دي سومرفيو في مجد وشقاء لم تعرف إلاّ سنة واحدة من السعادة، لكنها قدّرت، قبل أن تموت وهي في السادسة والعشرين من العمر، أن هذا الحصاد الغزير من الحبّ هو حياة كاملة لا يمكن أن يسدّد ثمنها إلا بالشقاء؛ والنساء اللواتي كن سعيدات في البدء يحتفظن حتى النهاية في عيونهن المنذهلة بانعكاس روعة الحبّ، بينما اللواتي خنقن حبّهن الوليد في الحداد والدموع مثل أورسول ميروه أو مرغريت كلايس يثلقن يوماً من يدي الحبّ التاج الأكثر اشتهاً، التاج الذي تضفّره السعادة، وتحافظ المثابرة على بريقه.

هذا هو التوازن في الطبيعة الذي يعاقب، وفق قوانين تعويض صارمة، النهار والليل، والصيف والشتاء، والمدّ والجزر؛ والإبداع الروائي لدى بلزاك يخضع لهذه الرؤيا الإجمالية، القريبة جداً من رؤية علماء الطبيعة الذين يتحدثون عن التغيّر في الوحدة، ومن رؤية الفلاسفة مثل أراييس، ومن قبله

خاصة، أنطوان دي لازال^(١) مؤلف الموازنة الطبيعية، والروائي الصانع، الراغب في أن يُري القارئ ما يراه هو بالذات، أي بالإحاطة بكامل القصة، يؤكد دون انقطاع وجوده بواسطة إشارة تعجب، أو كلمة، أو عبارة، تشير إلى الميزة الرمزية للحظة. إنه يقود القارئ في هذا الكون حيث يسود الرمز وحيث تتجاوب الألوان، وحيث تظهر الأمكنة والمشاهد؛ ففي البحث عن المطلق، يجاب عشاء عائلي عشاءً عائلياً آخر، إنما منار بطريقة مختلفة؛ والاحتفال بالذكرى السنوية للزواج المزيّن بالشجيرات المزهرة، يقابله الاحتفال بعقود الزواج حيث تشاهد مجدداً، على درجات السلم ذاتها، الشجيرات المزهرة ذاتها، فالإضاءات تتقابل، والتباينات تخلق التنوع المماثل لتنوع الطبيعة، في هذا الكون «الواحد» حيث يمثل التناظر عنصر التوازن المميز.

هل يترك القارئ لنفسه أن تنساق مع هذه القصة؟ السؤال بمجمله هو في الرؤية أو عدم الرؤية، في الاعتقاد أو عدم الاعتقاد. من البديهي أن هذه الرؤيا الإجمالية التي تكتنف هنا قصة جيلين من عائلة، تنطوي هنا، على مستوى الإنسان ومحاكمته بعض «ما هو مستبعد الوقوع» مثل هذا النجاح السريع جداً لغابرييل كلايس وإيمانويل دي سوايس في دروب الحياة، أو هذه العمليات المالية الميسرة والمجزية لرغريت، لكن أضر هذا البعد عن الاحتمال، المعزوّ بصورة رئيسة إلى ارتفاع الرؤية، فعلاً إلى حقيقة هذه الدراسة عن الطبائع، وإلى هذه اللوحة الفلمندية، وحتى إلى هذه الصورة عن رجل البقرية ذي المغناطيسية التي لا يتمكّن محيطه من مقاومتها؟

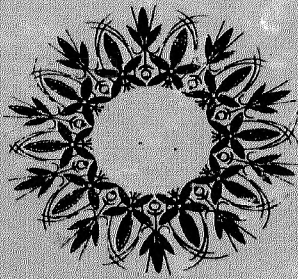
إن الجواب يعود إلى القارئ، فهو حرّ في قبول أو رفض الافتتان بهذا العمل الأسر، حيث بهاء التنفيذ يتجاوب مع قدرة التصوّر في رواية الحب والعلم هذه، الأكثر «تمثيلاً» على الأرجح لبلزاك، الملاحظ والمستبصر، والباحث الخالد عن المطلق.

هادلين أمبيرير

* * *

(١) دي لازال: (١٣٨٨ - ١٤٦١)، قصاص فرنسي تنسب إليه «مباهج الزواج الخمسة عشر، ومئة قصة جديدة».

۱۹۹۵/۱/۱ ط ۳۵..



طبع في مطابع وزارة الثقافة

دمشق ١٩٩٥

في الاصدار المبدئية كما يصادل

٢٥٠ ل.س.

نيل الفطر

١٣٨٥